

محمد المرزوقي

قابس

جنة الدنيا

واحتها - خليجها - مدينتها
سكانها - تاريخها - رجالها

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد



محمد المرزوقي

قابس

جنة الدنيا

غابتها - خليجها - مدينتها
سكانها - تاريخها - رجالها

يوم بـ(قابس جنة الدنيا) وفي
قلبي لوشك البين حرقة مسعر

أبو الفضل البيهاني

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد



الإهداء

إلى أستاذى الجليل حسن حسن عبد الوهاب

هذا الكتيب نتيجة دروسكم وتعليماتكم ، وثمرة هديكم وتوجيهاتكم ، وقبس من فيض نوركم اللامع ، وعلمكم الواسع ، فمن معلوماتكم جمعته ، وعلى ضوء توجيهاتكم وضعته ، فاسمحوا لى – إذن – أن أهديه إليكم كباكورة لثمرة غرستم شجرتها ، وانتظرتم إيناعها وبركتها ، والله المسؤول ، أن يكون جديراً لديكم بالقبول .

ابنكم المخلص

محمد المرزوقى



فهرس الموضوعات

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

واحة خضراء تمتد مستطيلة من شاطئ البحر حتى تقترب من الروابى الجرداء المطلة على قرية (شننى) من الغرب ، يبتسم لها الخليج من الشرق وتطل عليها الروابى الجبلية من الغرب وقمم جبل (خنقة عيشة) من الشمال ووراء سهل ترقطه بعض الواحات الصغيرة والربى المتناثرة ومجارى السيول الموسمية بينما يحرسها ضريح الصحابى (سيدى أبى لبابة الأنصارى) من الجنوب ، وتمتد المدينة بين الواحة وبين الضريح مشرقة حتى البحر .

هذه هى (قابس) التى نخصصها بهذا البحث ، والتى تعتبر اليوم عاصمة الجنوب الشرقى للجمهورية التونسية ، ونقطة الوصل بين الجنوب والشمال . ومركز الحركة التجارية والصناعية والزراعية لتلك الجهة والتى كانت فى يوم من الأيام العاصمة الثانية لإفريقية بعد القيروان .

وقد عرف الأقدمون أهمية موقعها فهى مطلة على الصحراء الكبرى من جهة . تنطلق القوافل المحملة منها إلى عرض الصحراء لتمير الواحات المتناثرة فى طريقها حتى تنتهى إلى بلاد السودان ، وهى قريبة من طرابلس من جهة ثانية يربط بينهما طريق لا يخلو من الحركة ليل نهار ؛ وهى على رأس الخليج المسمى باسمها من جهة ثالثة حيث ترسو السفن الصغرى وتدفع بما فى بطونها إلى المدينة لتتلق منها ما تحمله إلى المراسى الأخرى من خيراتها ، وهى مفتاح للمدن الإفريقية فى الشمال من جهة رابعة حيث

العمران ، والحضارة ، والخيرات ، وحيث السلطـة ، والجيوش .

ولهذه الاعتبارات أصبحت (قابس) نقطة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين وبين العمران والصحراء ، ومركز شبكة الطرقات الهامة ، والنقطة الاستراتيجية الحساسة بالنسبة للسلطة التى تحكم هـذه الرقعة من الأرض .

نعم ، عرف الأقدمون لها هذه الأهمية فأطلقوا عليها اسم (باب إفريقية) ووصفوها بأنها (جنة الدنيا) وبأنها (دمشق الصغرى)[1] وبأنها (فى إفريقية كدمشق الشام)[2] .

* * *

دخلت (قابس) فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ وأنا غلام ، بعد ما قطعت لها طريقا صحراويا طويلا قضيت فيه نحو ثلاثة أيام على ظهور الإبل فكانت أول مدينة متحضرة رأتها عينى ، أسواق عامرة تموج بآلاف الخلائق ، وبناءات عصرية تطل على المدينة القديمة من الشرق والجنوب ، وطرقات واسعة معبدة لم أر مثلها فى قريتى ، وغابة ذات نخيل باسق ، وأشجار خضراء ، تحمى المدينة من الشمال والغرب ، وسيارات تندفع هادرة صاخبة يتحكم فيها شخص بواسطة مقود من الحديد فتطيعه كما يطيع الجمل راكبه بواسطة الرسن ، وعربات تتدحرج على الأرض تجرها خيول مطهمة غاظنى أن أراها فى هـذه المهنة الذليلة وقد خلقها الله للسروج المذهبة والمفضضة ، ومحطة للقطر الحديدية قبعت على جانب البناءات سمعت منها — لأول مرة فى حياتى — صفيراً حاداً ينطلق من قاطرة فأدهشنى

(١) التيجانى ص ٨٦ .

(٢) بسط الأرض لابن سعيد ص ٧٨ .

وتعجبت من تلك الآلة المتحركة الدواليب التى تصبح ، تماما كما يصبح حيوان ذو نفس .

هذه الصورة التى أخذتها عن قابس وأنا طفل بقيت محفورة فى ذهنى لم تمحها الصور التى رأيتها بعدها فى تونس العاصمة وفى غيرها ، ولو أنها أجل وأروع منها .

وتتابعت الأيام وكثرت زياراتى لهذه المدينة فاتخذت فيها الأصدقاء والأحباب ، ثم تطورت علاقتى بها على الأيام فإذا بها تصبح لى مركزا لتسيير الحركة الوطنية بأرض الجنوب بعد الحرب العالمية الثانية ، ففيها عقدت المؤتمرات الوطنية بالمسؤولين فى الأرض المحكومة من طرف السلط العسكرية التى حرمت علينا بصيص الحرية الذى كنا نلقاه فى قابس ، ومن هناك كنت أعطى الأوامر والتعليمات الحزبية لإعداد وسائل تحرير البلاد ، وكنا نلقى من أهل قابس الإكرام والتشجيع .

وكنت أغتنم كل فرصة أثناء هذه الزيارات للتمتع بمناظر غابة قابس ومنتزهاتها الرائعة وكانت هذه المناظر تأخذ بلبى وتتفتح لها نفسى بالرغم من أنى ابن واحة وليست مناظرها غريبة عنى ، إلا أن واحة قريتى التى عرفتها كانت حديثة التكوين صغيرة المساحة أفسدتها يد الإنسان بما أدخلت عليها من التنظيم والتشذيب والبهرجة وهو أمر لا أحبه فى هذه الغابات الخضراء التى يعجبنى منها بقاؤها على الحالة الطبيعية ، أشجار مختلطة متشابكة الأغصان وطرقات ومجارى مياه ملتوية متداخلة ، ومنازل للسكنى بسيطة المظهر متناثرة هنا وهناك مختفية عن الأنظار تحت ظلال النخيل والأشجار وهذا ما حققته لى واحة قابس ولم أجده فى قريتى حيث تنعزل المنازل عن الغابة انعزالا تاما .

كل ما فى قابس لفت نظرى وجلب انتباهى وأثار كوامن حبى لها ،

إلا شيئا واحداً كان يقلقنى وأتبرم به ذلك هو ماؤها ، فكنت ألقى العناء من هذا الماء فهو بالنسبة لمثلى ممن اعتاد شرب المياه العذبة سواء فى القرية أو فى تونس العاصمة أمر مقلق وموسف فماء قابس شروب ، كما يقول الأقدمون ، ولكنه ليس بعذب ، وهو ثقيل ولا يطمع الإنسان الأجنبى أن يتعود به إلا بعد قضاء مدة فيها .

سنوات متطاولة وأنا ملازم لزيارة قابس سنويا تقريبا بعدما أصبحت مقرا لجزء من عائلتى ولم أفكر فى التأليف عنها ولكن حين اتصلت بـ (المعهد القومى للآثار والفنون) وكان من عملى الاطلاع على ما كتبه الرحالون والمؤرخون عن بلادنا واكتشفت اهتمامهم بقابس وقابلت ما كتبوه بما أعرفه عنها إذ ذاك خطرت لى فكرة هذا التأليف ، فجمعت ما وجدته فى مدحها وذمها ، فى الواحة والمدينة والمعالم ، وعن علمائها وأدبائها وأمرائها وولاتها وأحداثها السياسية ، ورجعت فى المجهول من هذا كله إلى مؤرخ إفريقية أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب — متعنا الله بحياته — فوجدت من علمه الواسع ما سد الثغرات ومن توجيهاته القيمة ما سهل العقبات ، ثم أضفت إلى ذلك ما أعرفه شخصيا عن هذه الواحة ، وما جمعته أثناء زياراتى لها من معلومات أمدنى بها بعض الأصدقاء من السكان والموظفين بالمصالح الحكومية ، جزاهم الله عنى بالخير وأجزل لهم عن إعانتهم الأجر ، ثم نظمت جميع ذلك فى أبواب وفصول تكون منها هذا الكتاب الذى سميته (قابس ، جنة الدنيا) مقلدا فى ذلك (أبا الفضل محمد بن على التجانى) الذى يقول :

يوم بـ (قابس جنة الدنيا) وفى   قلبى لو شك البين حرقة مسعر

وخصصت الباب الأول منه بالحديث عن واحة قابس وموقعها ومنتزهاتها ومنتجاتها والأحداث التاريخية التى مرت عليها .

والباب الثانى للحديث عن خليج قابس ومرساه البحرى ، ومشروع بحر الصحراء .

(ك)



غابة من النخل لم تهذبها يد الإنسان

والباب الثالث للحديث عن المدينة وموقعها القديم والحديث ومعالمها كقصر العروسين التاريخي وغيره .

والباب الرابع للحديث عن السكان وأصولهم وطباعهم .

والباب الخامس للحديث عن التطورات السياسية والأمراء والولاة الذين تعاقبوا على قابس وعن فترات استقلالها وتبعيتها .

والباب السادس للحديث عن أعلام رجالها من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر للهجرة .

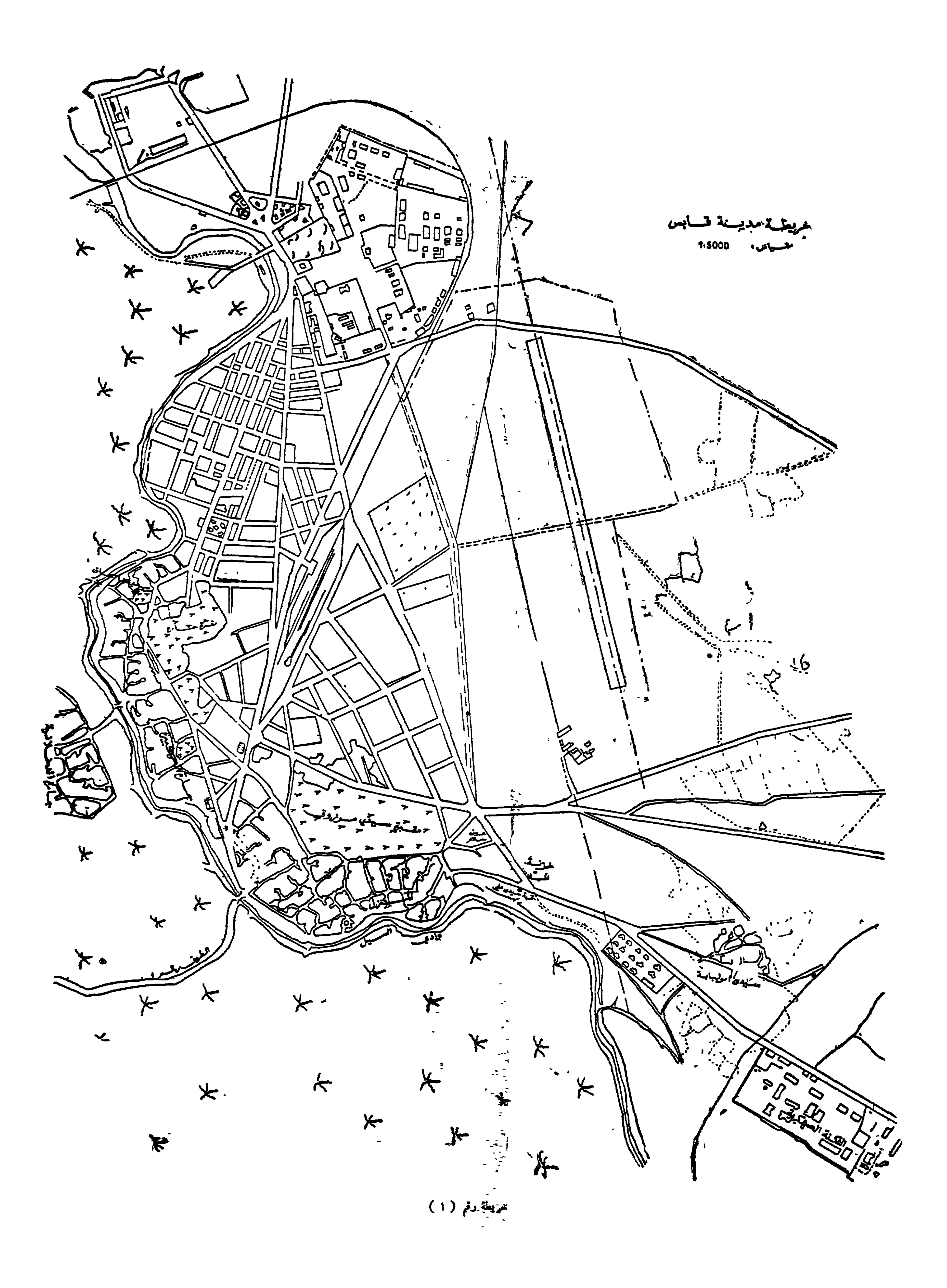
ومن هذه المجموعة من المعلومات عن قابس يتعرف القارئ إلى مكانة هذه الواحة في التاريخ وإلى الأحداث التي تلقي ضوءا عن فترات من تاريخنا القومي يستغنى بها عن الرجوع إلى المجلدات العديدة من كتب التاريخ والرحلات .

وانتهيت من إعداد الكتاب للطبع في خريف ١٩٥٩ ووضعته على الرف — كما يقولون — وقد تغيرت بعد كتابته أشياء وأشياء ، ولكني لم أستطع تغيير ما كتبت للشواغل اليومية التي حالت بيني وبين إعادة النظر فيه وتكلف البحث عن التغييرات الحديثة ، واكتفيت ببعض التغييرات الطفيفة التي ليس منها بد ، ورأيت أن أقدمه للطبع ما دامت هذه التغييرات لا تنال من جوهر الكتاب .

وأملي أن يكون في هذا العمل المتواضع نفع للجيل الطالع ، ومتعة للدارس والمطالع ، والله الموفق للصواب .

تونس في جانفي ١٩٦٢ — محمد المرزوقي





خريطة رقم (1)

الباب الأول
غابة قابس



(شكل رقم ٣) واحة قابس تشقها السواقي المائية – الصورة أخذت من الجو)



الفصـــل الأوّل

الغـــابة

موقعها – أشجارها – مساحتها – كيف وصفها الرحالون

لسنا ندرى فى أى قرن غرست هذه الغابة من قرون التاريخ ، ولكننا نستطيع أن نتكهن أنها كانت موجودة فى العصر البربرى قبل الفنيقيين وأنها غرست منذ عرف البربر الأُوَل النازلون بتلك الجهة غراسة الأشجار ، فنابع المياه الطبيعية الغزيرة بقابس أغرَت السكان الأوَل بالاستقرار والغراسة وإنتاج الثمار والغلال .

وموقع هذه المنابع المائية قرب البحر حيث يتمكن السكان من صيد الأسماك من جهة ، ومجاورتها للأراضى الصالحة لزراعة الحبوب والزيتون وتربية الحيوان من جهة ثانية ، وللصحراء بسهولها وجبالها حيث تكثر الحيوانات البرية التى يستغل الإنسان لحومها وجلودها من جهة ثالثة . كل هذه الأشياء دفعت البربر الأول للاستقرار وتكوين واحة قابس .

وبالتأمل من تربة الغابة ومن مجارى مياهها يتبين للباحث أن وجود الغابة كان ماثلا منذ قرون متطاولة ، ولعل فى اسم قابس القديم (تاكاب Tacape)ما يدل على توغلها فى القدم[1] ، إلا أن هذا التكهن لا يصل بنا إلى التصور أن الغابة كانت فى عصرها الأول تماثل أو تقارب الغابة فى العهد الرومانى ، وفيما بعد الفتح الإسلامى إذ نعتقد أنها كانت غابة صغيرة تناسب مساحتها عدد سكانها ووسائلهم الزراعية البسيطة ، بل نكاد نميل إلى التكهن بأن أشجارها القديمة كانت فى الغالب نخلا وزيتونا ، وأن مكانها كان مقتصرا

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثالث .

على جوانب الوادى ممتدا معه من الغرب إلى الشرق فى مساحة ضيقة .

وجاء الفنيقيون وأدركوا أهميتها البحرية والتجارية فجعلوا منها مركزا تجاريا هاما من جملة المراكز الممتدة على ساحل الخليج الرابطة بين قرطاجنة من الشمال وطرابلس من الجنوت الشرقى وصارت سفنهم تتردد على مرساها الصغير ، ولا نشك أن خصب أرضها ووفرة مياهها أغراهم بإنشاء الضيعات الزراعية التى استخدموا فيها سواعد البربر والعبيد فازدهرت الغابة واتسعت مساحتها

ثم جاء الرومان والبيزنطيون بعدهم فتوسعوا فى إنشاء الضيعات على جنبات الوادى حتى شملت الغابة ما يقارب مساحتها اليوم[1] إذا لم تكن أوسع ازدهارا فى العهد الرومانى كما يستنتج ذلك من وصف بلين Pline الذى يقول[2] :

« وفى خليج (سيرته) توجد مدينة اسمها تاكاب أرضها خصبة ومناخها جميل ، وعلى بعد ثلاثين ميلا منها تقريبا عين فوارة متسعة ماؤها مقسم تقسيما محكما بين البساتين بالساعات ، وفى بساتينها نرى الزيتون يصعد فى ظلال النخيل وفى ظل الزيتون ينبت التين ، وفى ظلال هذا نجد أشجار الرمان وتحت هذه يعرش العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر . كل هذا يثمر فى سنة واحدة وكله فى ظلال وبساتين ممتدة ، ولهذا الخصب يبلغ ثمن المتر المربع الواحد من تلك الأرض دينارين فضة »[3] .

وفى جهات متعددة من أطراف الغابة يعثر المزارعون على آثار

---

(١) يجعلها (الأطلس الأثرى للبلاد التونسية) فى العصر الرومانى ممتدة من شلى إلى سيدى عبد السلام .

(٢) Pline. Hist. naturelle, v, 8 p. 194-195.

(٣) عملة رومانية يساوى الدينار الواحد منها فرنكاً ذهبياً من عملة ١٩١٤ الفرنسية .

بناءات قديمة يرجع عهدها إلى هذه العصور لانشك أنها آثار ضياع متفرقة أنشئت فى تلك الأزمنة .

ولم تكد أقدام المسلمين تستقر فى هذه البلاد حتى تبحر عمران الغابة وعظمت مساحتها وتطورت زراعتها ودخلت إليها أنواع جديدة من الأشجار فأصبحت تمتد من قرب البحر شرقا إلى ما بعد شننى غربا ثم ينعطف طرفاها الشرقى والغربى نحو الجنوب فتصبح المدينة محصنة بالغابة من الشرق والشمال والغرب وتصبح الغابة تغطى مساحة نحو ٧ ك م طولا وما بين ١ — و ٣ ك م عرضا . ويحدثنا الرحالون فى القرون الإسلامية الأولى أن هذه الغابة كانت تعج بأشجار النخيل والزيتون ، والتوت ، والتفاح ، والرمان ، والتين ، والموز ، والعنب ، وقصب السكر ، والحناء ، الخ .

فقال اليعقوبى وهو من أهل القرن الثالث[1] : « كثيرة الأشجار والثمار والعيون الجارية » .

وفى القرن الرابع وصفها ابن حوقل[2] بأنها « ذات مياه جارية وأشجار متهدلة ، وفواكه رخيصة ، ولها من التمر والزروع والضياع ما ليس لما جاورها من زيتون وزيت وغلات » .

ووصف المقدسى[3] واديها بأنه « كثير النخيل والأعناب والتفاح » .

وقال عنها البكرى[4] فى القرن الخامس « وفيها جميع الثمار والموز بها كثير وهى تمير القيروان بأصناف الفواكه وبها شجر التوت الكثير . . . واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياهها سائحة مطردة تسقى بها جميع أشجارها ... وبها قصب السكر كثير » .

---

(١) البلدان ص ١٠٥ .
(٢) المسالك ص ٤٧ .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .
(٤) المسالك ص ١٧ .

وقال الإدريسى[١] عنها فى القرن السادس : « جنات ملتفة وحدائق مصطفة وفواكه هامة رخيصة » .

ثم يقول الإدريسى : « ويتصل بآخر غابة أشجارها إلى البحر رملة متصلة مقدار ميل[٢] وهذه الغابة أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير . . وبها أيضا نخل ملتف به من الرطب الذى لايعدله شىء فى نهاية الطيب » .

ووصفها التجانى[٣] فى أول القرن الثامن فقال : « بلد قد استوفى المحاسن واستغرقها ، واذكر بمنظره الأنضر وورقها الأخضر جنة الخلد وإستبرقها ، وقد أحدقت غابته من جميع جهاته ، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ، ويستوفى الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل : إن قابس جنة الدنيا ، وإنها دمشق الصغرى . : . وأكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر » .

ووصفها أبو المطرف بن عميرة[٤] بقوله : « بلد غوطى البساتين ، طورى الزيتون والتين ، فأما النخل فجمع عظيم ، وطلح هضيم ، وسكك مابورة ، ونواعم فى الخدور مقصورة ، وإن بقعته لوارفة الظل ، آمنة الحرم والحل ، جنة لو نزع ما فى صدور أهلها من الغل ، وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة ، مستأثر بسيد من سادات الصحابة » الخ[٥] .

وقال الورثلانى[٦] ودخلها فى القرن الثانى عشر : « فيها مياه كثيرة وبساتين من نخل ورمان وعنب وتين وفواكه جمة . : . كثيرة المزارع ، كثيرة الحناء بحيث لاتساويها فى ذلك بلدة » .

---

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(٢) لم يبق من هذه الرملة اليوم إلا القليل حيث وصلت البساتين إلى قرب البحر .

(٣) رحلة التجانى ص ٨٦ — ٨٨ .

(٤) انظر ترجمته فى الباب السادس .

(٥) رحلة التجانى ص ٩٠ والحلل السندسية ص ١٥٠ .

(٦) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

ويستنتج من أقوال هؤلاء الرحالين ما كانت عليه غابة قابس من ازدهار واتساع ، بيد أن هذا الازدهار قد تعطل زمنا ليس بالقصير بسبب الفتن والثورات — كما سيأتى — ولكنها رجعت إلى ازدهارها فى العهود الأخيرة فازداد اتساعها حتى اقتربت شرقا من البحر وامتدت غربا إلى قرب رأس الوادى ، وشمالا إلى (بوشمة) وغطت مساحة ٨ كم — طولا — وامتد عرضها بين ١ — و ٤ ك م حتى لتكاد تتصل بغابة — (غنوش) شمالا .

ورغم اتساع مساحة الغابة فأشجارها اقتصرت إلى الآن على الأنواع القديمة كالنخل والموز والرمان والخوخ والمشمش والعنب والحناء الخ ، بل إن بعض الأنواع القديمة كالتوت المعد لتربية دودة الحرير وقصب السكر قد اختفت تماما من الجهة .

وهذه المساحة التى تغطيها الغابة لا تشتمل مساحات أخرى تعطيها أشجار الزيتون والتين والتوت قديما حسبما نبينه فى الفصل الآتى .

الفصل الثانى

منتجات الغابات

الحرير – التمر – الزيت – الموز – الحناء – السكر – الرمان . . الخ

لم تكن غابة قابس كما نعرفها اليوم لا تنتج غير بسر (اللمسية) والموز وشىء من الحناء وبعض الغلال والخضر ، ولكنها كانت فى العصور القديمة مصدر ثروة لأهلها بما تنتجه من خيرات وما تصــدره من حرير وزيت وغلات إلى أطراف العالم الإسلامى ، وكانت القوافل البرية والبحرية تصدر عنها محملة إلى الشرق والغرب ، وكانت عاصمة إفريقية (القيروان) تستورد نتاج غابة قابس إلى أسواقها . قال البكرى : « وهى – أى قابس – تمير القيروان بأصناف الفواكه »

الحرير :

فمن أعظم خيراتها الحرير الذى طبقت شهرة جودته أسواق العالم الإسلامى ولهج بذكره غالب الرحالين القدماء ، فقد نبه إلى وجوده ابن حوقل[1] فى القرن الرابع بقوله : « ويعمل بها الحرير » أى بقابس .

وقال البكرى[2] فى القرن الخامس : « وبها شجر التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها ، وحريرها أطيب الحرير وأرقه ، وليس فى عمل إفريقية حرير إلا فى قابس » .

وقال الإدريسى[3] فى القرن السادس : « يعمل بها الحرير الحسن ... وبها من ناحية البحر سوق وباعة وحريريون كثيرون » .

---

(١) المسالك ص ٤٧ .

(٢) المسالك ص ١٧ .

(٣) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

فهذا الحرير الكثير الذى أنشئت من أجله معامل وأسواق وصدرت بمنسوجاته القوافل إلى الشرق وتباهت به المخدرات فى الأعياد والأعراس حسبما يرويه شيوخ قابس عن أجدادهم ، هذا الحرير كان نتاج دودة القز التى عرست من أجلها غابة كثيفة من أشجار التوت تمتد – كما يزعم أهل قابس – مسافة أميال وتغطى عشرات الهكتارات من السهل المنبسط بين ضريح أبى لبابة رضى الله عنه إلى الروابى الغربية التى يخترقها الطريق الغربى الصحراوى المار بزاوية (سيدى قناو) .

ولا ندرى متى عرفت قابس تربية دودة القز وغراسة أشجار التوت ولكننا نعرف أن غابة التوت هذه قد اختفى أثرها ما بين القرن السادس والقرن السابع تقريبا واضمحلت باضمحلالها صناعة الحرير وتجارته بقابس فلا نجد له ذكرا فى رحلة العبدرى[1] الذى دخل قابس فى أواخر القرن السابع ولا عند الرحالين بعده كالتجانى الذى دخل قابس أوائل القرن الثامن وعرفنا حرصه على ذكر منتجات كل بلد مرّ به . والظاهر أن الفتن التى اندلعت فى أوائل العصر الموحدى وعلى الأخص فتنة ابن غانية الميورقى التى سيأتى تفصيلها فى الباب الخامس والتى تسببت فى قطع جميع أشجار غابة قابس[2] هى التى قضت على غابة التوت وإنتاج الحرير ، وإذا استطاع أهل قابس تعمير غابتهم من جديد ، فالظاهر أن العمران اقتصر على سكان الغابة اليوم لقربه من البلد وحال الخوف وكثرة الفتن من إعادة تعمير مزارع التوت فى الغرب ومزاع التين والزيتون فى الجنوب .

التمر :

أما النخل فالظاهر أن السكان الأول هم الذين عرسوه فى مكانه اليوم أى قرب مجارى المياه ، وهى الأمكنة التى تنمو فيها النخلة بكثرة ونستطيع

---

(١) رحلة العبدرى – مخطوط مكتبة ح ح عبد الوهاب .

(٢) سنة ٥٩١ ﻫ .

من معرفتنا لطبيعة النخلة أن نحدد مكان هذه الشجرة من قديم ، وأن نقول إنها كانت ولا تزال فى مكانها اليوم على جوانب المجارى المائية المتفرعة عن (وادى السيل) و (وادى ابن يحمد) ثم تستمر مع المجارى إلى قرب البحر .



(شكل رقم ٤) نخيل قابس تشقه طرقات القوافل

وقد غرس السكان أنواعا من التمر منها ما يباع أو يؤكل بسرا ، أى قبل طيبه ، كالنوع المعروف بـ (اللمسى) وهو الأكثر ، ومنه ما يؤكل ويدخر

تمرا كـ (العقيوة) بتشديد القاف المفخمة وكسرها ، ومنها ما يؤكل بسرا ويدخر تمرا كالنوع المعروف بـ (بوحطم) بفتح الحاء وتشديد الطاء مع فتحها أيضا — ومنها أنواع من الرطب وصفه ابن سعيد[1] بأنه كثير طيب . وقد حاول المزارعون تربية أنواع أخرى من النخيل فلم تفلح التجربة ، فقد غرسوا النوع المعروف بـ (الدقلة) ففشلت التجربة ، حيث أنتجت النخلة نتاجا بعيدا عن (الدقلة) بالرغم من جودة نوعها فى (الجريد) و (نفزاوة) والسبب يرجع إلى تربة الأرض إذ من خصائص الدقلة أنها لا تنتج إلا فى الأماكن الصحراوية الجافة البعيدة عن البحر .

وقد ترك لنا الرحالون القدماء وصفا لبعض أنواع التمر بقابس نستطيع أن ندرك نوعه من ذلك الوصف ، قال الإدريسى[2] : « وبها أيضاً نخل ملتف به من الرطب الذى لا يعادله شيء فى نهاية الطيب ، وذلك أن أهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها فى دنانات ، فإذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسيلة تعلو وجهها بكثير ، ولا يقدر على التناول منها إلا بعد زوال العسل عنها من أعلاها ، وليس فى جميع البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ، ولا يحاكيه ، ولا يطابقه فى علوكته وطيب مذاقته » .

وهذا النوع الذى يدخر على هذا الشكل (ولا يطابقه فى علوكته وطيب مذاقته) شيء ، لا نشك أنه نوع (العقيوة) ففيها علوكة وطيب مذاق ، ولا يبعد أيضا أن يكون نوع (بوحطم) فهو أيضا طيب ويدخر على هذا النمط الذى ذكره الإدريسى .

ويذكر لنا التجانى[3] أن موائد أهل قابس كانت عامرة بـ (أصناف التمر) ولم يذكر لنا أسماء هذه الأصناف .

---

(١) بسط الأرض ص ٧٨ .
(٢) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .
(٣) رحلة التجانى ص ٨٧ .

وعلى الجملة فالنخيل بغابة قابس أنواع كثيرة أشهرها ما ذكرناه إلا أننا نلاحظ — مع الأسف — أن نوع (العقيوة) قد قل جدا اليوم وهو فى طريق الاضمحلال ، وانصب اعتناء المزارعين على نوع (اللمسية) لكثرة طلبها فى الأسواق ولسهولة جنيها وتبكير طيبها وعدم تعرضها للآفات والجوائح إذ تجذ وتباع وتؤكل بسرا قبل الطيب .

ويبلغ عدد النخل الموجود اليوم بغابة قابس ما يزيد عن مائة ألف[1] .

الزيت :

لا تنتج منه قابس اليوم قدر كفايتها وإنما تعتمد على جلبه من البلدان المجاورة . أما فى القديم فقد كان الزيت الناتج من غابة زيتونها يفضل عن حاجتها فتصدره للخارج ، ذكر الإدريسى أنه يوجد بغابة قابس « زيتون كثير ، ويستعمل منه زيت كثير يتجهز به إلى سائر النواحى »[2] ويحدد شيوخ قابس الأحياء مكان غابة الزيتون القديمة بالروابى والأودية الواقعة قبلى المدينة والتى تمتد مساحتها من ضواحى تبلبو نحو الجنوب الغربى والجنوب إلى شرقى كتانة ثم تستمر الغابة جنوباً إلى مسافة غير قليلة ، أى أنها كانت تغطى الأراضى ما بين قابس وجبال مطماطة وما بين هذه الجبال والبحر شرقاً .

وقد يؤيد هذا ما ذكره التجانى عن منزل (تبلبو) حيث قال[3] : « وعليه غابة زيتون متسعة » وعن (كتانة) حيث قال[4] : « وعامة شجرها الزيتون » هذه الغابة المتسعة كانت تنتج الزيت الكثير الذى تصنعه قابس فى (معاصرها) ثم تصدره للأسواق الخارجية ، ولكن هذه الغابة قد لحقها ما لحق غابة التوت

---

(١) هـذه الإحصائية المعروفة اليوم وتجعل دائرة المعارف الإسلامية عدد أصوله (١٣٠٠٠٠) انظر مادة قابس .

(٢) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

(٣) رحلة التجانى ص ١٧٩

(٤) نفس المصدر ص ١١٩ .

أيام الفتن والمحن أواخر الدولة الحفصية بدليل أننا لا نرى أثراً للزيتون القديم اليوم فى هذه الجهة والموجود منه فى أماكن محدودة حديث الغراسة حسب الظاهر من أخشابه ، ولم يبق من معامل عصر الزيت إلا ما يفى بحاجة الزيتون الموجود .



(شكل رقم ٥) شجر الموز بقابس

الموز :

هذا النوع من منتجات الغابة لا يزال موجوداً ومكانه فى نفس غابة النخيل حيث يغرس إلى جانب النخل والأشجار المثمرة وتصدر منه قابس

كميات وافرة إلى أسواق العواصم التونسية ، وثمرته صغيرة الحجم تشبه موز مصر ، أى أقل حجماً من ثمرة موز إسبانيا ، وهو أقل حلاوة منهما ، ويجنى قبل الطيب بقطع عرجونه كاملا ثم يضعه التجار فى أماكن دافئة نظيفة حتى يصفر وحينئذ يعرض على الحرفاء .

ومن خصائص هذه الشجرة أن الواحدة منها لاتنتج إلا مرة واحدة ثم تموت بعد جدّ ثمرتها ولكنها تترك فى مكانها من واحدة إلى أربع شجرات ، وتتطلب اتساع المكان وكثرة الماء .

الحناء :

والحناء من أشجار الغابة الموجودة وتزرع إلى جانب الأشجار الأخرى ونتاجها هو أوراقها ، تقطع خضراء ثم تجفف وتباع أوراقاً أو مطحونة دقيقاً ليستعملها النساء كمادة من مواد الزينة ، يعجنّها بالماء ثم يضعن عجينتها فى بواطن أكفهن وأرجلهن وتلف فوق الأكف والأرجل بخرق تمنع سقوطها من مكانها حيث تمكث ساعات ثم ينزعنها فيبقى مكانها أحمر اللون .

وكانت الأسواق التونسية عامرة بحناء قابس وتخصص تجار أسواق (العطارين) بالعواصم التونسية ببيعها حيث لا تزال معروضة إلى الآن أوراقاً جافة ودقيقاً إلا أن دخول موادّ الزينة النّسائية الجديدة من أوربا إلى الأســـواق قد قلل الإقبال على الحناء وأثر فى زراعتها فقل الاعتناء بها فى قابس .

السكر :

كل ما نعرف عن هذا النتاج مستمد من قول البكرى[1] : « وبها قصب السكر كثير » ووصف هذه الشجرة بالكثرة يدل على أنها كانت أكثر من

(١) المسالك ص ١٧ .

حاجيات البلد ، وإذا سلمنا هذا فيمكن أن نتكهن أيضاً بوجود معامل لصنع السكر من قصب السكر الكثير .

وعلى كل فالذى تجب ملاحظته هنا أن هذه الشجرة التى كانت موجودة بكثرة فى زمن البكرى (القرن الخامس) قد اختفت تماماً من قابس ولم يبق لها أثر ، ولا نستطيع التكهن بالعصر الذى فقدت فيه ولا الأسباب التى فقدت من أجلها مع أن أرض قابس بوفرة مياهها صالحة لزراعـــة هذا النوع واستغلاله .

منتجات أخرى :

وإذا كان ما ذكرناه من منتجات غابة قابس هو أهم ما فيها قديماً فلا يجب أن ننسى أنواعاً أخرى من الثمار والغلال التى كانت فى القديم والتى لا تزال إلى اليوم مصدراً من مصادر ثروة قابس وازدهارها .

فمن أهم منتجات غابة قابس قديماً (التين) وقد كانت مزارعه هى مزارع الزيتون حيث يخلط المزارعون بينهما حتى هذا العصر فى الجنوب ، وقد اختفى التين مع الزيتون القديم ولم يبق منه إلا نزر قليل لا يفضل عن حاجة السكان ، والموجود منه اليوم يؤكل طرياً ولا يدخر إلا فى مندوبية مطماطة وضواحيها ومنها (الرمان) الذى اشتهرت به قابس فى العهود الأخيرة ، وهو من أجود وألذ الأنواع المعروفة فى الجمهورية التونسية ، ويباع فى الأسواق بأغلى الأثمان . ولرمان قابس خاصية بديعة تتمثل فى رقة قشرته ، وحمرة حبوبه مع حلاوة مذاقه وغزارة مائه ، فلا تكاد الحبة تمضغ حتى تذوب ماء لذيذ الطعم كأنه السكر المذاب .

ومن الغريب أن الاعتناء به قد قل فى السنوات الأخيرة ، والبقية الباقية منه يسرع الفلاحون بجنيها قبل إبان طيبها طمعاً فى السبق إلى السوق وهو

أمر حط من قيمة رمان قابس كثيراً[1] ، ومنها (الخوخ – والتفاح – والعنب) وهى أنواع كريمة يصدر منها أهل قابس كميات لا بأس بها وتدر عليهم مبالغ مناسبة .

* * *

وتنتج غابة قابس كثيراً من أنواع القثاء والخضر كالبطيخ ، وأنواع (القرع) ، والطماطم ، والثوم والبصل ، والفول الخ . تزرع كلها فى أحواض منظمة تحت الأشجار ، ونظراً لوفرة دخل هذه الأنواع يتغافل الفلاحون هناك عن ضررها بنمو الشجرة .

---

(١) فى سنة ١٩٥٩ ، منعت السلطة الفلاحين من جنى هذه الغلة قبل يوم غرة أكتوبر فكان ذلك أحسن عمل سلمت به هذه الغلة من الفساد .

الفصل الثالث

وادى قابس

منابعه – فروعه – مصبه – تقسيمه

هذه الغابة الكبرى التى مرّ وصفها فى الفصل الثانى تسقى كلها من مياه (وادى قابس) ذى المنابع الطبيعية ، الغزيرة .

وقد تحدث الرّحالون القدماء عن هذا الوادى وعزارته بحديث فيه غموض يدل على عدم خبرتهم به وقلة اعتنائهم بجمع المعلومات عنه ، مما اضطرنا إلى عقد هذا الفصل الخاص به .

اكتفى اليعقوبى وابن حوقل بوصف قابس بأنها ذات عيون – أو – مياه جارية ، ووصفه اليعقوبى بأنه (واد جرار)[1] .

وقال البكرى عن منبعه ومصبه : « ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها وأصل هذا الماء من عين خرارة فى جبل بين القبلة والغرب منها يصب فى بحرها » .

وقال الإدريسى عن منبعه : « ولها واد يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الغدير (قصر سجة)[2] وبينه وبين قابس ثلاثة أميال » .

وقال التجانى : « ولها واد يسقى بساتينها ومزارعها ، ويخترق فى كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها[3] » .

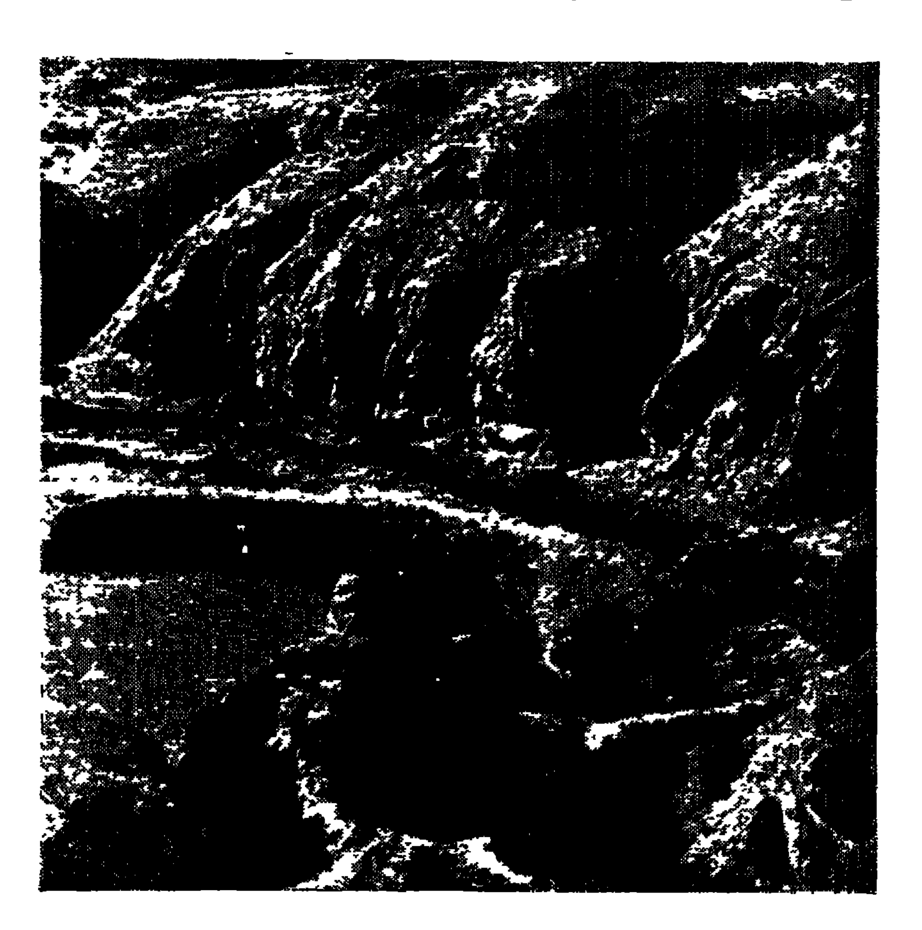
---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٢) انظر الحديث عنه فى الباب الثالث .

(٣) رحلة التجانى ص ٨٧ والمقصود . . دور وشوارع القرى المنتشرة بداخل الغابة وهذا يشاهد اليوم فى قرية شننى حيث يمر الوادى تحت دورها وشوارعها بشكل رائع جذاب .

هذا غالب ما تحدث به القدماء عن (الوادى) ، ونحن نذكر فيما يلى تفصيلات عن منابعه وفروعه ومصبه ، وتقسيمه حسب المعلومات التى أمدنا بها العارفون من السكان .



(شكل رقم ٦) الأجراف يخترقها الوادى

ليس لوادى قابس منبع واحد ، بل له منابع كثيرة متتابعة ، يبتدئ الوادى من أبعدها ثم يمر بالبقية واحدا تلو الآخر فتتجمع مياهها وتنحدر كلها نحو الغابة . وقد سمى بعض هذه المنابع باسم خاص ، وأهمل البعض الآخر ، ولكنها كلها تساير الوادى المعروف باسم

(وادى السيل) الذى يبتدئ بهاته التسمية من (العين البيضاء)[١] ، أما جزوءه الأعلى المتصل بالجبل المعروف بـ (زملة الطواهرية) فيسمى (وادى الخروبة) وابتداء من العين البيضاء التى هى أول المنابع الكبرى تتتالى المنابع وتتوالى من الأجراف[٢] الكبرى المشكلة لحنايا تشـــبه حنايا الجبل ، وذلك سر تسميتها بالجبل فى الكتب إذ يخيل للناظر عندما يشاهدها من مجرى الوادى أنه أمام جبل كما يسميه الأوائل ، وبقى بهذا الاسم إلى الآن .

وهاته السلسة من المنابع هى التى تتكون منها مياه الوادى والمسمى منها الآن :

١ — العين البيضاء

٢ — عين زائد

٣ — عين سيدى هريش

٤ — عين الترابكة

٥ — عين حامد

٦ — عين المهشومة

٧ — عين سعد

والمنابع المشار إليها متباعدة تنبع من مساحات شاسعة تشمل أراضى كثيرة لا تحمل أسماء خاصة . وإنما هناك اسمان يجمعان غالب هذه المنابع هما (رؤوس العيون) و (هنشير سيدى هريش) .

---

(١) لعلها هى المكان الذى وصفه البكرى بأنه (عين خرارة) والإدريسى بأنه (غدير كبير) ويبعد أول منبع للوادى عن البحر نحو ١٥ ك م (انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قابس) .

(٢) أرض طينية جرفت السيول أجزاء منها فتركت بها منحنيات وأخاديد .

ومن هذه العيون ما لا يزال جاريا ، ومنها ما سدم ، ولكن لمجموعها مع غير المسمى منها اسم عام ، هو (رؤوس العيون) .



(شكل رقم ٧) رأس الوادى ويظهر النخل المعبر عنه بالهرشة

وهذه المنابع منها ما ينحدر ماؤه إلى مجرى الوادى الجوفى المعروف بـ (وادى ابن يحمد) ومنه تسقى غابة (شنني) و (المنزل) وينحدر البعض الآخر إلى مجرى الوادى القبلى المعروف بـ (السيل) وهو منخفض المجرى عن الوادى الأول بما يتراوح بين ٢ — و٤ أمتار ، وقد ينخفض أكثر من هذه المساحة ، وبما أن الواديين متوازيان فإذا ما طغى الماء فى موسم

الأمطار انحدر ماء الأول للثانى فاختلطا ، وقد تنبه لوجود هذين الفرعين ابن سعيد فى القرن السابع الهجرى فقال عنهما[١] : « وينزل لها نهران من الجبل الذى فى جنوبها يخترقان غوطتها وتتوزع جداولهما عليها » .

وهذان الفرعان لوادى قابس هما الفرعان الأصليان خارج الغابة ، حتى إذا وصلا للغابة تفرع كل منهما إلى عدة فروع وسواقى تخترق البساتين فتسقيها والمياه الفاصلة عن السقى تنحدر كلها إلى الفرع القبلى ، وهو (وادى السيل الذى يمر الآن بين الغابة والمدينة ويقطعه الطريق المعبد رقم (١) بواسطة جسر صغير فى مدخل المدينة ويستمر الوادى مشرقا حتى يصب فى البحر شرقى الغابة بعد مروره من جسر السكة الحديدية ، ومياه الوادى كانت مهملة يسقى منها الفلاحون بساتينهم ومزارعهم ما شاءوا والبقية تنحدر إلى البحر ثم لما كثرت البساتين وقع تقسيمها بطريقة حكيمة فبنيت لها سدود تقسمها إلى فروع تنحدر إليها المياه بكميات متساوية ولمياه هذه الفروع نظار يقومون على تقسيمها بين البساتين بالساعات الزمنية ولهؤلاء النظار معرفة تامة بالساعات التى يستحقها كل بستان من جهتهم .

ويمكن أن يشاهد الإنسان نمطا لهذه السدود المقسمة للمياه فى المكان المسمى (الرحا) الذى سيأتى ذكره فى الفصل الآتى .

ويزعم بعض أهل قابس أن أول من اشتغل بتقسيم مياه وادى قابس هو ابن الشباط التوزرى فى القرن السابع الهجرى الذى اشتهر عند أهل الجريد بتقسيم مياه توزر[٢] ، ولكن هذا الزعم لا نجد له أى مستند من

---

(١) بسط الأرض ص ٧٨ .

(٢) ابن الشباط هو (أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن على بن عمر المعروف بالمصرى — من مدينة توزر من عائلة نصرانية اختارت البقاء فى وطنها واعتناق الإسلام أثر الفتح الإسلامى وكان جده محمد بن على انتقل إلى القاهرة واستوطنها ومات فيها وولد فيها ابنه =

التاريخ ولذلك نميل إلى تصديق ما يقوله فريق آخر من أهل قابس إن أول من قام بتقسيم مياه الوادى هو رجل من مدينة (قابس) يعرف باسم

— على اللذى قرأ فيها ثم رجع إلى بلده الأصلى – توزر لابسا الزى المصرى متكلماً باللهجة المصرية فلقبه أهل توزر بالمصرى .

ولد أبو عبد الله فى ٢٠ شعبان ٦١٨ هـ بقسطنطينة وقد كان أبوه سافر لها فى تجارة وتزوج بها وفيها ولد صاحب الترجمة ورجع به والده إلى توزر وهو فى الرابعة من عمره فحفظ القرآن وقرأ النحو والفقه والأصول والأدب بجامع القصر – المعروف الآن – بجامع بلد الحضر – على والده وغيره من علماء توزر – وتولى القضاء بتوزر ووفد إلى تونس ودرس بجامع الزيتونة ثم عاد إلى بلده .

كان آية فى الذكاء ومعرفة الأدب واللغة ومن تآليفه (سمط الهدى) وتخميس القصيدة الشقراطسية التى أولها :

الحمد لله منا باعث الرسل * هدى بأحمد منا أحمد السبل

وأهل الجريد يتفقون على أنه هو المبتكر لطريقة توزيع المياه على واحات النخيل بتوزر ونفطة وغيرهما ، ونحن مع إجلالنا لهذا العالم الكبير لا نشاطرهم فى هذا الرأى بل نعتقد أن قسمة مياه الأودية على واحات بلاد الجريد بل وكل الواحات الجنوبية أمر قديم جداً أبان طريقته وأسلوبه أبو عبيد البكرى فى مسالكه قبل وجود ابن الشباط بقرنين على الأقل ، لكن الأمر الذى نجيزه هو أن ابن الشباط ربما باشر – وهو على القضاء – إعادة توزيع المياه فى حين كانت الواحات قد اتسع نطاق غراستها واحتيج إلى القسمة مرة أخرى أو غير ذلك من الأسباب التى نجهلها .

عن كتاب (صدور الأفارقة لأستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ابن الشباط – مخطوط – بتصرف) .

* * *

ويشير أستاذنا بقوله : (أبان طريقته وأسلوبه أبو عبيد البكرى فى مسالكه) إلى ما ذكره البكرى فى كتابه (المسالك والممالك) الذى ألفه فى القرن الخامس عند الحديث عن مدينة توزر حيث قال فى ص ٤٨ • « شربها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال كالدرمك رقة وبياضا . . . وإنما تنقسم هذه الثلاثة أنهار بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادى الجمال يكون قمر النهر هناك نحو مائتى ذراع ،ثم ينقسم كل نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستة جداول وتنشعب من تلك الجداول سواق لا تحصى كثيرة تجرى فى قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئاً ، كل ساقية سعة شبرين فى ارتفاع فتر يلزم كل من يسقى منها أربعة أقداس مثقال فى العام وبحساب ذلك فى الأكثر والأقل ، وهو أن يعمد الذى تكون له دورة السقى فى قدس فى أسفله ثقبة بمقدار ما يسدها وتر قوس النداف فيملؤه بالماء ويعلقه ويسقى حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفد ماء القدس ثم يملؤه ثانياً وهم قد علموا أن سقى اليوم الكامل هو مائة وتسعون قدساً » .

(شمام) لأن هذا الاسم لا يزال موجودا فى قابس تحمله عائلة من سكانها ، والظاهر أن التقسيم وقع منذ اتسعت رقعة الغابة وأن التقسيم الذى قام به (شمام) إنما هو مراجعة وإصلاح للتقسيم الأول أو التقسيمات الأولى ، إذ أن التقسيم الأول للمياه وقع فى العهد الرومانى بدليل ما صرح به المؤرخ الرومانى (بلين Pline) من أن ماء العين (مقسم تقسيما محكما بين البساتين بالساعات)[1] وأن التقسيم الأخير وقع حين استقرت الحالة نوعا ، وتخصلت غابة قابس من الشدائد التى عانتها .

ويلاحظ أن (شمام) هذا هو أول من حفر العيون فى الزمن الأخير وأوصلها ببعضها وسرب ماءها للغابة وفتق الفتوق داخل الجبل وبنى السدود الأولى (الطوابى)

وماء الوادى ثقيل غير طيب لا يستسيغه غير أهلها ، وقد كان شرب السكان فى القديم منه ، أما الآن فلا يشربه غير سكان الغابة ، أما المدينة فتسقى من آبار جديدة حفرتها الحكومة بجهة سيدى أبى لبابة ومدت منها قنوات إلى الدور والشوارع ، وماؤها أطيب من ماء الوادى ، على أن مدينة قابس القديمة أو جزءا منها على الأصح كان يشرب من عين سلام وعين الأمير[2] ، ولكننا نتكهن أن هذين النبعين كان لا يستعملهما غير السكان القريبين منهما — كما سنوضح ذلك فى الباب الثالث .

---

(١) Pline. v 3. p. 194—195 .

(٢) سيأتى الحديث عنهما فى الباب الثالث .

الفصل الرابع

المنتزهات

ساحة عنبر – ساحة الرحا – الشرشارة – منتزهات أخرى

فى غابة قابس أماكن للنزهة تنعش النفس وتأخذ باللب يقل نظيرها فى واحة أخرى ، وإن كانت الغابة كلها منتزها رائعا ، فحيثما حللت فى جهة من جهاتها اكتنفتك البساتين الخضراء والأشجار المشتبكة والنخل الباسق والجداول المتعرجة .

إلا أن هناك أماكن خاصة اشتهرت بجمالها الفاتن ومناظرها الرائعة يقصدها الناس فى أوقات فراغهم ليجدوا فيهـــا الاطمئنان النفسى والهدوء الروحى .

فمن بين المنتزهات التى مجدها القدماء وتركوا لنا فيها وصفا رائعا وشعرا بديعا :

ساحة عنبر :

وأين توجد الآن هذه الساحة ؟

هذا سؤال ألقيته على نفسى وواجهت به سكان قابس عدة مرات ورجعت من أجله إلى الكتب القديمة فلم أظفر بطائل حتى عثرت أخيراً على مكان قابس الإسلامية وعلى مكان المصلى القديم وبذلك تمكنت من تحديد مكان هذه الساحة كما سيأتى بيان ذلك .

حدد التجانى مكان هذه الساحة فى رحلته فقال[1] : « وأكثر جناتها

---

(١) رحلة التجانى ص ٨٨ .

فيما بين المدينة والبحر ، وبتلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر » أى أن مكانها فى البساتين الموجودة بين المدينة والبحر ، ومعنى ذلك أنها تقع فى الشمال الشرقى من المدينة ، وبهذه الجهة الآن بناءات تقوم من خلفها البساتين الشرقية من الغابة التى تمتـــد وراء (طهرة قراوش)[1] بجارة وفى هذه البساتين لا يوجد اليوم مكان بهذا الاسم وأهل قابس يعرفون هذا الاسم ويطلقون عليه اسم (سانية عنبر) ولكن مكانها بعيد عن الجهة التى حددها التجانى بل إنه يقع فى الجهة المقابلة أى الغربية فهذه السانية تقع فى البساتين الموجودة غربى (منزل قابس) وإذا صح تحديدنا لمكان المدينة الإسلامية القديم الذى سيأتى فى الباب الثالث ، وهو صحيح ، فإن (سانية عنبر) المعروفة الآن تقع فى الجهة الغربية من المدينة وهى نفس (ساحة عنبر) القديمة ، فكيف يمكن الجمع بين المكان الذى حدده التجانى والمكان الذى يعرفه أهل قابس اليوم ويؤازرهم أبو الفضل التجانى فى قضيته الآتية ؟

الواقع أنه لا يمكن الجمع بينهما مهما جلبنا من افتراضات وتعليلات فتعين حينئذ خطأ التجانى فى تعيينه لمكان الساحة ، أو يفترض حدوث نقص فى عبارته أو خطأ أو سهو من الناسخ غيّر مكان الساحة من مكان إلى آخر .

ونحن نؤكد تحديد مكان ساحة عنبر غربى المنزل للأسباب الآتية :

أولا — لأن المكان الغربى هو الوحيد المعروف اليوم بهذا الاسم عند سكان قابس (وأهل مكة أدرى بشعابها) كما يقول المثل .

وثانيا — لأن أجمل منتزهات الغابة موجودة فى هذه الجهة .

وثالثا — لانطباق تحديد أبى الفضل التجانى[2] لمكان هذا المنتزة فى

---

(١) انظر الحديث عن هذا المكان فى الباب الثالث .

(٢) أبو الفضل محمد بن أبى الحسن على التجانى ابن عم عبد الله التجانى صاحب الرحلة (انظر ترجمته فى الباب السادس) .

البيت التاسع من القصيدة الآتية على هذه الجهة وأبو الفضل قد عرف هذه الساحة وقضى فيها نزهات جميلة .

وعلى كل فساحة عنبر هذه كانت من أجمل منتزهات واحة قابس ، وقد خلد ذكرها أبو الفضل التجانى فى القصيد الآتى والذى نقله عبد الله التجانى فى رحلته[1] ، ومنه نقل الوزير فى الحلل السندسية[2] ، قال أبو الفضل :

اذكر عشيتنا بـ (ساحة عنبر) — والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا — بسطا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحيي فتستر وجهها — عنا بستر للعروس محبر
والنور[3] بين مفضض ومذهب — والنور[4] بين مدرهم ومدنر
والنهر والغدر ادرعن تحصنا — إذ صفت الغابات صف معسكر
والبحر يرمقنا بمقلة أزرق — والبر يرمقنا بمقلة أعفر
فى جنة لو نلت من خلد بها — قصدى بلغت إلى النعيم الأكبر
ومحل أنس قلت[4] بين رياضه — برياضة قادت لأبهى منظر
ملنا بمنعرج المصلى نحوه — حذر الرقيب وليلة لم تحذر
وجرى لنا فيه حديث كله — لطف حضرنا منه أطيب محضر
نجرى أحاديث الصبابة والصبا — بأرق من مسرى الصبا المتعطر
وندير كاسات المحبة بيننا — فنميل منها بالحلال المسكر
حتى إذا ولى العشيّ وآن أن — نمتاز عن نظر المراد الأنضر
قمنا نجر من العفاف سوابغا — لما نغيرها بصبغة منكر
يوم بقابس جنة الدنيا وفى — قلبى لوشك البين حرقة مسعر

---

(١) ص ١٤٨ .
(٢) ص ١٤٩ .
(٣) النور الأولى بالضم وهى الضوء والثانية بالفتح وهى الأزهار .
(٤) بكسر القاف ، أى قضيت القيلولة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقول أبى الفضل (ملنا بمنعرج المصلى نحوه) يحدد لنا مكان الساحة ، فالمصلى الذى يذكره أبو الفضل كان شرقى سانية عنبر يفصل بينهما وادى السيل قرب خزنة الماء فى المساحة الممتدة بين الوادى وطريق مطاطة حيث توجد اليوم بعض منازل السكنى ، ويقابل المصلى من الشمال ضريح سيدى المشيرقى ، ويظهر أن المقصود من المنعرج هو انحناءة الوادى عند ملتقى وادى بوشاعة بوادى السيل ، ومن هذا يتبين أن ساحة عنبر هى المعروفة اليوم بسانية عنبر فى القسم الجنوبى الغربى من الغابة .

ساحة الرحا :

تقع هذه الساحة فى آخر البساتين الغربية من الغابة ، على رمية سهم من قرية (المعايطة) المجاورة لقرية (شننى) وكلاهما من قرى الغابة كما سيأتى .

والساحة عبارة عن قطعة أرض فسيحة متساوية الأضلاع تقريبا تغمرها مستنقعات من الماء وتغطى جوانبها الأعشاب والحشائش الخضراء ، وفى وسط الساحة نخلات يقع ظلها على سد صغير لتقسيم مياه الوادى إلى فروع وحول هذا مكان مرتفع قليلا عن غدر الماء المحيطة به مفروش بالصخور الضخمة كأنما وضعت قصدا لجلوس المرتادين لذلك المكان . وتحيط بالساحة من الخارج بساتين الأشجار والنخيل بحيث يجد المتنزه منظرا من أمتع ما رأته العين ، ساحة متسعة تغمرها المياه الساكنة والأعشاب الخضراء ومجلس ممهد يظلله النخل الباسق ، وتحيط به البساتين الخضراء وواد جار بين يديك متدفق المياه تأتى طاغية مسرعة حتى إذا وصلت أمام المجلس صدمها سد فتفرعت إلى جداول تسمع لها خريرا جذابا .

هذه هى ساحة الرحا التى تعد من أجمل منتزهات الغابة اليوم[1] وهى

---

(١) فى بعض أوقات من فصل الصيف تجف مياهها فيغيض جمالها ولكن إلى حين .

قريبة الشبه بساحة عمر القديمة حسبما وصفها أبو الفضل التحالى وجارتها فى المكان .



(شكل رقم ٨) أحد جوانب الرحا

الشرشارة .

وفى هذه الجهة أى الجهة الغربية وعلى مقربة من ساحة الرحا يوجد

هذا الشلال (الشرشارة) الذى زرته فرأيت أبدع ما رأت عينى من هذا النوع ، تسمع صوت تدفق مياهه على مسافة منه حتى إذا قصدته وقطعت طرقات متعرجة بين البساتين تضيق حينا وتنفسح حينا آخر ، ألفيت شمروخا فضيا من الماء يتفجر من سور بستان مرتفع الأرض ويهوى إلى أرض منخفضة عن منبعه بنحو ستة أمتار فى قوة وجلبة ثم يخرج من مصبه إلى جدول رقراق هادئ يختفى بين أشجار البساتين المقابلة . ومن المؤسف حقا أن يكون هذا الشلال فى مكان ضيق لا توجد حواليه ساحات لجلوس المتنزهين الذين يكتفون بالتفرج عليه واقفين ولو عمدت السلطة هناك



(شكل رقم ٩) الشرشاره كما تبدو عن بعد

لاقتطاع أجزاء من البساتين حوله ومهدتها وجعلت فيها مقاعد للاستراحة لأصبح المكان من أجمل الأمكنة السياحية الرائعة[١] .

* * *

وفى الغابة منتزهات أخرى رائعة يؤمها الأجانب بكثرة من أهمها قرية (شننى) التى تختلط منازلها ببساتين النخيل العملاق ويلتوى حولها واد من الماء الدفاق يدخل لها من الجهة الغربية فيختفى تحت الدور والدكاكين الواقعة بالحد القبلى من القرية ثم يخرج من تحتها كما يخرج الثعبان من وجاره المدفون تحت الأرض فيتدفق فى جدول نظيف جميل ويلتوى عند وصوله لحد القرية الشرقى نحو الشمال وعلى مقربة من الحد الشمالى الشرقى من القرية ينساب داخل الغابة فيختفى بين أشجارها .

وهذا المنظر الخلاب لهذا المكان جعل قرية (شننى) من الأمكنة التى يرتادها السياح الأجانب بكثرة ، وقد اتجهت أعمال بلدية المكان الآن للاعتناء بهذه القرية ونظافتها ونظام دورها لتجعل منها قرية تناسب جمال موقعها الطبيعى . كما عزم الديوان القومى للسياحة على بناء نزل مناسب فى مكان مشرف على القرية وبساتينها وسيكون لهذا العمل أثر محمود فى اقتصاديات البلاد ؟

وهناك منتزهات أخرى بالغابة وضواحيها كرأس الوادى ، والأجراف الممتدة على جوانب وادى السيل خارج الغابة لا تقل روعة عن المنتزهات السالفة .

---

(١) تدأب السلطات الآن لتوسيع هذه المنتزهات وتوسيع الطرقات المفضية إليها .

الفصل الخامس

القرى داخل الغابة

قرى صغيرة — قرى كبيرة — شنني — بوشمة — جارة القديمة

سبق أن تعرضنا لكلمة التجانى واصفاً الوادى بأنه : (يخترق فى كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها) وقلنا فى التعليق على هذه الكلمة : إن المقصود هو دور وشوارع القرى المنتشرة بداخل الغابة .

ومعنى هذا أن منازل السكنى هذه قد وجدت فى عصور قديمة ، وإن لم يتعرض لذكرها الرحالون السابقون للتجانى الذين اطلعنا على كتبهم ، وقد تكون هذه المنازل موجودة من زمان بعيد إذ أن اتساع الغابة وبعد مزارع التوت والزيتون بالخصوص يستوجب وجود سكان يقومون عليها ويحمونها .

على أننا لا نشك فى أنها كانت مُجرَّدَ منازل بسيطة متناثرة متفرقة هنا وهناك لا يسكنها فى الغالب إلا العمال الزراعيون ، أما أصحاب الأرض فمركزهم المدينة وقد ينتقلون أحياناً للغابة ، ولم تتجمع هذه المنازل فتتكون منها قرى مستقلة عن المدينة قائمة بنفسها إلا فى عهود قريبة بل نكاد نجزم أن عمران قرى الغابة وجعلها مقراً للسكنى الدائمة لم يتحقق إلا فى العصر التركى حين استقر الأمن نوعاً ما فى البلاد ، وهذه القرى الآهلة بالسكان الآن داخل الغابة منتشرة فى جميع جهاتها من الشرق إلى الغرب لا يكاد يهتدى إليها الإنسان إلا أن تفضى به الطرق الملتوية بين البساتين إليها فيجد نفسه فجأة أمام دور للسكنى قليلة أو كثيرة بناؤها على النمط القديم ، وقل أن تجد بينها منزلا حسن الهندسة مقبول الهيئة ، وبها بعض الدكاكين التجارية والمقاهى ، وتصغر هذه القرى وتكبر حسب عدد سكانها وأكثرها قرى صغيرة عدا شنني وبوشمة وجارة القديمة فإنها قرى كبيرة غاصة بالسكان ، ومن بين هذه

القرى الصغيرة الموجودة اليوم : النحال — والمعايطة — والجواولة — وأولاد الحاج فى الجهة الغربية ، وسيدى عبد السلام وسيدى الحربى وسيدى القيطونى بالجهة الشرقية . وكانت هناك قرية قديمة فى الغابة تسمى (بوعبد الله) وأغلب سكان هذه القرى من الفلاحين . أما القرى الكبيرة فثلاثة :

١ — شننى :

تقع — كما أشرنا إلى ذلك سابقاً — فى آخر الغابة الغربية على بعد نحو ٤ كم



(شكل رقم ١٠) قنطرة شننى تقع قرب البلدة وتسمى (قوس شالة ابن قريعة)

من مدينة قابس وهى من المنتزهات الجميلة التى يؤمها السواحون ذات دور حسنة فى جملتها ودكاكين للتجارة متنوعة ومقاه عامرة بالرواد وبها مدرسة كبيرة للتعليم ويصل إليها طريق معبد للسيارات يتفرع عن الطريق رقم (١) شمالى الغابة القديمة ويساير الغابة من الشمال حتى يدخل القرية من خلال البساتين الغربية .

وفى آخر القرية من الجنوب الغربى آثار دار ضخمة جدرانها مهدمة وبعض عرصها قائمة كانت محل سكنى المرحوم على بن خليفة النفاتى عامل نفات والاعراض الذى كان أول من عارض انتصاب الحماية الفرنسية على تونس وثار فى وجه الباى والاحتلال ونزح أمام القوة إلى طرابلس حيث توفى هناك .

ويلاصق هذه الدار من الغرب مسجد بُنى على الشكل المعروف فى بناء الزوايا قبة صغيرة عادية بداخلها مقبرة مسورة من الخارج بسور مكون من جدار قصير وحذو هذا المسجد بقايا من السوارى القائمة وعلى باب القبة كتابة منعنا غلاف الجير الذى فوقها من قراءتها إلا أننا استطعنا أن نتبين منها (. . . بن الفرجانى بن عمر سنة . .) والأرقام الموجودة إثر لفظة (سنة) لم نتبين هل هى (١١٤٤) ؟ أو (١٢٤٤) ؟ ويطلق أهل شننى على هذا المكان اسم (زاوية سيدى الفرجانى) ويزعمون أن صاحب هذه الزاوية كان من العصاة الثائرين على (الباى) وهرب إلى ذلك المكان فسكنه وفعل الخير حتى مات ، ولما سمعت هذه الأسطورة كدت أتوهم أن لها أصلا وأن صاحب الزاوية قد يكون (محمد بن شكر) الذى ثار على (محمد باى بن مراد ابن حمودة باشا المرادى) وكان ابن شكر صهره وخليفته فأعلن العصيان (واستعان بالجزائريين فأمدوه بجيش نزل قرب الكاف سنة ١٢٠٥ هـ وخرج إليهم محمد باى فى عساكره فهزموه واستولوا على ذخائره فكر الباى راجعاً إلى تونس وتهيأ للقتال وما كانت إلا أيام حتى هاجمه الجزائريون صحبة ابن

شكر وخيموا (بالملاسين) وأخذوا يشنون الغارة على أحواز العاصمة فأيقن محمد بالهزيمة وفر إلى داخل القطر وتردد بين المدن التونسية إلى أن ساعفه الحظ فجمع جيشاً قاتل به ابن شكر وحزبه ، وهزمهم حذو القيروان سنة ١١٠٦ هـ ، ونجا محمد بن شكر مغلولا إلى مدينة قابس وبها مات[1] .

قلت : كدت أتوهم أن يكون (محمد بن شكر) أو أحد أبنائه هو صاحب الزاوية ما دام التاريخ لم يتعرض لثائر اسمه (الفرجاني) ولكنى لم أجد مؤيدا تاريخيا أصحح به هذا التوهم ، خصوصاً وأن الاسمين لا شبه بينهما

٢ — بوشمة :

قرية حديثة تقع على نحو ٤ كم شمال قابس على الطريق رقم (١) وغالب دورها حديث البناء ، وبها مدرسة ابتدائية وبعض دكاكين التجارة وموقعها مرتفع قليلا يصعد إليها الطريق رقم (١) من الشمال حتى إذا بلغ طرف القرية الشمالى ظهرت غابة قابس أمام الناظر فى منبسط منخفض كأنها بحيرة خضراء .

وكانت بوشمة إلى وقت قريب مفصولة عن غابة قابس بأرض سبخة وفى الأعوام الأخيرة عمرت تلك الأرض وأصبحت بساتين غناء اتصلت بغابة قابس من الجهة الشرقية للطريق رقم (١) وامتدت من جهته الغربية إلى قرب الطريق الرابط بين قابس والحامة .

وقرية بوشمة هى الوحيدة من قرى الغابة التى تقع فى طرف البساتين من الخارج .

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٤٤ .

٣ — جارة القديمة :

وتسمى أيضاً (البلد) و (جارة الصغيرة) (وجارة الدخلانية) وقد خدع بعضهم بهذا الاسم (البلد) بالإضافة إلى هندسة بنائها وإحاطة مجرى الماء بغالب جهاتها ، فظن أنها (مدينة قابس القديمة) . . . وهو وهم كما سيأتى .

وموضع هذه القرية داخل البساتين شمالى جهة المدينة المسماة (بالقصر) على مقربة من جسر الطريق رقم (١) الموجود فى مدخل المدينة .

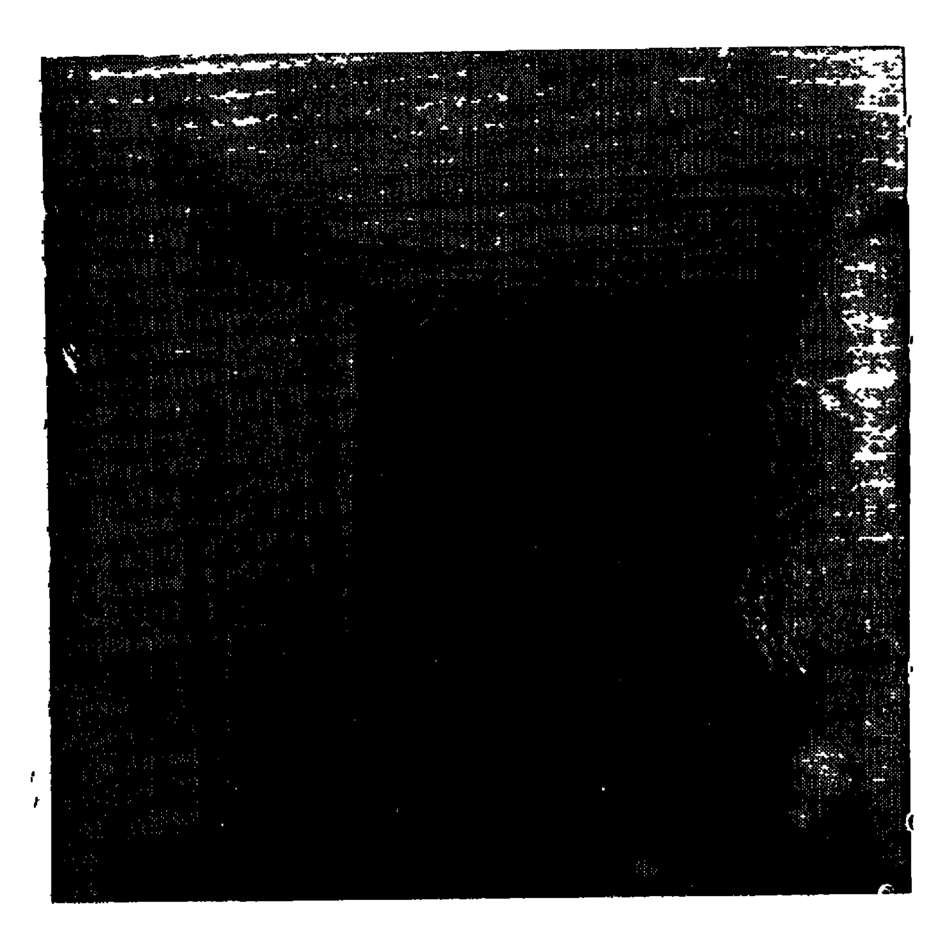
وأغلب منازلها قديم البناء منهار الجدران ويحيط بجزء من جهتها الغربية وكامل جهتها الشمالية وغالب جهتها الشرقية جدول من جداول الوادى يحسبه الناظر لأول وهلة خندقا يحصن البلد لولا ضيق مساحته وضآلة عمقه ، ولبناءاتها شكل خاص وهندسة خاصة لاتوجد فى بقية القرى فالجدران مقامة من الأسفل بالأحجار الأثرية المنحوتة ، يظهر أنها منقولة من مكان آخر وربما من سور مدينة قابس القديم الذى اضمحل أثره الآن ، وتتميز الدور بانخفاض سقوفاتها ويوجد طوابق أولى فوقها يجلب لها النور والتهوية بواسطة نوافذ صغيرة ثم إن غالب شوارعها مسقوفة فهى أشبه بدهاليز ملتوية تفضى إلى بعضها بحيث تستطيع أن تخترق غالب شوارع البلد ولا ترى نور الشمس ولايستطيع المار فيها ليلا أن يتميز شيئا إلا إذا كان مصحوبا بفانوس ومداخل الدور تقع فى هذه الدهاليز .

والظاهر أن هذه القرية عمرت أواخر الدولة الحفصية أو أوائل العهد التركى وأن والى قابس قد اختارها للحكم والسكنى بجالها ولتحصنها بالغابة ومجاورتها للمدينة وأرباضها .

وفى داخل القرية من جهتها الغربية القبلية يوجد (جامع سيدى إدريس)

الذى يزعم أهل قاس أن تاريخ تأسيسه يرجع إلى نحو أربعمائة سنة ، وقد عثرنا فيه على كتابات لم نستطع قراءتها لكثافة طبقة الجير الملون فوقها ، وبصحن الجامع مزولة رسم عليها تاريخ إنشائها وهو عام ١٢٠٨ هـ.

وبجانب الجامع منزل ذو طابق علوى فوق (ساباطين) يقول السكان إنه (دار الوالى) وبجوار هذه الدار من الجهة الشرقية دار أخرى يطلق عليها السكان اسم (الحبس) ويقولون إنها كانت سجنا يسجن به الوالى



(شكل رقم ١١) أحد دهاليز جارة القديمة

المذنبين ويقابل هذا السجن (حمام) موقف من طرف أهل البلد على زاوية (سيدى على النورى الصفاقسى)[١] .

وبالقرية أيضاً (بيعة يهودية) قديمة تقع فى الجزء الشرقى من القرية يزعم يهود المكان أنها كانت مرارا مقدسا ليهود قابس ، ولها موعد سنوى يجتمعون فيه فى احتفال عظيم ، وقد انتهت هذه العادة بعد الحماية الفرنسية ، ويؤكد (قيّم) هذه البيعة أنها أقدم وجودا من البيعة اليهودية بـ (المنزل) .

وفى هذه السنة (١٩٥٩) التفتت السلطة المحلية إلى هذه القرية المتداعية المنازل وخشيت الخطر على سكانها الكثيرين فجمعت العمال وشرعت فى تهديم المنازل المنهارة وتوسيع الطرقات الضيقة ونقل السكان إلى منازل أخرى واحتفظت بالأحجار والسوارى الأثرية فى مكان منعزل .

---

(١) ولد بصفاقس سنة ١٠٥٣ هـ وانتقل فى شبابه إلى تونس العاصمة ثم ارتحل إلى مصر فى طلب العلم ورجع إلى بلده صفاقس بعد ما ملأ وطابه وجلس للتدريس فى مدرسته فانتفع به خلق كثير حتى توفى فى ربيع الأول سنة ١١١٨ هـ وقبره معروف بصفاقس وترك من المؤلفات :

- غيث النفع فى القراءات السبع .
- تنبيه الغافلين ، فى تجويد كلام رب العالمين .
- منقذ الرحلة ، فى معرفة الأوقات والقبلة .
- عقيدة فى التوحيد
- مقدمة فى فوائد فقهية ودينية .
- رسالة فى تحريم الدخان .
- معين السائلين ، فى الأدعية المأثورة .

الفصل السادس

أحداث تاريخية

الغابة حصن قابس الحصين — قطع أشجار الغابة وسيلة الغزاة لاحتلال المدينة والانتقام من أهلها

لم نطلع فى كتب التاريخ التى بين أيدينا على واحة من واحات إفريقية تحملت ما تحملته (واحة قابس) من إفساد وتخريب فى عصور متتابعة ، فقد كانت عدة مرات معرضة للعبث والتخريب وقطع الأشجار وإفساد الزروع والغروس من طرف الغزاة ، ورغم ذلك فقد بقيت صامدة على كر العصور كلما خربتها يد الإفساد عادت للحياة من جديد ، فلا تكاد الحرب تضع أوزارها حتى تمتد سواعد أهلها للعمل من جديد على إحيائها وغرسها وتنظيمها وسرعان ما ترجع واحة خضراء ساحرة الشباب والجمال .

نحن لانعرف عن أحداثها القديمة شيئا حتى زحفة الهلاليين الذين خربوا كل عمران جاء فى طريقهم وأتلفت حيواناتهم الكثيرة المزروعات والمغروسات ، ومن الغريب أن واحة قابس قد سلمت أو كادت من إفسادهم بدليل بقاء أشجار التوت والزيتون إلى ما بعد زحفتهم واكتساحهم لإفريقية ، فتحدث الرحالون عن كثرتها ، حتى القرن السادس الهجرى .

تقول دائرة المعارف الإسلامية : والظاهر أن الزحفة الهلالية لم تحدث بقابس أضرارا فادحة كبقية القطر التونسى[1] .

نعم إنهم لم يحدثوا بها أضرارا فادحة ولكنهم — بلا شك — قد أحدثوا بها أضرارا ليست بفادحة إذ من المعقول أن حيواناتهم دخلت غابات التوت والزيتون بالخصوص وأنها أفسدت نصيباً منها كما وقع ذلك

---

(١) انظر مادة : قابس .

فى عموم البلاد الإفريقية ، ويقص سكان الجنوب اليوم فى أسطورة الهلاليين مثالا لإطلاق حيواناتهم على المغروسات فتحطمها وتفسدها فيزعمون أن أحد أولاد الأمير حسن بن سرحان أطلق إبله فى بستان لأحد السكان البربر فأفسدت أشجاره ولما جاءه صاحب البستان يعاتبه على فعلته أجابه بقوله :

الملك لقريش وقريش جدنا ۝
ثلثك زرب عليه وحصنه .
والثلثين خلّ طوال الذرى يأكلونها ؟

أى أن الملك لقريش ، وقريش جد العرب ، وصاحب البستان ما هو إلا أجير (خماس) والأجير عندهم يأخذ ثلث المغروسات ، فما عليه إذن إلا أن يحصن ثلث البستان ويترك الثلثين الباقيين معاشاً للإبل .

هكذا كان الهلاليون لا يتورعون عن إفساد ما جاء فى طريقهم من أشجار وزروع ، وإذا كانت قابس قد نجت من التخريب فى زحفتهم فالظاهر أن ذلك راجع إلى مسالمتها لهم وإذعانها لسيطرتهم وإلى قربها من الصحراء حيث تكثر مراعى الإبل والغنم ، والظاهر أن الإبل — وهى أكثر الحيوانات إفساداً للأشجار الكبيرة — قد دفعوا بها إلى السهول والمروج الغربية التى تغطيها النباتات المغذية للإبل . ويزعم عرب الجنوب أن إبل الهلاليين كانت ترتاد سهول (أم الشياه)[1] وأن (دياب بن غانم)[2] كان يحميها وكان ينزل فى ربوة تسمى إلى اليوم (مرقب دياب)[3] . نعم إن هذه أسطورة لا يعتمدها التاريخ ولكن مع ذلك يمكن أن يكون لها أصل صحيح وأن نستنتج منها ما يؤيد بعض الأحداث التاريخية ؟

---

(١) جبل بالظاهر يقع فى منتصف الطريق بين دوز وقابس من جهة وبين دور ومطماطة من جهة ثانية .

(٢) من فرسان قبيلة رغبة الهلالية .

(٣) ربوة صغيرة مرتفعة تقع غربى جبل (أم الشياه) وجدت بها آثار بناءات قديمة رومانية العهد مدفونة تحت الرمال .

وإذا نجت غابة قابس من إفساد الهلاليين فإنها لم تنج من التخريب الكامل من طرف غزاة آخرين جاءوا لقابس بعد ذلك ، فقد كانت الغابة حصناً من الحصون الحامية للمدينة تعترض سبيل الغزاة وتطيل مقاومة السكان لهم بفضل كثافة أشجارها وبفضل ما تمدهم به من طعام وماء ؛ فالمدينة محصنة بالغابة من ثلاث جهات تقريباً : الشرق والشمال والغرب ، وهي كثيفة الأشجار ملتوية الطرق الضيقة بحيث لا يهتدى لمسالكها إلا أهلها ولا يمكن أن تسلكها الخيول والإبل ، وإذا سلكتها تعرضت للمحق إذ في إمكان المدافعين أن يقضوا عليها من وراء خمائل النخيل والأشجار بدون أن تراهم أو تنال منهم .

وهذه الأهمية الدفاعيـــة للغابة هي التي جعلتها — كما قلنا سابقاً — معرضة لانتقام الغزاة ، وإذا كان التاريخ لم يذكر لنا من حوادث تخريب الغابة إلا بعض الوقائع فإننا سنذكر أهم هذه الوقائع وأسبابها حسب ترتيبها التاريخي :

الحادثة الأولى :

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٧٤ هـ أن تميم بن المعز لدين الله الصنهاجي صاحب المهدية قد حاصر قابس في هذه السنة وأفسد جنده غابتها .

ولم يتعرض ابن الأثير لأسباب هذا الحصار ، ولم يعط أي بيان عن نتائج هذه الواقعة ولا أي تفصيل عن إفساد الجند للغابة .

ورجعنا للكتب الإفريقية فإذا بها تسكت عن هذه الحادثة وتهملها إهمالا تاماً ، وإنما تتعرض لحوادث وقعت في سنوات ٤٧٩ ، و ٤٨٦ ، و ٤٨٩ : ففي الأولى حاصر تميم مدينة قابس وصفاقس معاً مما لم يسمع بمثله ، وفي الثانية حاصر تميم مدينة قابس حتى فتح ربضها ، وفي الثالثة تمكن من التغلب عليها

وفتحها(١) أى بعد الحادثة الأولى بخمس عشرة سنة ، والظاهر أن ابن الأثير غلط فى اسم المدينة إذ أن حادثة ٤٧٤ تخص صفاقس لا قابس . قال ابن عذارى فى البيان المغرب(٢) « وفى سنة ٤٧٤ حاصر تميم مدينة صفاقس وعاث عسكره فى أجنتها المعروفة بالعابة وأفسدها . . . » ويبسط المؤرخون أسباب الحادثة الأخيرة ٤٨٩ هـ التى تعرضنا لتفاصيلها فى الباب الخامس ، وخلاصتها أن وحشة حدثت بين الوالى الصنهاجى على قابس من قبل المعزويين والمعز فغضب الوالى وأعطى بطاعته إلى مؤنس بن يحيى الرياحى أحد أمراء العرب الهلاليين وتسلم ولاية قابس أخ للوالى المذكور فأساء السيرة فى الناس ، وكان ذلك فى أيام تميم بن المعز — فثار عليه سكان قابس وقتلوه واستدعوا الأمير عمر بن المعز أخا تميم — وكان مغاضبا لأخيه — فأمروه على أنفسهم سنة ٤٨٩ هـ فجهز تميم جيشا فى البر والبحر وحاصر قابس حصاراً شديدا حتى استسلمت ودانت له بالطاعة : هذه هى الحوادث التى ذكرها المؤرخون بما فيهم ابن الأثير أيضاً ، وقد نال الغابة أثناء الحصار نصيب من التخريب والإفساد .

الحادثة الثانية :

وفى سنة ٥٩١ هـ وصل إلى قابس يحيى بن إسحاق الميورقى الثائر على الموحدين ونزل بقرية (زريق) وكان فى قابس بن تافراجين والى الموحدين فحاصرها حصاراً شديداً ولما امتنعت قطع غابتها ولم يبق من نخيلها إلا واحدة لتكون عبرة لسكانها وخربها تخريبا تاما ثم وقع الصلح على أن تستسلم له المدينة فيدخلها ويخرج الوالى ابن تافراجين مع أهله إلى تونس ويدفع له سكان قابس ستين ألف دينار غرامة حربية ، وقد فصلنا هذه الحادثة فى الباب الخامس .

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٤٣١ — ٤٣٣ .

(٢) ج ١ ص ٤٣١ .

الحادثة الثالثة :

لما ثار الأمير أبو زكريا بن أبي إسحاق الحفصي في تلمسان على سلطان تونس أبي حفص عمر ، زحف سنة ٦٨٥ على تونس يعضده الأعراب من دباب فدافعه قائد الجيش التونسي الفزاري فمالت جيوش الثائر إلى قابس وحاصرها وهزم حاميتها ، وأثخن فيها قتلا وأسرا ، وهدم ربضها ، وأحرق المنازل والنخل في غابتها[1] ؛

الحادثة الرابعة :

وفي سنة ٧٨٩ هـ كانت قابس إمارة مستقلة في يد عبد الوهاب بن مكي من عائلة بني مكي اللواتيين الذين تداولوا إمارتها مائة ونيفا وسبعين سنة ، وكان عبد الوهاب هذا قد افتكها من الوالي الحفصي قبل ذلك فجهز إليه أبو العباس أحمد الثاني السلطان الحفصي (٧٧٢ = ٧٩٦ هـ) جيشاً جرارا وحاصر المدينة وقطع نخل غابتها وخرب واحاتها تخريباً تاما حتى أعلن عبد الوهاب الطاعة ورهن ابنه عند السلطان ضمانا لذلك .

هذه أحداث بارزة في التاريخ تعرضت فيها الغابة إلى التخريب والإفساد ، والظاهر أنها ليست الحوادث الوحيدة التي تعرضت فيها الغابة للإفساد ، فنحن نعرف أن قابس تعرضت مرات عديدة للحصار والحروب دامية في العهد الإسلامي ، وإذا قدرنا أن غابتها نجت من الفساد أثناء منازلة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح الأباضي لها سنة ١٤١ هـ[2] لشدة تمسك

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٧٠١ ط بيروت ، وذكر في نفس الجزء ص ١٧٠ أن الحادثة وقعت سنة ٦٨٧ .

(٢) أبو الخطاب عبد الأعلى بن عبد السمح المعافري الحميري تلميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي شيخ الأباضية بالبصرة ، قدم إلى جبل نفوسة مع بعض أصدقائه من شيوخ الأباضية بإشارة من شيخه فاجتمع عليه أهل الجبل والضواحي وبايعوه بالإمامة فنظم الإدارة وجمع الجيوش =

هذا الثائر بالأحكام الدينية وتعففه عن الفساد فإننا لانتصور احترامها من طرف جيوش الغزاة بعد ذلك .

ومن بين الغزوات الكبرى التى استهدفت إليها قابس واقعة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى[1] الذى أوقع بعلى بن إسحاق الميورقى بظاهر الحامة سنة ٥٨٣ هـ وانتقل إلى قابس فحاصرها برا وبحرا حتى استسلمت له .

ومنها منازلتها من طرف الناصر بن المنصور الموحدى[2] سنة ٦٠١ هـ الذى طرد منها يحيي الميورقى .

ومنها محاصرتها من طرف أبى يحيي زكريا اللحيانى حين كان شيخ الدولة الحفصية أى قبل توليه السلطنة وقد تفرد التجانى بالإشارة إلى هذه الحادثة فقال عند حديثه عن دار عبد الملك بن مكى[3] : « ورأيت فى وسط الحائط الذى فى قبتها الكبرى خرقا متسعا ذكر لى أنه إثر ضربة منجنيق جعل ضاربه غرضه هذا المجلس حيث كان الشيخ أبو مروان يجلس به فقصر

= وهاجم طرابلس فاحتلها سنة ١٤٠ ثم نهض إلى إفريقية فاحتل جربة وقابس وتقدم إلى القيروان فاحتلها سنة ١٤١ هـ وترك زميله عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة الرستميين بتاهرت واليا عليها ثم رجع أبو الخطاب إلى طرابلس حيث قتله محمد بن الأشعث الذى أرسله أبو جعفر المنصور بجيش كثيف لقمع الفتن بإفريقية سنة ١٤٤ هـ .

(١) تولى سنة ٥٨٠ هـ إثر موت أبيه بالأندلس ونهض إلى تونس سنة ٥٨٢ هـ لمطاردة الميورقى الذى أثار فيها الفتن ورجع إلى مراكش سنة ٥٨٤ هـ وله غزوات مظفرة بالأندلس وآثار عمرانية كثيرة بالأندلس والمغرب منها تأسيسه لمدينة رباط الفتح وكان حازماً شديد التدين والورع ، توفى سنة ٥٩٥ هـ .

(٢) محمد بن يعقوب تولى إثر وفاة أبيه ٥٩٥ هـ وقدم إلى تونس لمطاردة الميورقى أيضاً سنة ٦٠١ هـ وغادرها سنة ٦٠٣ بعد أن ولى عليها الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى جد الحفصيين – وللناصر غزوات بالأندلس أشهرها واقعة العقاب ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ .

(٣) الرحلة ص ١٧٨ .

الحجر بملاقاته لذلك الحائط وحرفت إياه عن الهو قليلا وكانت تلك الضربة أيام محاصرة مخدومنا (أبى زكرياء اللحيانى) لقابس » .

وعند حديث التجانى عن منزل (تبلبو) قال[1] : « وكانت به قبل هذا غابة نخل فقطعت أيام محاصرة مخدومنا لقابس ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة فى مواضع متناثرة منه » . ولا نشك أن ما أصاب غابة (تبلبو) نال مثله (غابة قابس) أو أكثر ، وهذه الحادثة وقعت بعد سنة ٦٩٣ هـ بسبب تمرد أبى مروان عبد الملك بن مكى صاحب قابس[2] إلى آخر هده الأحداث التى تتابعت عليها أيام الحفصيين كما سيأتى بيان ذلك كله فى الباب الخامس والتى لانشك أن الغابة تعرضت فيها إلى إفساد وتخريب كثير أو قليل فهى سور المدينة الحصين وهى ملجأ أيضاً للمقاومين وهى مستودع الميرة للمدينة ، ولذلك تحملت من الأحداث المؤلمة أكثر مما تحملت المدينة ولا تزال رغم ذلك كله ، إلى اليوم جنة قابس الساحرة وجنتها الحامية وعينها الساهرة .

---

(١) الرحلة ص ١٧٩ .

(٢) انظر تفاصيل الحادثة فى الباب الخامس .

الباب الثاني

خليج قابس



الفصل الأول

الشاطئ

موقعه – عمقه – أرضه – عمارته

من المعروف أن خليج قابس من أكبر وأوسع الخلجان التونسية ، وأن طرفه الغربي يقع فى المدخل الصخرى الفاصل بين البحر المتوسط وسبخة الفجيج[1] ، ويمتد منه غرباً سهل (شانشو) إلى (الحامة) وهو من أكرم الأراضى الزراعية المنتجة للحبوب ، ومن الحامة غرباً تمتد أرض (البحائر) الواسعة وأكثرها مزارع وسباخ منخفضة تنبسط بين جبلى (السق) من الشمال و (الطباقة) من الجنوب فتتصل بشط الجريد المعروف فى القديم (بسبخة تاكرت) ، وقد فكر بعض المهندسين فى شق قنال بين خليج قابس وشط الحامة المتصل بسبخة الفجيج وهذه متصلة بشط الجريد ، وهى فكرة ترتكز على مد البحر إلى الصحراء القاحلة حتى تخصب وتعمر (انظر الفصل الثالث من هذا الباب) ، ولكنها فكرة صعبة التنفيذ تستوجب رؤوس أموال ضخمة ، وإذا وقع شق القنال فستغمر المياه قرى وأراضى عديدة يعسر تعويضها على أصحابها ، ويسمى هذا الخليج (خليج سرت الصغير) ووصفه بالصغير للتفريق بينه وبين (خليج سرت الكبير) بطرابلس .

وساحله غالبه معمور بالقرى والبلدان من بدايته شمالا إلى نهايته جنوبا وتختلف أرض الساحل فنها الرملى الصالح للمصيف وعمقه درجات ومنها السباخ الكالحة التى لا تنبت غير النباتات السبيخية الصغيرة وهو قصير

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – وسبخة الفجيج تقع شمالى قرية (الإماقس) من منذوبية قبلى ويخترقها الطريق الممتد بين قبلى وقفصة .

لايبعد عمقه الأعلى مسافة من الساحل ومنها الطينى الذى يكون فى الغالب أكثر عمقا من غيره .

وتقع واحة قابس فى الطرف الغربى من الخليج على ساحل رملى منبسط جميل يمتد من مصب (وادى قابس) إلى شرقى واحة (شننش) الصغيرة وفى داخله أودية وسطوح ولذلك يختلف عمق مائه فيصل حين المد إلى مترين ونصف وفيه مد وجزر إلا أن هذا المد لايمتد كثيراً إلا حوالى مصب الوادى ، وقلة عمق المياه فى الشاطئ جعلته خاليا تقريبا من الأسماك فهى لا توجد إلا فى الأعماق الداخلية منه يسافر لها الصيادون بالزوارق .

وماء الشاطئ — فى الغالب — غير ساكن لكثرة الرياح وقوتها ، ولذلك فهو متقلب غضوب لا يهدأ ويسكن ويصبح صالحا للسباحة وللتنزه فى الزوارق إلا فى فصل الصيف أثناء النهار الذى تسكن فيه الرياح وتشتد حرارة الجو . على أنه فى الغالب يشتد صخبه وحركته فى الليل أثناء المد ، وقد كان هذا الشاطئ إلى عهد قريب غير عامر بالمصيفين وليس به محلات للراحة وإنما يرتاده الناس نهارا للسياحة لبعد المدينة عنه فقد كانت أقرب بنايات المدينة إليه من جهة الحى الحديث تبعد نحو نصف كيلو متر ، أما الآن فقد اتصل به العمران وامتدت على نصيب من مساحته الأكواخ الخشبية المعروفة على الشواطئ التونسية تتخللها بعض البنايات الحديثة والمقاهى العصرية ، وهذا العمران الآن فى ازدياد مطرد .

كما اتصلت به الطرقات المعبدة من المدينة وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة ولا تخلو هذه الطرقات فى أيام الصيف من السيارات وعربات الخيل رائحة عادية بالمتنزهين إلى ما بعـــد منتصف الليل

ولا تزال المساحة الجنوبية من الشاطئ خالية من العمران بالرغم من انبساط أرضها وجمال شاطئها ولين رمالها وصفاء ماء الشاطئ وضآلة عمقه بحيث يعتبر أحسن شاطئ لمصيف العائلات .

ولو وقع الالتفات إلى تحسينه وتنظيمه وعمارته بالبنايات الصالحة لسكنى العائلات والأفراد لأصبح من المصائف الجميلة المرتادة وللدرّ على المدينة وأهلها الخير الكثير .

الفصل الثانى

المرفأ البحرى

موقعه – وصف الرحالين له – السفن التى تدخله – حركته التجارية

ولمدينة قابس مرفأ بحرى معروف إلى الآن يقع عند مصب الوادى شرقى (سيدى عبد السلام) قليل العمق . لا تستطيع الإرساء فيه إلا السفن الصغيرة الحمولة والزوارق .

ويظهر أنه كان فى القديم أحسن حالا مما هو عليه الآن ، وأنه كان محل عناية السلطة الحاكمة وأن حركته التجارية كانت كثيرة ، ولا ريب أنه كان موئلا للسفن التجارية المتوسطة والصغيرة للفينيقيين والرومان بعدهم ، وبقى على حركته حتى بعد الفتح الإسلامى .

ذكره البكرى فى مسالكه[1] بقوله : « وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان » وجاء بعده الإدريسى فوصفه وصف متأمل مدقق بقوله[2] : « ومرساها فى البحر ليس بشىء لأنه لايستتر من ريح ، وإنما ترسى القوارب بواديها[3] ، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر ، وترسى به المراكب الصغرى وليس بكثير السعة وإنما يطلع المد للإرساء نحو رمية سهم » .

وحكى لنا التجانى[4] عند حديثه عن الوحشة التى حصلت بين على ابن يحيى الصنهاجى صاحب المهدية وبين رافع بن مكى بن جامع صاحب قابس أن السبب فى ذلك بناء رافع لسفينة ضخمة بميناء قابس ، وكان على

---

(١) ص ١٧ . (٢) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .
(٣) أى فى مصب عند الخليج .
(٤) الرحلة ص ٩٨

لا يريد من يزاحمه السيطرة على البحر الإفريقي وإن رافعاً استغاث بروجار صاحب صقلية فأرسل إليه قطعاً من أسطوله أرست بالخليج فقضى أسطول المهدية على قطع صقلية وسفينة رافع كما سيأتى فى الباب الخامس .

وإذا قدرنا أن السفن الصقلية أرست فى الخليج فإن بناء سفينة رافع الضخمة لا يمكن أن يكون إلا فى المرفأ ، وعلى هذا يكون المرفأ مكاناً صالحاً لإرساء السفن التى تحدث عنها الراحلون وأن رافعاً كان ينوى توسيع هذا المرفأ وتعميقه بحيث يصبح صالحاً لإرساء السفن الكبرى ولكن أسطول المهدية قضى على أحلامه ، ويأتى بعد التجانى ابن سعيد فيقول فى كتابه (بسط الأرض)[1] : « والمراكب المتوسطة تدخل نهرها » فلا يبقى شك إذن أن مرفأ قابس كان موئلا للسفن المتوسطة والصغيرة ، أما السفن الكبيرة فكانت ترسو فى الخليج بعيداً عن المرفأ ، ومنها تنقل السلع والمسافرون بواسطة السفن الصغيرة والزوارق .

تقول دائرة المعارف الإسلامية . « يستعمل مصب الوادى كمرسى للسفن الصغيرة الحمولة . أما السفن الكبيرة فترسى فى البحر فى خليج مختلف العمق يعلو فيه البناء زمن المد نحو مترين ونصف » .

وفقد قابس لمرفإ كبير تدخله السفن الكبيرة جعل حركتها التجارية على طريق البحر أقل أهمية مما هى عليه فى المرافئ التونسية الكبرى .

نعم إن المرفأ كان كثير الحركة إلا أنها قليلة الأهمية من حيث الحمولة لا تتجاوز حسب تقدير دائرة المعارف الإسلامية خمسة وعشرين ألف طن فى السنة ولذلك كانت الحركة التجارية بقابس بواسطة القوافل البرية سابقاً ، والسيارات فى العصر الحالى أكثر أهمية منها على طريق البحر .

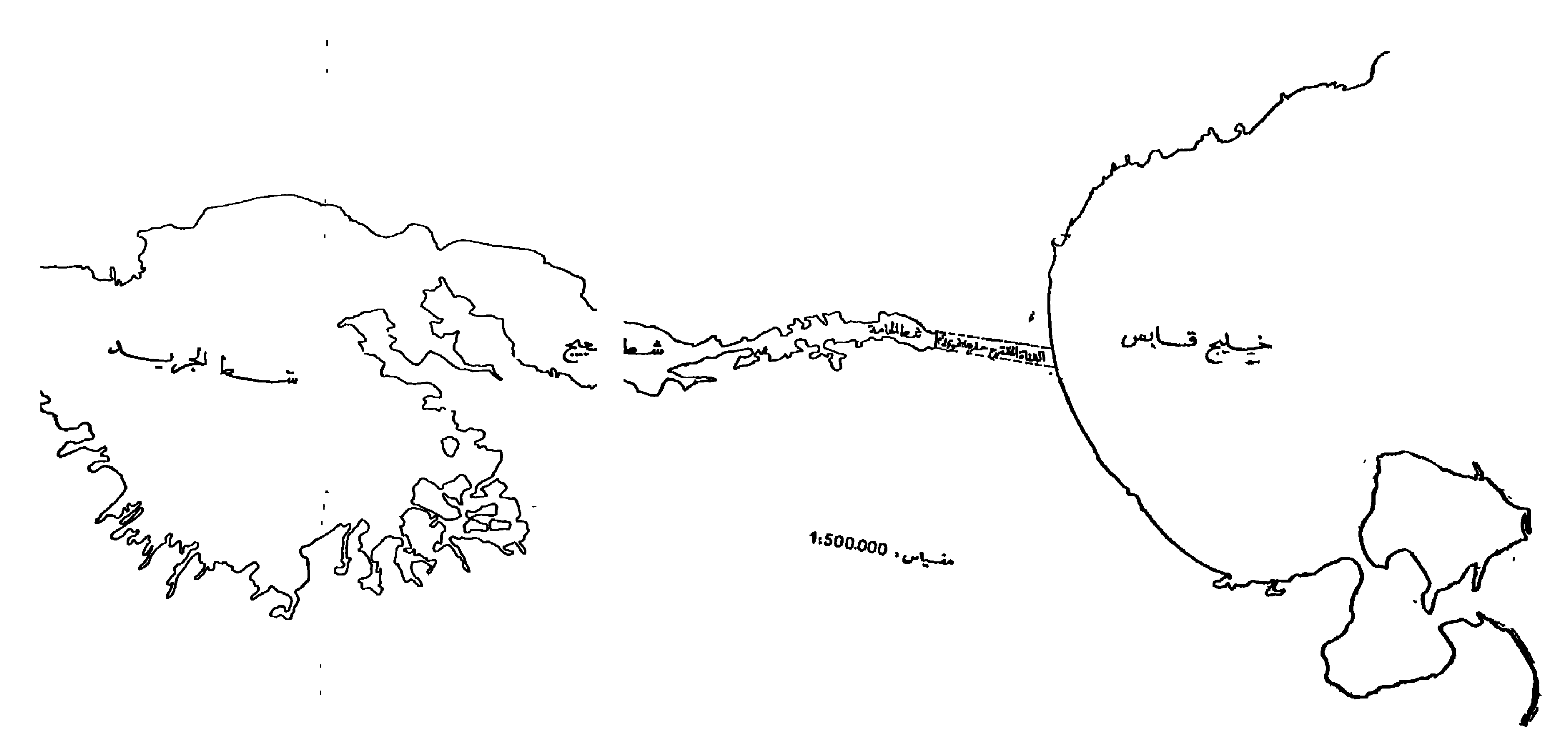
وقد أهمل المرفأ الآن إهمالا لا يليق بمدينة قابس ، وقد غمرت الرمال

---

(١) ص ٧٨ .

وأشجار السباخ كثيراً من مساحته حتى تعطل تماماً فأصبحت الزوارق ترسو فى فرغة منه قرب شاطئ البحر بدل أن تدخل للمرفأ النهرى القديم المتعطل .

ولو وجه له الاعتناء اللازم فوقع توسيعه وتعميقه وتهيئة رصيف له وإعداده لقبول السفن المتوسطة الحمولة لكان فى ذلك الخير الكثير إذ أن مدينة قابس مركز ممتاز للتجارة والمواصلات .



خريطة رقم (١٢) القناة ـحة



الفصل الثالث

مشروع بحر الصحراء

كان منشأ فكرة « بحر الصحراء » استعمارياً بحتاً ، إذ أن المستعمرين الفرنسيين الأول كانوا يحلمون منذ القرن التاسع عشر وبعد احتلالهم للجزائر الشقيقة باستثمار الصحراء الكبرى وجعلها صالحة للتعمير وللحياة المتحضرة وذلك بالتغلب على حرارتها وجفافها بواسطة خلق جو رطب فيها صالح للتشجير والتعمير وفى منتصف القرن التاسع عشر اكتشف أن منطقة الشطوط بالقسم الشمالى الشرقى من الصحراء والممتدة من قرب خليج قابس إلى جهة الواحات الجزائرية بالجنوب الجزائرى يقع سطحها تحت مستوى سطح البحر ، وقد أوحى هـذا الاكتشاف إلى القبطان (روديير) من ضباط الجيش الفرنسى بفكرة إنشاء بحر الصحراء فاقترح شق قناة من خليج قابس إلى شط الحامة (انظر الخريطة) ، وهذا العمل سيسمح لمياه البحر المتوسط بالانسياب إلى منطقة الشطوط فتكون بحراً مقسعاً يربط بين الجزائر وتونس ويسمح بتلطيف الأجواء الصحراوية وباجتذاب المياه المخزونة فى بطن الأرض إلى الارتفاع نحو السطح فى السواحل وزيادة فى نسبة الأمطار نتيجة تبخر مياه البحر مما يجعل مناطق واسعة من الصحراء صالحة للزراعة . وقد اهتم المهندس المعروف (فرديناند دى ليسبس) الذى شق قناتى (السويس وبناما) بهذه الفكرة وانتشرت الدعاية لهذا المشروع مما أجبر البرلمان الفرنسى على الموافقة على قرض مالى للقيام بدراسة تفصيلية لمنطقة الشطوط :

وقام القبطان (روديير) صاحب الفكرة بهذه الدراسة بين سنتى ١٨٧٣ ، ١٨٧٦ فاكتشف أن الشطوط الجزائرية تقع حقيقة تحت مستوى سطح البحر أما (شط الجريد) فمرتفع عن سطح البحر ولكنه لم ييأس من تحقيق فكرته

فاقترح أن تطول القناة وتمتد شمال شط الجريد باتجاه الشطوط المنخفضة إلى بسكرة ويقول (روديير) : إنه بالرغم من إخراج شط الجريد من مساحة (بحر الصحراء) فإن الباقى من الشطوط يستطيع أن يخلق بحراً لا تقل مساحته عن (٣٫٠٠٠) ميل مربع .

بيد أن خبراء أكاديمية العلوم حذروا المسؤولين من هـــذه المغامرة المرتكزة على التخمين والخيال والتى قـــد تؤدى إلى مشاكل لم تكن فى الحسبان ، وقد تقضى على واحات خضراء ومدن وقرى آهلة بسكانها دون نتيجة . وعاد البرلمان الفرنسى للموضوع من جديد فوافق عام ١٨٧٨ على تخصيص مبالغ جديدة للقيام بدراسات جيولوجية يشترك فيها دى ليسبس وكانت التقديرات الماليـــة هائلة مما جعل المشروع يهمل إثر موت صاحبه (روديير) سنة ١٨٨٣ .

وعاد الحديث عن هـــذا المشروع على إثر اكتشاف شركات البترول التى تقوم بالحفر فى مختلف مناطق الصحراء عامى ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ أن هناك ارتباطاً بين منطقة الشطوط وبين البحر الأبيض المتوسط فى العصر الجليدى وأن البحر كان يمتد إلى منطقة الشطوط هذه وأن مياه البحر الأبيض المتوسط قد انخفضت بتوالى العصور انخفاضاً أدى إلى ظهور حاجز قابس الصخرى الذى فصل بين البحر والشطوط حتى جفت وبقيت سباخاً مالحة فتألفت (جمعية الأبحاث الفنية لدراسة بحر الصحراء الداخلى) التى أحيت مشروع (روديير) القديم وقامت بأبحاث إلى سنة ١٩٥٩ فحلت محلها مؤسسة (البحث العلمى) التى تفرع عنها (اتحاد التعدين الفرنسى) وكانت نتيجة أبحاث (جمعية الأبحاث الفنية) أن اقترحت شق قناة عبر (شط الجريد) عمقها يتراوح بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ياردة واتساعها بين ميل ونصف وميلين وربع مع إقامة سد ضخم على (شط الجريد) قرب مدينة توزر لتوليد الكهرباء .

ويقول جورج غيرستر فى كتابه (الصحراء الكبرى) الذى نلخص

عنه هذا الفصل : إن هذه الجمعية كانت فى بحوثها على اتفاق تام مع كتابة الدولة للأشغال العامة بالحكومة التونسية[1] .

واقترحت الجمعية أن يقع شق القناة بواسطة تفجير القنابل الهدروجينية فى باطن الأرض ضماناً لسرعة العمل ، كما اقترحت على منظمات البترول أن تساهم بمساعدتها على إتمام هذا المشروع . ولكن مؤسسات البترول لا ترى فيه غير إغراق فى الخيال والأوهام .

* * *

وظهر (لويس كيرفران) فى سنة ١٩٥٨ بمشروع جديد لتحقيق وجود (بحر الصحراء) لا يعتمد على شق قناة من خليج قابس ، وإنما على تحويل مياه نهر (النيجر) من جهة قريبة من مدينة (تمبكتو) وتوجيهه نحو الشمال إلى المنطقة المحيطة بـ (تاؤودينى) حيث تقسم المياه هناك إلى فرعين . يتجه أحدهما فى عطفة واسعة إلى صحراء موريطانيا ليصب فى المحيط الأطلسى قرب العاصمة (نواق الشط) ويتجه الثانى شمالا إلى بلدة (عين صالح) ، ومنها يمتد فى أنابيب وأقنية إلى (قلعة فلاترز) حيث يتسرب إلى (وادى أغرغر) المتحجر فينســاب مع مجراه إلى (شط ملغيغ) وبقية الشطوط المنخفضة . ويعتقد صاحب هذا المشروع أن مشروعه هذا لا يحتاج إلى كثير من الحفريات .

ويتنبأ مؤلف كتاب (الصحراء الكبرى) لهذا المشروع بأنه سيلقى نفس مصير المشروع الأول .

هذا ما وصلت إليه قضية (بحر الصحراء) التى استطردنا ذكرها هنا لاتصالها بالخليج المسمى باسم المدينة التى نؤرخ لها . فهل يتحقق هذا الحلم ويتغلب العقل البشرى على العراقيل الطبيعية ؟ أم يكون هذا الحلم الذى يراود عقول المهندسين منــذ أكثر من قرن مجرد إغراق فى الخيال كما يقول رجال البترول ؟

---

(١) الصحراء الكبرى ص ٣٣٩ ترجمة خيرى حماد طبع بيروت ١٩٦١ .



الباب الثالث

مدينة قابس

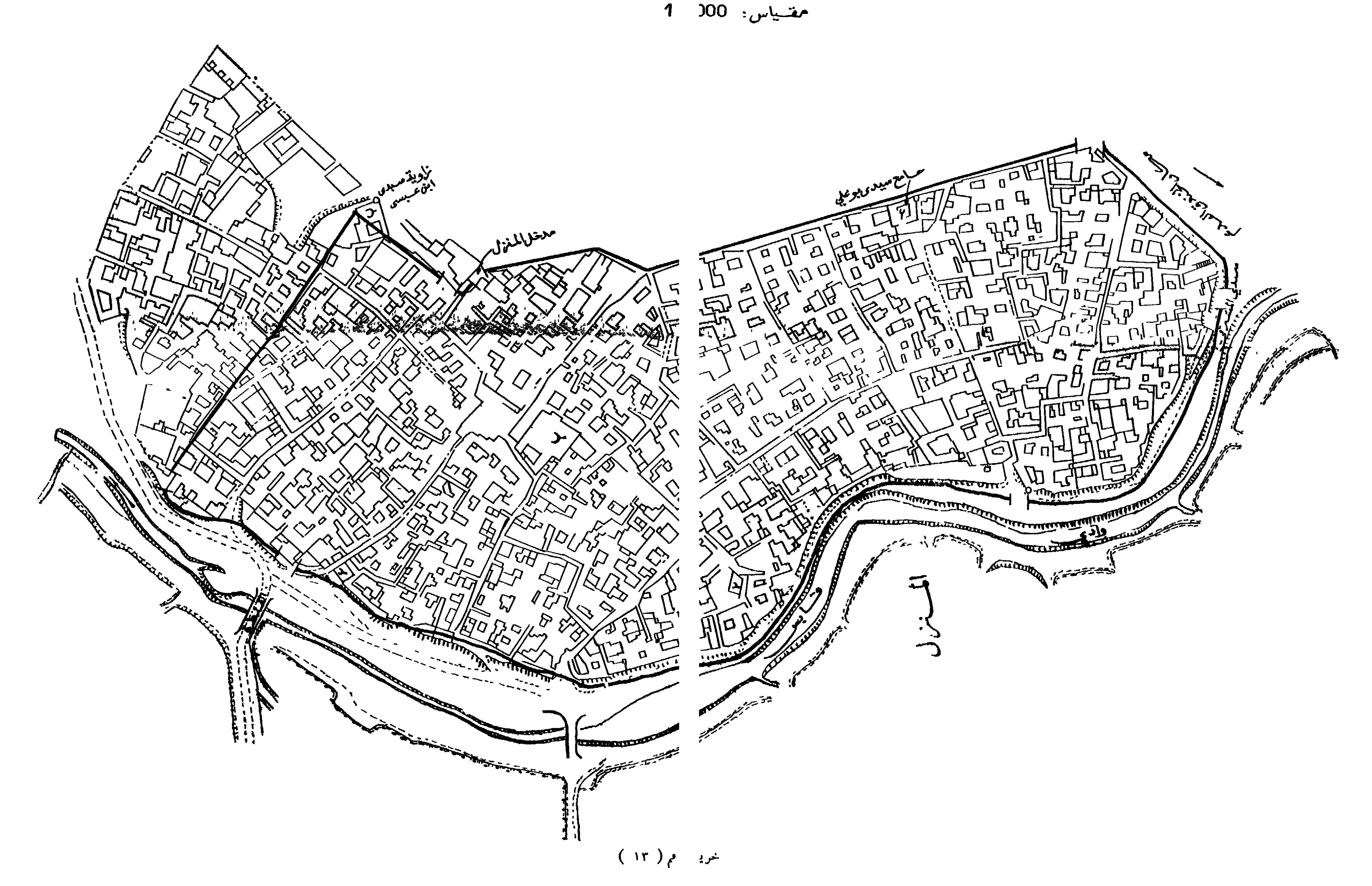




خريطة المدينة القـ ـة المسورة

منزل قاس

مقياس: 000 1



خري م (١٣)

الفصـــل الأول

المدينة القديمة

موقعها – أهميتها – بناؤها – سورها – أبوابها – خندقها

أين كانت مدينة (تاكاب) – أو – تاكاباس) القديمة ؟ هذا هو السؤال الذى قضيت زمانا فى البحث عن جوابه فما وصلت إلا لتكهنات وتخمينات بقيت فى حاجة لمؤيدات تاريخية متينة ، لأن هذه المؤيدات لاتكون ماثلة إلا فى الآثار الظاهرة أو المدفونة تحت الأرض ، ومن سوء الحظ أن أعمال الحفر عن الآثار لم تتجه لحد الآن إلى هذه الناحية بصفة فعالة .

تقول دائرة المعارف الإسلامية إنه « كانت فى مكان مدينة قابس الحديثة مدينة تسمى (تاكاب) أسسها الفنيقيون وكانت أكثر المدن ازدهارا بخليج سيرت فتداولها القرطاجنيون ثم الرومان بعدهم وصارت فى زمن الإمبراطورية الرومانية ذات أهمية كبرى » .

وتحديد مكانها فى مكان المدينة الحديثة هو ما ذهب إليه (أطلس تونس الأثرى) فقد جاء فيه « أن أنقاض المدينة القديمة تقع تحت كامل مساحة أقسام المدينة الحديثة الأربعة : جارة – والمنزل – وباب البحر – وسيدى أبى لبابة » ويقول صاحبا كتاب (خليج قابس فى سنة ١٨٨٨) عند الحديث عن أهمية المدينة : « والظاهر أنها كانت تمتد (حتى شاطئ البحر وأنها صعدت فى العهد الرومانى إلى صف المستعمرات ... وفى العهد المسيحى أصبحت مركز أسقفية . . . على أنه يصعب جداً تعيين مكان المدينة المندثرة بالضبط[1] » . ونقلا عن ڤرين فى كتابه (رحلة أثرية

---

(١) J. Servonnet, et Doct F. Lafitte : Le golfe de gabès en 1888, p. 219-220

فى الإيالة التونسية) أن المدينة (قد تكون ممتدة من جنوب أبى لبابة وتتصل شرقا بالبحر وتشمل المنزل وجارة وشنني بحيث تقرب مساحة دائرتها من خمسة كيلو مترات[١]) وهذا كلام ظاهر المبالغة إذ لو صدقنا تكهنات (قيرين) هذا لكانت مساحة دائرتها أكثر مما قدره لها هنا .

هذه بعض أقوال الأوربيين الذين تجمع تكهناتهم على أنها كانت تحتل مساحة كبرى مساحة مدينة ضخمة ، ومعنى هذا أن موقع المدينة لم يتغير وأن تاكاب القديمة كانت من الكبر والسعة والعمران بما لا يقل عن حالتها الحاضرة .

ونحن نشك فى هذا الزعم للأسباب التالية :

١ ـ لأن هؤلاء المؤلفين لم يدلوا لنا بما يؤيد كلامهم من الآثار أو المصادر التاريخية .

٢ ـ لأن البناءات الحديثة التى تنزل أسسها عادة إلى أمتار فى الأرض لم يجد عمالها أى أثر يدل على وجود بناء قديم اللهم إلا بعض الآثار السطحية القليلة التى تدل على وجود بناءات سابقة فى بعض الأماكن المتفرقة ليست بذات أهمية أثرية أى أنها ليست سابقة للفتح الإسلامى .

٣ ـ إن مدينة تغطى مساحة كبيرة من الأرض لابد لها من هياكل وعمارات أثرية ضخمة تناسب عظمتها وأهميتها ، ولا وجود لهذه الآثار البتة على وجه الأرض .

٤ ـ إن مدينة بهذه العظمة وهذا الاتساع لا يمكن أبدا أن يهملها الجيش الإسلامى الأول الذى قدم إفريقية سنة ٢٧ هـ إذ نجده (يسلك إلى سبيطلة ولم يتوقف فى قابس) وهذا ما قاله أيضا ابن الشباط « وكان ابن أبى سرح لما أرسله عثمان ٢٧ هـ حاصرها ثم تركها خلفه » أما ياقوت فى معجم

---

(١) V. Guérin : Voyage Archéologique dans la Région de Tunis, T. 1 p.197

البلدان فقد زعم أنها فتحت فى الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ[1] :

إذن فليس هناك من سبيل لتصديق هذا الزعم إلا إذا قدرنا أن المدينة اندثرت أيام البيزنطيين واضمحلت آثارها ولم يبق منها إلا قرية لا أهمية لها انزوت حوالى الربوة الواقعة بين المنزل وسيدى أبى لبابة التى بها (خزنة الماء) والمعروفة إلى اليوم بـ (المدينة) والتى يذكر أهل قابس أنها مكان المدينة القديمة وأن آثارها القائمة قد خربها السكان فى العصور الإسلامية وبنوا بصخورها وأحجارها منازلهم وسور بلدهم وإذا كان لنا أن نتوصل لمكان المدينة القديمة بواسطة آثار البناء ، فإن هذه الآثار قد اندثر الظاهر منها وانتقلت أحجارها ولا نعرف الآن بالضبط موقع المدينة القديمة ولا أهميتها من حيث الكبر والصغر فلم يبق إلا أن نتبع سكان المكان — وهم أدرى ببلدهم — فى تحديد مكان المدينة بالربوة التى يطلق عليها اسم (المدينة) إلى اليوم وقد ورثه الأبناء عن الآباء أما ما هى أهميتها وإلى أين تصل أسوارها وبناءاتها ، هذا ما لم نهتد إليه .

نعم هناك آثار بناءات أخرى قديمة عثر عليها فى سيدى بشار غربى ضريح أبى لبابة ، يزعم السكان أيضاً أنها آثار قرية كانت هناك .

وهناك آثار أبنية رومانية عثر عليها السكان منذ خمسة عشر عاما تقريبا بغابة (بوشمة) فى المكان المعروف بـ (هنشير الرومان) .

وقد زرت المكان فى جوان ١٩٥٩ صحبة شيخ القرية والرجل الذى اكتشف البناء فحدثنى هذا الأخير أنه أثناء خدمته للأرض عثر على جدران مبنية بالصخور المنحوتة تمتد إلى مسافة لم يحددها وأنه عثر على مكان مدخل كبير للبناء وعلى سوارى من الصخر المنحوت وعلى جرار مملوءة

---

(١) معجم البلدان — مادة قابس ج ٤ ص ٢٨٩ ط بيروت .

بالرماد المخلوط بقطع صغيرة براقة لا يعرف معدنها وأنه نزل مع تلك الجدران فى الأرض فوصل إلى الماء ولم يحددها ، ثم صحبنى إلى حيث توجد الصخور والسوارى التى اكتشفها وقد بنيت فى أسفل جدران المنازل والمستودعات فإذا بها لا تختلف عن أحجار وسوارى البناءات الرومانية ، ثم عثر الأهالى فى نفس المكان – فى الأيام الأخيرة – على مقبرة لم تعرف أهميتها بعد ..

فما هى هذه الآثار ؟ وهل كانت المدينة القديمة تمتد إلى هذه الجهة ؟ أو أن هذا المكان هو موقع المدينة القديمة ؟ أم أنها آثار ضيعة من الضيعات الزراعية (Ferme) المعروفة فى تلك العصور ؟ ؟

الظاهر أن الاحتمال الأخير هو الأوجه .

وبعد فيمكن أن نستخلص من هذا أن المدينة القديمة (تاكاب) كانت تقع حسب الراجح على الربوة المعروفة اليوم (بالمدينة) وحوالبها كما قلنا ولكننا لا نعرف أهميتها ولا كبرها من صغرها وإنما نعتقد أن منازلها كانت ممتدة على مسافات من الربوة تختلف اتساعا وضيقا وأن شرب أهلها إما أن يكون من ساقية مجلوبة لها من الوادى وإما من عين سلام على فرض قدم نبعها . يقول (برانشفيع) : « والظاهر أن عين سلام كانت داخل السور »[1]، وقد عثر على آثار منازل وصهاريج ومواجل متوغلة فى القدم وعلى أوانى من الفخار ربما كانت فنيقية الأصل فى هذه الربوة .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية أن الفنيقيين هم الذين أسسوا (تاكاب القديمة) وقد يكون هذا صحيحا ويحتمل أيضاً أن يكون تأسيسها سابقا للفنيقيين وأن المؤسسين الأصليين هم البربر الذين عرفتهم إفريقية قبل الفنيقيين ولعل فى ابتداء اسمها بالتاء المفتوحة ما يرجح هذا الاحتمال

---

(١) Branschvig: Sa Barlorie arientale Sous las Hafrider. T.1.p : 819

إذ المعروف أن أسماء المدن البربرية يبتدئ غالبها بهذه التاء (تطاوين — تاوجوت — تجغت — تامزرت — تاهرت — تافلالت .. الخ).

وعلى كل احتمال فإن المدينة قد ظهر اسمها وشما مركزها فى أيام الفنيقيين وعظم هـــذا المركز تجاريا وعمرانيا فى العهد الرومانى ، وفى أيام الفتح الإسلامى كانت غير ذات أهمية من الناحية الحربية والعمرانية بدليل عدم توقف الجيش الإسلامى عندها فى فتوحاته وعدم ذكر المؤرخين للظرف الذى وقع فيها احتلال المسلمين لها ولا حدودا حتى السنة التى فتحت فيها ، إلا ياقوت ، ولا عينوا الجيش أو القائد الذى فتحها ، كما اعتادوا أن يذكروا ذلك فى بقية البلدان ، وقد حاولنا أن نعلل هذا الإغفال فى الباب الخامس عند التعرض للفتح الإسلامى . ويظهر أن المسلمين حين دخلوها وجدوا اسمها (تاكاباس — أو تاكابس) وهذه السين فى آخرها رومانية ، فطرحوا التاء ونطقوا الباقى فقالوا (قابس) وشرعوا فى إنشاء مساكنهم من أنقاض المنازل القديمة فى الجهة الشمالية من المدينة وعمرت مدينة قابس واتسعت وازدهرت منذ دخلها المسلمون ، فأصبح لها ذكر ولها شهرة ذائعة لوقوعها فى باب إفريقية كما وصفوها ، وفى طريق القوافل والجيوش القادمة من الشرق والذاهبة إليه ، ثم لأهمية وخصب غابتها حتى أصبحت تمير القيروان العاصمة الأولى للإسلام بالفواكه والغلال وأنواع النسيج ، كما تمير صفاقس[1] وغيرها ، ثم أصبحت فى العصور الموالية مركزاً هاما من مراكز التجارات الواردة من السودان وطرابلس ، وسوقا من أسواق الرقيق المجلوب من السودان أيضا .

وقد وصف لنا الرحالون مدينة قابس الإسلامية ولكنهم لم يحددوا لنا موقعها بالضبط ، وسنورد أقوالهم فيما يلى ثم نحدد مكانها والمساحة التى تغطيها .

---

(١) رحلة التجانى ص ٦٨ .

وأقدم هؤلاء اليعقوبى فوصفها بأنها مدينة عظيمة عامرة[١] . أما ابن حوقل فلم يصف لنا المدينة ولكنه وصف تجارتها الواسعة وصناعاتها الوافرة وغلاتها الكثيرة ، ثم استطرد لوصف أخلاق أهلها .

ويصفها المقدسى[٢] بأنها : « أصغر من طرابلس . . . وبنيانها من الحجارة والآجر . . . مسورة ولها ثلاثة أبواب » .

ويأتى البكرى فى القرن الخامس فيقول عنها[٣] : « مدينة جليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الأول ، ذات حصن حصين ، وأرباض وأسواق وفنادق وجامع سرى ، وحمامات كثيرة ، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء ولها ثلاثة أبواب وبشرقيها وقبليها أرباضها . . . بينها وبين البحر ثلاثة أميال » .

وبعد البكرى بنحو قرن يصفها الإدريسى بقوله[٤] : « مدينة صغيرة متحضرة ، وبها من ناحية البحر أيضاً سوق وباعة وحريريون كثيرون . . . بينها وبين البحر ستة أميال ! من جهة الشمال . . الخ » .

ثم يأتى التجانى فى أول القرن الثامن فيصفها بأنها[٥] « مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها ، فهى أحق بقول ابن عيينة :

« وادى القصر نعم القصر والوادى ... وحبذا أهــله من حاضر بادى
ترسى قراقيره والعيس واقفة ... والضب والنون والملاح والحادى

---

(١) البلدان ص ١٠٥ .
(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .
(٣) المسالك ص ١٧
(٤) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .
(٥) الرحلة ص ٨٧ .

(وبقوله أيضا)[1] :

« يا جنـــة فاقت الجنان فـــا لعلقهـــا قيمـــــة ولا ثمن
صاهر حيتانها الضـــباب بها فهـــــده كنـــــة وذا ختن
من سفن كالنعام مقبــــلة ومن نعـــام كأنهـــا سفن

ويقال « إنه لا يجتمع فى مائدة صيد البرّ وصيد البحر وأصناف التمر إلا فى مائدة من يسكن قابس ، وعلى قابس سور صخر جليل من بناء الأول ولها أرباض واسعة وجل أسواقها فى أرباضها الخ » ثم تعرض التجانى إلى ذكر معالم المدينة التى سيأتى الحديث عنها فى الفصل الآتى .

ويقول عنهـــا ابن خلدون[2] : « هى حاضرة البحر من أعظم أمصار إفريقية» . وإذا تتبعنا من أقوال هؤلاء وجدنا بينها تضارباً ، فبينما يصفها اليعقوبى والبكرى وابن خلدون بالكبر والعظمة والاتساع وهو المفهوم أيضاً من ابن حوقل نجد المقدسى والإدريسى يصفانها بأنها مدينة صغيرة ، كذلك نجد التضارب نفسه فى كيل المسافة التى بينها وبين البحر ، فيجعلها البكرى والتجانى ثلاثة أميال ويجعلها الإدريسى ستة . وإذا تجاوزنا عن هذه الهنات فى التآليف القديمة والمتأتية غالباً من خطأ النساخين ومن اعتماد القدماء على الرواية أكثر من المشاهدة وتجاوزنا عن مسألة المسافات وتحديد الجهات ، فإنه يمكننا أن نستنتج من أقوالهم مضافة لما شاهدناه بأنفسنا من آثار مواقع الخندق القديم ومن مكان المقبرة القديمة ومن آثار بعض أبواب السور من مجموع هذا كله يمكن أن نستنتج ما يلى :

---

(١) وضعنا كلمة (بقوله أيضاً) بين قوسين لأن التجانى نسب الأبيات بعدها إلى الخليل ابن أحمد والصواب أنها لابن عيينة فى ملح مدينة البصرة ، والبيتان الأولان يقولها فى قصر عيسى بن جعفر بالحربية قرب البصرة ، وابن عيينة هذا هو عبد الله بن محمد المهلبى .

(٢) ج ١ ص ١٢٢ ط الجزائر .

١ — إن قابس الإسلامية كانت مدينة متوسطة ذات بناءات محترمة أقيمت جدرانها من الحجر والآجر .

٢ — وكانت تبتدئ من قرب قنطرة الوادى شمالا حيث يقع الباب الشمالى للسور ويتجه سورها نحو الجنوب الشرقى إلى زاوية سيدى ابن عيسى الواقعة على طريق جارة — المنزل حيث يقع باب ثان للسور يقابل الباب الشمالى ، وقد فتح الآن بين البابين المذكورين طريق جديد بعد تهديم المنازل التى كانت بينهما ، ويمتد هذا الطريق نحو الجنوب الشرقى مخترقاً المقبرة القديمة ويتصل بطريق مطاطة قرب جامع التوفيق الجديد ، ومن زاوية سيدى ابن عيسى ينكسر السور نحو الغرب قليلا ثم ينعطف إلى الجنوب ماراً بجامع سيدى أبى على بالمنزل وموقعه على جدار السور القديم ويستمر جنوباً إلى الباب الشرقى الواقع على ضفة وادى بوشاعة (الخندق القديم) شرقى سيدى المشيرقى ، ثم ينحرف السور نحو ضريح سيدى المشيرقى الواقع فى الشمال الغربى من ربوة خزنة الماء ، ومن هناك ينعطف السور شمالا على ضفة وادى السيل الشرقية إلى باب سيدى عبد النافع ، ثم ينعطف إلى الشمال الشرقى مع ضفة الوادى أيضاً إلى البـــاب الفاتح على القنطرة الذى ابتدأنا منه أولا (انظر خريطة المدينة) ، وعلى مقربة من الباب الشرقى يوجد سهل منخفض ممتد إلى البحر يوازى واحة (شنتش) من الشمال ، وهذا السهل يسمى الآن (القهباية) ، والظاهر أنه كان لساناً ممتداً من البحر يمثل رأس الخليج البحرى وقد ردمته عوامل الطبيعة من قديم ، ولا شك عندى أنه هو نفسه الفسحة العظيمة التى ذكرها الورثلانى أثناء زيارته لقابس فى القرن الثانى عشر للهجرة بقوله[1] : « نزلنا خارج قابس عند الباب الشرقى ، فى فسحة عظيمة تجاه أبى لبابة بعيداً منه من جهة البحر » ولا شك أن هذه المدينة قد بناها المسلمون شمالى المدينة القديمة التى كان مركزها (خزنة الماء) ، وتمتد أطرافها إلى الجهات

---

(١) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

الأربع وربما تجاوزت بناءاتها عين سلام جنوباً وشرقاً ، وبذلك يصح قول برانشفيغ Brannechvig (والظاهر أن عين سلام كانت داخل السور)[1] أى سور المدينة القديمة لا المدينة الإسلامية التى حددناها على ضوء آثار أسوارها .

بقيت قرية المعافرين التى كانت قرب مدينة قابس والتى تعرض لها ابن ناجى[2] فى المعالم[3] عند الحديث عن ترجمة أبى الحسن القابسى بقوله : « لما وليت قضاء قابس وجدت بقربها قرية خالية تسمى بالمعافرين وفيها مسجد يقصده الناس للصلاة فيه تبركاً به ويقصدونه بالوعدات يقال له مسجد سيدى على ولا يدرون من يكون علياً هذا . . . . ؟ سألنى بعضهم من أى بــلدة هو (أى أبو الحسن القابسى) قلت هو ينسب للمعافرين ، فجزموا من محبتهم فى ذلك المسجد أنه صاحب ذلك المسجد ... الخ » . وقد بحثنا فى أطراف مدينة قابس عن أثر لهذه القرية أو هذا المسجد فلم نعثر فى أول الأمر إلا على مسجد ببلدة المنزل يسمى (جامع سيدى بو على) ، وهو مسجد قديم جدد بناؤه فى العهد الأخير يؤمه المصلون بكثرة ، ويزعم أهل تلك الجهة أن المسجد منسوب لسيدى أبى على النفطى[4] ، ولكن أبا على النفطى تنسب له زاوية ومسجد بجهة القصر بجارة ، وإلى هناك يذهب الزائرون وتساق النذور والهدايا . وسألنا السكان كيف يكون

---

(١) La Berberie orientale Sous les Hafsides T.1 p 319.

(٢) قاسم بن عيسى بن ناجى التنوخى القيروانى ، ولد فى القيروان وبها تلقى معارفه الأولية ثم قدم إلى تونس فقرأ على الإمام ابن عرفة والبرزلى والأبى والرعبى والشبيبى والوانوغى والغبرينى وتولى القضاء فى باجة وجربة وقابس والأربس وتبسة وسوسة والمنستير والقيروان وله تآليف كثيرة منها شرح على رسالة ابن أبى زيد وشرح على المدونة واختصر وعلق على معالم الإيمان للدباغ وهو مطبوع فى أربعة أجزاء وتوفى بالقيروان سنة ٨٣٨ هـ .

(٣) معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) أبو على النفطى زاهد متعبد نشر مذهب السنة فى الجريد ونفزاوة ، وقد كانت هذه الجهة على المذهب الأباضى ، وتوفى سنة ٦١٠ هـ ودفن بضريحه المشهور قرب نفطة بالجريد .

لهذا الولى مسجدان فى بلد واحد ، فلم نجد عندهم جواباً وكدت أظن أن هذا المسجد إنما هو المسجد الذى تعرض له ابن ناجى وأن قرية المعافرين كانت هناك وأن السور المار بذلك المسجد إنما هو سور جديد . وقد ذهب بى التكهن إلى أبعد من هذا حيث عثرت على داموس تحت الأرض فى طرف (جبانة سيدى مرزوق) — وهى مقبرة قديمة اندثرت الآن وسويت أرضها ومهدت — وفى الجهة التى تقع شرق المسجد المذكور مباشرة يسمى هذا الداموس (غار معافى) فمن القريب جداً أن يكون أصل التسمية (غار المعافرين) إضافة لقرية المعافرين المندثرة ، كاد هذا الوهم أن يضللنى حتى عثرت أخيراً على آثار السور وتمكنت من تحديد المدينـــة الإسلامية (انظر الخريطة) ، واهتديت إلى ضريح سيدى على الظاهر فى الخريطة وهو يقع قرب المصلى بين سيدى المشرقى وسيدى أبى لبابة ولم يبق أثر للمسجد الذى تحدث عنه ابن ناجى وإنما هناك (قبيبة) صغيرة جداً يزورها السكان وبجانبها منازل للسكنى قائمة على أنقاض قرية (المعافرين) القديمة .

الأرباض والأسواق :

ذكر التجانى أن جل أسواقها فى أرباضها ، وحـــدد البكرى مكان بعضها بأنها قبلى المدينة وشرقيها ، ولا شك أن الربض القبلى كان حوالى سيدى أبى لبابة وربما بينه وبين عين سلام ، ولم تبق هناك سوق الآن ، وإنما انتقلت هذه السوق لبلدة المنزل نفسها بجانب الجامع الأعظم ، (جامع المنزل) والربض الشرقى هو (جارة) التى يظهر أنها سميت بهذا الاسم لمجاورتها للمنزل ، ولا تزال سوق جارة منتصبة إلى اليوم ، ولعلها هى نفسها سوق الحريريين التى نص الإدريسى على أنها كانت بين المدينة والبحر .

وعلى كل فالمدينة القديمة — مع أرباضها — على جميع التقديرات —

كانت تمتد من قبلى (خزنة الماء) إلى حد (المنزل) شمالا ومنه إلى (ظهرة قراوش) شرقاً ومنها إلى (محطة القطارات) قبلة ، ثم تمتد غرباً فى خط مائل للقبلة إلى جهة عين سلام ، هذا هو المكان التقريبى للمدينة القديمة حسب الاحتمالات التى تهدينا إليها أقوال المؤرخين ، وهى مساحة تتناسب مع ضخامة عمرانها ووفرة سكانها التى أشار إليها البكرى بقوله[1] « ذات حصن حصين وأرباض وأسواق وفنادق وجامع سرى وحمامات كثيرة » .

السور :

أما سور المدينة فإنه كان يمتد كما فى الخريطة من البـــاب الشرقى إلى سيدى المشرقى غرباً ، ثم ينعطف شمالا إلى باب سيدى عبد النافع ، ثم ينعطف شرقا إلى باب القنطرة ومنه ينحرف إلى الجنوب الشرقى إلى زاوية سيدى ابن عيسى ، ومنها ينعطف إلى العرب قليلا ثم ينكسر إلى الجنوب حتى يتصل بالباب الشرقى مارا بجامع سيدى أبى على ، وعلى هذا فإن المدينة الإسلامية القديمة كانت مكان المنزل الآن حسبما تدلنا عليه آثار سورها ، زيادة عما عرف من الآثار الإسلامية أن الجوامع هى آخر ما يبقى من آثار المدن ، وأنها فى الغالب تبقى محترمة لا يجروؤ الناس على مسها بالتخريب ، وإذا بحثنا مكان جامع قابس القديم ، نجد أمامنا جامعين أحدهما بجارة والآخر بالمنزل ، وإذا طرحنا من حسابنا جامع جارة لأنه حديث التأسيس[2] لم يبق لدينا إلا جامع المنزل ، فقد حدثنى الأستاذ مصطفى زبيس متفقد الآثار الإسلامية أنه زار هذا الجامع قبل تجديده الأخير واكتشف فى أحد أبوابه رخامة منقوصة تدل الكتابة التى بقيت فيها على قدمه السحيق .

---

(١) المسالك ص ١٧ .

(٢) حدثنى الأستادة مصطفى زبيس أنه شاهد فى جامع جارة قبل تجديده كتابه تدل على أن مؤسسه هو (محمد باى بن مراد بن حمودة باشا المرادى) (١٠٩٦ — ١١٠٨) ومحمد باى هذا هو الذى بنى مدرسة أبى لبابة بقابس .

إذا كان جامع المنزل هو جامع قابس القديم الذى يذكر التجانى[1] أنه قرب قصر العروسين وأن القصر بجانب البطحاء أمكننا أن نقول إن البطحاء هى سوق المنزل الآن وهى بجانب الجامع وأن القصر كان يقع فى أحد جوانب السوق .

بناء السور من (الصخر الجليل من بنيان الأول)[2] ، ولا شك أن الصخور التى بنى بها السور هى آثار بناءات (تاكاب) القديمة ، ولكننا لا ندرى متى أحدث هذا السور الذى يتحدث عنه البكرى مع اعتقادنا أنه حول عن مكانه الأول بسبب توسع المدينة وأنه جدد ورمم مرات ، ولهذا السور ثلاثة أبواب وهو عدد اتفق عليه كل من المقدسى[3] والبكرى[4] ، ولكننا لا نعرف مواقعها من السور إلا واحداً حدد مكانه الورثلانى[5] بأنه (تجاه أبى لبابة بعيدا منه من جهة البحر) ، والبابان الباقيان نقدر بأن أحدهما يتجه إما إلى (جارة) أو إلى جهة (عنبر) ، والثانى شمالى الاتجاه ، لأن هاته الجهات تمتد منها الطرق للأرباض والغابة ، ولم يبق من هذا السور الآن إلا بعض آثار أبوابه التى يعرفها بعض شيوخ البلد حين كانت قائمة الذات وقد هدم وتوزع السكان أحجاره فاستعملوها فى بناء منازلهم ، وتوجد هذه الأحجار الضخمة إلى الآن فى جميع بناءات المدينة وخاصة القديمة منها يستعملونها فى أصول الجدران ، والظاهر أن السور قد تخرب منذ عهد بعيد إلا أنه لم يضمحل تماما إلا أوائل القرن الحالى .

---

(١) الرحلة ص ٩٤ .
(٢) مسالك البكرى ص ١٧ .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .
(٤) المسالك ص ١٧ .
(٥) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

الخندق :

بقى الخندق الذى كان يحمى المدينة ، فلا نشك أنه مجلوب من وادى السيل من نقطة تقع فى الجنوب الغربى من سيدى المشرقى حيث توجد إلى الآن صخور تدل على أن ذلك المكان كان مفتح الخندق ويفتح عند الحاجة كما قال البكرى : « وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شىء » ومكانه من الغرب والجوف حيث مجرى الوادى الآن ، أما جزؤه القبلى فيمتد مع وادى بوشاعة الآن ويتصل بوادى السيل شمالى قصر أولاد الجبالى ماراً بين المنزل وجارة إلا أن هذا الخندق لم نر له ذكرا فى الكتب التى ألفت بعد مسالك البكرى ، ويظهر أنه عطل وانطمس منذ القرن السادس بسبب امتداد أرباض المدينة .

هذه مدينة قابس ذات الواحة الناضرة والمعالم الزاهرة والمصانع والمبانى الفاخرة التى تغنى بجمالها الشعراء والكتاب وحبروا القصائد والفصول الطويلة فى مدحها وذكر مباهجها ومفاخرها ، وخلدوا آثارا فى التشوق والحنين إليها طغت على حنين شعراء الجزيرة لنجد[1] ، قال أحدهم :

لئن كان من قبل التفرق مذهبى ... سوى ما عليه الأشعريون أصفقوا
بأن المسمى غير الإسم فها أنا ... أقول سواء حين جـد التفرق
ألم تر أنى كلما قلت (قابس) ... صفاقيس من جانب القلب يحرق
وإن قلت إن الشمل منها ممزق ... فإن فؤادى عنـد ذاك يمزق

ولكن لا يخلو شىء فى الدنيا من مادح وقادح ولا يسلم الجمال من العين

---

(١) قد مضى شىء مما قيل فى مدح عابتها ، وستأتى نبذ من أقوال الشعراء والكتاب فيما يأتى وخاصة فى تراجمهم بالباب السادس .

الناقدة ولا الجميل من النحس الناكرة ، فإذا كان الناس قد تغالوا فى التمدح بجمال قابس حتى أطلقوا عليها اسم (جنة الدنيا) و (دمشق الصغرى) ، فقد وجد من بينهم المنصف الذى مدح ما يستأهل المدح وعاب ما يستوجب العيب كالتجانى الذى عاب فيها (بيع الفضلات) يستعملونها سماداً للخضر وهو أمر معروف فى جميع الواحات فلا تختص به قابس . . وذكر البكرى من عيوبها كثرة الأوبئة ، وعللها التجانى بوخامة مائها وكثرة عفوناتها وهى أشياء انقطعت الآن والحمد لله بفضل الاحتياطات الصحية والأنظمة العصرية التى أدخلت على مجارى المياه ، وعاب أبو المطرف[1] فى قابس كثرة عقاربها .

وهناك رحالة واحد لم يذكر لقابس حسنة واحدة ، وإنما اقتصر على ذكر عيوبها والتشنيع على البلد وأهله وهو الرحالة العبدرى الذى زارها فى القرن السابع والذى اشتهر فى جميع كتاباته بالإسراع إلى الذم والشتيمة ، فقال عن قابس : « ذات المنظر الخبيث والمحيا العابس ، هواء وخيم ولؤم طبع وخيم . . . إلى عفونات تخبو لقربها المصابيح ، وتمحو بالنحول كل وجه صبيح . . . ودارت به غابة من نخيل قد طلسمت ثمرتها بكف كل بخيل . . . على أن الهواء العفن قد منعها الجفوف . . . الخ » . وهكذا يظهر تحامله من سكوته عن جمال غابتها الذى اتفق الناس على روعته .

---

(١) انظر رسالته فى وصف عقارب قابس فى ترجمته بالباب السادس .

الفصل الثانى

معالم المدينة

قصر العروسين – الجامع الأعظم – عين سلام – المنار – الرباطات وغيرها

قصر العروسين :

من أغرب ما يحكيه التجانى[1] أن المعالم الموجودة بقابس كالعروسين والمنار وعين سلام توجد بنفس أسمائها فى قلعة بنى حماد[2]، ولكنه لم يذكر لنا هل هـذه الأسماء نقلت من القلعة إلى قابس أو العكس وهو الراجح عندنا لأسبقية وجود بعض هذه المعالم قبل وجود القلعة كالمنار وعين سلام .

وقد حدثنا المؤرخون عن موسسى منار وعروسى القلعة ولكنهم سكتوا عن موسس منار قابس واختلفوا فى موسس عروسيها ، فقصر العروسين بالقلعة أسسه الناصر بن علناس بن حماد[3] ، وقد ذكره أبو عبد الله محمد ابن على بن حماد[4] الشاعر الصنهاجى فى رثائه للقلعة ومعالمها إثر خرابها بقوله :

---

(١) الرحلة ص ١١٥ .

(٢) قال عنها معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠ . « مدينة متوسطة لها قلعة عظيمة بناها حماد ابن بلقين على قلة جبل (باقربوست) وليس لها رواء حسن إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع، لكن يحف بها رساتيق ذات غلة وشجر مثمر كالتين والعنب فى جبالها وليس بالكثير . . . وبينها وبين بسكرة مرحلتان وبينها وبين سطيف ثلاث مراحل ، وقد خربت بعد نقل العاصمة إلى بجاية فى عهد المنصور بن الناصر الحمادى سنة ٤٨٣ هـ .

(٣) عاصمته القلعة ، تولى الحكم سنة ٤٥٤ وتوفى ٤٨١ هـ

(٤) محمد بن على بن حماد بن عيسى بن أبى بكر الصنهاجى أصله من قرية (حمزة) –

أين (العروسان) لا رسم ولا طلل ... وأين ما شاد منه القادة الأوَلُ

ومجلس النوم قد هب الزمان له ... بحادث قل فيه الحادث الجلل

وما رسوم (المنار) اليوم ماثلة ... لكنها خبر يجرى بها المثل

وبقوله من قصيدة أخرى .

وقد قام (المنار) على ذراها ... كما قام (العروس) أو الأمير

بناء يزدرى إيوان كسرى ... لديه والخورنق والسدير

أما قصر العروسين بقابس فقد ذكر ابن خلدون[1] أن الذى اختطه هو رافع بن مكى بن كامل بن جامع الرياحى ثانى أمراء بنى جامع بقابس ، ثم نقل عن ابن نخيل أن مؤسسه هو رشيد بن كامل ! وهو ما ذكره التجانى أيضاً حيث قال[2] : « وأهل قابس ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع بن جامع أحد من تملكها منهم : . . وقد وقفت فى بعض أبواب القصر على أسطر كتبت نقشاً فى الحجر نصها : (أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكى بن كامل بن جامع (؟) . فى رجب سنة ٥٠٠ هـ (فإن كان ما يذكره أهل قابس من أن رشيدا هو الذى ابتناه صحيحاً فيكون هذا الباب خاصة هو الذى أمر ببنائه رافع بن مكى . وأخبرنى بعض الطلبة من أهلها أنه وقف لبعض المؤرخين على أن صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا به إلى قدر ثلثيه فأتمه بنو جامع الهلاليون » .

= من أحواز القلعة، وكان من كبراء أئمة العلم بها – قرأ ببجاية والجزائر وتلمسان وولى القضاء فى عدة جهات من المغرب ،وله تآليف كثيرة منها ، شرح مقصورة بن دريد : وتلخيص تاريخ الطبرى ، والنبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة . وتوفى سنة ٦٢٨ هـ (عن عنوان الدراية للغبرينى) .

(١) ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .

(٢) الرحلة ص ٩٥ .

ويظهر أن فى كلام التجانى هذا خطأ تاريخيا وخلطا بين أسماء أمراء بنى جامع لابد من توضيحه هنا ولو أن مناسبته ستأتى فى الباب الخامس إن شاء الله .

يفهم من كلامه أن رافعا قد فتح الباب الذى تحدث عنه بعد بناء رشيد للقصر ، إد لا يعقل أن يفتح الباب ويكتب فوقه اسم مؤسسه والقصر لم يقع تخطيطه بعد ، ومعنى هذا أن ولاية رافع لقابس كانت متأخرة عن ولاية رشيد ، وهو ما لا يتماشى مع ما ذكره المؤرخون ؛ فابن خلدون يذكر[1] أن تميما قد افتك قابس من أخيه عمر سنة ٤٨٩ هـ ثم لم تلبث قابس أن ثارت عليه وتملكها العرب وتولى أمرها منهم مكى بن كامل بن جامع وورثها عنه ابنه رافع بن مكى الذى بنى الباب المشار إليه سنة ٥٠٠هـ ، وهو الذى وقعت الوحشة بينه وبين على بن يحيى الصنهاجى سنة ٥١١ هـ فهاجمه هذا وأخرجه من قابس ليتولى بعده حسب رأى ابن خلدون (رشيد) الذى نسب إليه ابن نخيل والتجانى بناء القصر والذى يحدد ابن الأثير[2] وفاته بسنة ٥٤٢ هـ .

ويستنتج من هذا كله أن نسبة تأسيس القصر للأمير رشيد خطأ إلا أن يكون قد أدخل عليه زيادات ، أما المؤسس الأول للقصر فيمكن أن يكون (رافع بن مكى) ويمكن أن يكون الولاة الصنهاجيون وهو ما نرجحه للأسباب التالية .

١ ــ لأن عصر المعز الصنهاجى كان عصر تبحر العمران وفيض الخيرات والبذخ فلا بد أن يكون ولاته على غراره ؛

---

(١) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب – الفصل الخاص ببنى جامع .

(٢) الكامل ج ٩ ص ١٦ .

٢ — لأن الصنهاجيين كانوا أقرب من الهلاليين لسلوك سبل المدنية والحضارة فى الملبس والمسكن والسيرة يدل على ذلك قصة (طائر السمندو) التى ذكرها البكرى والتى ستأتى الإشارة إليها فى الباب الخامس .

٣ — ما ذكره التجانى رواية عن بعض الطلبة من أن القصر من بناء الصنهاجيين وأن بنى جامع أكملوا بناء نحو ثلثه فقط .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بنسبة تأسيس القصر للصنهاجيين وجاء بنو جامع فأكملوه على كرات ، أى أن (رافعا) قد أتم البناء الأول وأضاف إليه رشيد بعد ذلك إضافات .

بقى موقع هذا القصر ، فمن المحقق أنه كان بجانب (سوق المنزل) فى الجهة المقابلة للجامع كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، والظاهر حسب أقوال المؤرخين أن القصر كان على غاية من الترف والبذخ والزينة والتحصين أيضاً ، فإن التجانى الذى رآه وقد دب فيه الهرم (قد استولى الخراب فى وقتنا هذا على القصبة وعليه)[1] يصفه بأنه : (المبنى المشتهر المعروف بالعروسين الذى لا يرى مثله ظرفا وحسنا)[2] .

وقد بقى هذا القصر معروفا إلى نهاية القرن الثامن ، إذ نجد ذكره فى حوادث عبد الوهاب بن مكى وعمه يحيى حوالى ٧٩٠ هـ ويظهر أن آثاره لم تندرس إلا فى القرن التاسع إثر انقضاء عهد استقلال قابس بانقراض بنى مكى بعد ما بقى هذا القصر من أضخم المعالم بقابس مدة أربعة قرون تقريبا .

الجامع :

أما جامع مدينة قابس فقد سبق لنا تحديد مكانه قبل هذا وقد وصفه

---

(١) الرحلة ص ٩٥ .
(٢) انظر الباب الخامس .

البكرى(١) بأنه (جامع سرى) ووصفه التجانى(٢) بأنه (مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه) وبأنه يقع على مقربة من قصر العروسين .

البطحاء :

من معالم المدينة التى تغنى بها الشعراء :

قال فيها أبو عبد الله محمد بن العطار القرطبي(٣) :

لهفى على طيب ليـال خلت ... بجانب (البطحاء) من (قابس)

كأن قلبى عنـد تذكارهـا ... جذوة نار فى يدى قابس

ويؤخذ من كلام التجانى(٤) أن الجامع كان مطلا عليها وأنها كانت فى (سرة قابس) أى قلب المدينة حيث قال متحدثاً عن نزوله بدار عبد الملك ابن مكى(٥) : « ودار ابن مكى هـذه مجاورة لجامع قابس الأعظم ببطحاء متسعة وتلك البطحاء هى قابس والبطحاء اسم علم لها » .

---

(١) البكرى ص ١٧ .

(٢) الرحلة ص ٩٤ .

(٣) وصفه المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٤ نقلا عن ابن سعد « هو حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع مازجته بالإسكندرية وبهذه الحضرة العلية وما زال يدين بالانفراد والتجول فى البلاد حتى قضى مناه وألقى بهذه المدينة عصاه لا يخطر له بال ولا يبيت إلا على وعد من وصال » قال المقرى : ويعنى - والله أعلم بقوله (بهذه الحضرة العلية) ، حضرة تونس المحروسة ، ويظهر أنه قال هذين البيتين فى (قابس) فى زيارة قام بها إليها أثناء إقامته بتونس . ومن شعر ابن العطار الرائق القطعة الآتية المنشورة بـ (القدح المعلى) لابن سعيد ص ٢١٦ ط مصر :

ألا يا سـاقى الخمـر ... أدر صفـراء كالتبر

وقم يا بدر فاجل الشمـ ... ـس بين الأنجم الزهـر

فإن الصبح قـد أبدى ... لنا عن صـفحة البشر

وقـد أيقظت الأندا ... ء فيـه أعين الزهـر

ودر الطـل منـظوم ... بجيـد الغصـن النضر

(٤) الرحلة ص ١٧٨ .

(٥) انظر الحديث عن عبد الملك هذا فى الباب الخامس .

المقبرة :

ونعنى بها المقبرة القديمة المشهورة بمقبرة سيدى مرزوق ، وتقع شرقى بلدة المنزل القديمة ومن طرفها الغربى يطل عليها مسجد (سيدى بو على) الذى تحدثنا عنه سابقاً ، وتشرف عليها من الشرق مدرسة المنزل الابتدائية ، ويحدها طريق (المنزل — جارة) من الشمال ، أما من القبلة فتمتد إلى مسافة شاسعة .

وقد تركت هذه المقبرة منذ زمان بعيد وأهمل أمرها ، وطمست آثار قبورها ، وسويت بعض جهاتها ، وفتحت فيها طرقات جديدة تربط بين جهات بلدة المنزل المتناثرة ، ولا يزال كثير من قبورها مدفونة تحت التراب ، وليس بالإمكان أن نحدد الزمن الذى وقع فيه إهمالها ، وكل ما استطعنا معرفته من آثارها أننا اطلعنا على بعض رخامات (قبريات) مكتوبة وجدت مدفونة تحت التراب يرجع تاريخها إلى القرن السابع للهجرة ، بعضها محفوظ بجامع المنزل وبعضها عند السيد الهادى العمرانى شيخ المنزل .

وحدثنى أستاذى حسن عبد الوهاب أنه رأى سنة ١٩١٢ بسور حديقة المراقبة المدنية رخامات كتب عليها بالخط الكوفى تدل على أنها كانت على قبور بعض أمراء بنى جامع الذين دفنوا بقابس ، ولا شك أن هذه الرخامات منقولة من المقبرة المذكورة .

عين سلام وعين الأمير :

يقول التجانى[1] : « من المكاره التى حفت بها جنة قابس ما يتعاهدها

---

(١) الرحلة ص ٨٩ .

وينتاب ساكنها من الأمراض ، وسبب ذلك فيما يذكر أهلها كثرة شجرة الدفلى بها فيكتسب الماء منها لدى جريه سمية ومرارة تضر بأبدان ساكنها كثيراً ، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة . . . . :

« وليس فى جميع مياهها ما يسلم من ذلك إلا العين المعروفة بعين الأمير والعين الأخرى المعروفة بعين سلام ، فإن ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على الدفلى ، والأولى منهما منسوبة للأمير الأزدى المعروف بابن الصغير[1] ، وأما الثانية فالمشهور فى اسمها عين سلام باللام مخففة ، وهى إنما توجد فى عقودهم القديمة عين سنام بالنون » .

ويتضح من كلمة التجانى هذه أن عين سلام معروفة من قبل القرن الثامن الذى زار فيه قابس بزمان طويل وأنها كانت تسمى (عين سنام) بالنون ، وأن شهرتها باللام فى عصره إنما هى تحريف للاسم القديم ، وقد كنا أشرنا إلى وجود (عين سلام) ثانية بقلعة بنى حماد ورجحنا هناك أن اسمها منقول من اسم عين قابس ، وقد يكون الناقل لأسماء معالم قابس إلى القلعة أحد الأمراء الصنهاجيين الذين عرفوا قابس قبل انتقالهم إلى القلعة ، وإذا صح هذا التكهن ، مع ملاحظة أن القلعة ظهرت شهرتها فى القرن الخامس للهجرة وقدرنا أن اسم (عين سلام) بالقلعة ظهر فى هذا القرن ، إذا صح هذا التكهن فإن (عين سلام) بقابس كانت معروفة بهذا الاسم

---

(١) لم نعثر على ترجمته فى المراجع التى بين أيدينا ، ولعله كان أحد الأمراء الذين تولوا الخطط فى قابس ، كما أننا لم نعثر على أثر لهذا الاسم فى العائلات ولا على التاريخ الذى وحد فيه هذا الأمير وفى صائفة ١٩٥٨ عثرت على حجر (قبرية) محفوظ بجامع المنزل كان نزع من ماجل الجامع عليه كتابة طمس أولها وبقى منها محمد بن أبى العرب الأزدى توفى رحمه الله فى شوال سنة سبع وستمائة . ولست أدرى إذا كان يصح التكهن بأن صاحب القبر قد يكون من عائلة الأمير الأزدى الملقب بابن الصغير والمنسوبة إليه عين الأمير .

منذ القرن الرابع وأن العقود القديمة التى يشير إليها التجانى قد يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الرابع ، بل نكاد نتوقع أن هذه العين كانت موجودة ومعروفة قبل الإسلام ، ويساعدنا على هذا التكهن موقع منبعها الذى يوجد فى البطحاء الواسعة المجاورة لاخناعة طريق مطاطة المعبد الصادر من قابس نحو اليمين قبل وصوله لثكنة الجيش المعروفة بثكنة سيدى أبى لبابة ، وهذا الموضع يقع قرب ربوة (خزنة الماء) حيث رجحنا أن تكون المدينة القديمة (تاكاب) ، وكنا أشرنا سابقاً أيضاً أن المدينة القديمة ربما كان يستقى بعضها على الأقل من هذه العين إذا صح قدم وجودها .

و (عين سلام) الموجودة بقلعة بنى حماد تقع قرب القلعة بالوادى المعروف بـ (وادى جراوة)[1] ، وقد ذكرها أبو عبد الله محمد بن على ابن حماد الذى مر ذكره فى شعره فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى الجوا ما بين تلك الجداول
وهل أردن (عين سلام) على الصدى فأبرد من حر الضلوع النواحل

وقال :

على (عين سلام) سلام صب غـذاه ماؤها العـذب النمير
تأود أيكها وجرت صـباها وشم لهـا كما فتق العبير
وأبرد ما يكون المـاء فيهـا وأندى حين يحتـدم الهجير
وما أدرى أيجرى فوق در ؟ أم ابتسمت بمنبعها الثغور ؟

هذا ماء (عين سلام) القلعة ؛ أما ماء عين سلام قابس فليس بعذب ولكنه أحسن طعماً وأخف شرباً من عين الوادى ، وما زالت العين جارية فى قنوات مطموسة تحت الأرض يشرب منها الناس إلى اليوم .

---

(١) رحلة التجانى ص ١١٥ .

أما عين الأمير فلا أثر لها اليوم ، ولا ندرى متى طمست ولا يعرف أحد موقعها ، وإنما يرجح بعض أهل قابس أنها كانت قرب مكان عين سلام ، وقد تكون منبعاً ثانياً لعين سلام سُمِّيَ باسم الأمير . ولا نشك أن هذا النبع قد ظهر بعد عين سلام برمان طويل ثم طمس أثره وبقى المنبع الأصلى .

المنار — أو المنارة :

ما زالت آثار أحجـــاره شاهدة على الربوة الواقعة غربى (زريق الدخلانية) جنوبى قابس ، ولا نعرف تاريخ تأسيسه ولكننا نعرف أنه كان (مناراً مرتفعاً يظهر للآتى من جهة المشرق قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة)[1] ، وكان فى عصر البكرى (القرن الخامس) ذا شهرة عظيمة يتغنى به حداة القوافل خلف إبلهم المحملة فيقولون[2] :

لا نوم ، لا نوم ولا قرارا   حتى أرى قابس والمارا

وقد أخبر التجانى حين زار قابس سنة ٧٠٦ هـ بأن المار (سقط فلم يبق له أثر)[3] .

ومن الغريب أن يجور الدهر على سميه وشبيهه (منار قلعة بنى حماد) بمثل ما جار عليه فيضمحل بعد شموخ ، وينطمس بعد شهرة ، فيندبه شاعر القلعة أبو عبد الله بن حماد المار ذكره بقوله :

وما رسوم المنـــار اليوم ماثلة   لكنها نبـــذ يجرى بها المثـــل

ويصفه بقوله :

وانظر طيقان المنـــار مطلة   على الوجنات الزاهرات الخمائل

كأن القباب المشرقات بأفقه   نجوم تبـــدت فى سعود المنازل

---

(١) رحلة التجانى ٩٤ .

(٢) المسالك ص ١٧

(٣) الرحلة ص ٩٤ .

لكن منار قابس الذى تغنى به الحداة القدماء لم يجد من يندب آثاره ويخلد لنا شهرته واعتباره .

الرباطات :

من المعروف أن الأغالبة كانوا أبرز الأسر الحاكمة التى تركت بإفريقية آثاراً من الحصون والرباطات والمصانع والمعالم العمرانية ما خلده لهم الدهر ، وفى مقدمتهم الأمير أبو إبراهيم أحمد الأغلبى (٢٤٢ – ٢٤٩ هـ) الذى انتظمت على عهده الحصون والرباطات البحرية على شاطئ البحر من آخر حدود مملكته الغربية إلى حدود برقة ، وكانت هذه الرباطات تتقارب مسافاتها بحيث تستطيع إيصال الإنذار بالخطر إلى بعضها فى ساعات قليلة بواسطة الأضواء الملونة ، ومن هــــذه الرباطات ما كان على ساحل قابس وما جاورها ، فنجد فى الإدريسى مثلا اسم (قصر ابن عيشون) على ثمانية أميال من قابس جنوباً وعلى ثمانية أميال للجنوب منه (قصر زجونة) .

أما على شاطئ مدينة قابس فنجد رباطاً سماه الغبرينى[1] (مسجد الصهريج) كان يرابط به العلماء والنساك ويتعبدون به ، وذكر لنا من بين من رابطوا فى هذا المسجد (أبا الحسن على النميرى الششترى) الصوفى الزاهد تلميذ (ابن سبعين)[2] .

قال الغبرينى[3] : « من مناقبه . لما نزل بقابس برباط البحر المعروف بمسجد الصهريج جاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الورقانى[4] للزيارة فوجد

---

(١) أبو العباس أحمد الغبرينى مؤلف كتاب (عنوان الدراية فى من عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية) .

(٢) انظر ترجمته فى الباب السادس .

(٣) عنوان الدراية ص ١٤١ .

(٤) انظر الحديث عنه فى الباب السادس .

الشيخ خرج فى خلوة وانتظره حتى دخل وسلم ، وعليه أثر البكاء وطلب مداداً وكتب فى اللوح .

لا تلتفت بالله يا ناظرى	لا هيف كالغصن الناضر
يا قلب واصرف عنك وهم البقا	وخل عن سرب حمى حاجر
ما السرب ، ما البان وما لعلع	ما الخيف ، ما ظبي بنى عامر
جمــال من سميتــه دائر	ما حاجة العاقــل بالدائر
وإنمــا مطلبــه فى الذى	هام الورى فى جنسه الباهر
فالشعب والعبر لمثلي ألا	أنى من أجل الأول الآخر
أفاد للشمس سنى كالذى	أعــاره للقمــر الزاهر
أصبحت فيه مغرماً حائراً	لله در المغــرم الحــائر » .

ولم يبق لهذا الرباط أثر ، ونجهل لحد الآن مكانه ، ولعله يكون على ساحل المرفأ البحرى قرب مصب الوادى ، وظن بعض الباحثين أنه ربما كان فى مكان زاوية سيدى أبى إسحاق بظهرة قراوش شرقى سوق جارة الآن نظراً لأن أبا إسحاق نفسه كان يتعبد فى هذا المسجد ، ولكننا نستبعد أن تكون ظهرة قراوش هى مكان الرباط القديم نظراً لوجود بساتين النخيل بين الزاوية وبين البحر ، والمعروف أن الرباطات إنما تجعل لحراسة الشواطئ بحيث لا يفصلها شيء عن البحر .

قصر سجة :

قال عنه الإدريسى[1] : « ولها واد يأتيها من غدير كبير وعلى هذا الغدير (قصر سجة) وبينه وبين قابس ثلاثة أميال » . ويفهم من هذا النعت أن القصر كان عند (رأس الوادى) وهناك آثار أحجار مبعثرة ربما كانت بقايا بناء قديم اضمحل وكدت أتوهم أنها آثار القصر ولكن

---

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

الأحجار دلت على أنها من بناء حديث لأنها من النوع المستعمل فى الأكواخ والبناء الخفيف ، وإذا صح وجود بناء هناك فهو بلا ريب من آثار الجيش الفرنسى الذى نزل فى ذلك المكان عام الاحتلال (١٨٨١ م) حين أظهرت قابس المقاومة . قالت دائرة المعارف الإسلامية : « على أثر رمى صفاقس بالقنابل توجهت على جناح السرعة قوات فرنسية إلى مدينة قابس . . . وأقامت مركزاً عسكرياً برأس الوادى لحراسته والسيطرة عليه ، لأن مياهه هى التى تعيش منها الواحة » .

وعلى كل فإننا لا نشك أن قصر سجة كان بذلك المكان وكان القصد من إقامته هناك حراسة منبع المياه .

الفصل الثالث

اقتصاديات المدينة

الزراعة — الصناعة — التجارة

الزراعة :

كنا أشرنا فى الفصل الثانى من الباب الأول إلى ما تنتجه غابة قابس من غلات وتعرضنا هناك بالخصوص إلى الحرير والموز والزيت والرمان الخ .. ونضيف هنا إلى ما سلف زراعة الحبوب التى تدر على قابس ما يفى بحاجتها وأكثر أحيانا ؛

وحقول الحبوب المعروفة اليوم هى السفوح والسهول الغربية الممتدة إلى ما وراء (سيدى قناوى) غربا ومنه جوفا الروابى المطلة على بلدة الحامة من الجنوب وعلى كامل السهل الممتد على جانبى طريق قابس — مطماطة وبعض الحقول القبلية المتناثرة مع طريق مدنين خارج الواحات المنتشرة فى هذه الجهة ؛

والملاحظ أن أكثر واردات الحبوب تأتى من السهول الزراعية الشمالية الممتدة وراء جبل (خنقة عيشة) إلى حدود قفصة ومن أراضى (الحامة) كسهول (شانشو) بينها وبين قابس وجهات جبل (السق) ، وقد عرفت هذه الجهة بزراعة الحبوب منذ القديم ولا تزال لحد الآن تتبع الطرق القديمة فى الحرث والحصاد ، فالحراثة تقع بواسطة الجمال والخيل ؛ والحصاد بواسطة (المنجل) ، وقد ظهرت بوادر فى الأعوام الأخيرة للآلات الميكانيكية فى (الحرث والحصاد والدرس) لكنها قليلة والظاهر أن ندرة الأمطار بالجهة هى التى أخرت ظهور الوسائل الحديثة

فى الزراعة إلى اليوم ، فالأراضى هناك كريمة جدا تضرب فى سنوات الخصب أرقاما خيالية فى نتاج الحبوب ، ولكن هذا لا يحصل إلا فى كل خمس سنوات مرة تقريبا وبقية الأعوام إما مجدبة أو ضئيلة النتاج بسبب قلة الأمطار .

ولا تعرف هذه الجهة لحد الآن من أنواع الحبوب أكثر من القمح والشعير ، وأغلبية أراضى الحبوب يملكها سكان أحواز قابس وتصريف نتاجها يقع فى أسواق قابس والقرى التابعة لولايتها .

وتتبع زراعة الحبوب تربية الحيوان فجهات قابس صالحة لتربية الحيوان حيث توجد قطعان عظيمة من الغنم والمعز ، أما بقية أنواع الحيوان فقليلة . وتصدر هذه الجهة كمية وافرة من الأغنام لأسواق اللحم بالمدن الداخلية ، ولحم خروف ودران[1] من أشهر اللحوم المرغوبة فى الأسواق التونسية .

الصناعة :

وكنا أشرنا أيضا إلى صناعة الحرير وعصر الزيت بقابس فى الباب الأول ، وبقى من الصناعات المشهورة فى قابس منذ القدم صناعة (دبغ الجلود) التى أشار لها ابن حوقل بقوله[2] : « ولها أسواق وجهاز كثير ويعمل بها الحرير وتدبغ بها الجلود » . وأشار الإدريسى إلى أن قابس كانت تصدر هذه الصناعة للخارج فقال[3] : « وبها الآن[4] مدابغ للجلود ويتجهز بها منها » .

(١) مرعى خصيب بالجهات الشمالية من قابس .
(٢) المسالك ص ٤٧ .
(٣) نزهة المشتاق ص١٠٦ .
(٤) حوالى منتصف القرن السادس .

ولا ندرى إذا كانت هذه الصناعة قديمة العهد وسابقة للإسلام أم أدخلها المسلمون ؟ ؛

وعلى كل فقد كانت مزدهرة فى القرن السادس وكانت من جملة الصناعات التى تستوردها البلدان الأخرى من قابس .

والظاهر أن المدابغ كانت بأرباض المدينة وأن عملها قد تعطل أو ضعف إنتاجه فى القرن الثامن ، إذ لم يشر إليها أحد بعد الإدريسى وعلى الأخص التجانى الذى عودنا بالإشارة إلى جميع الصناعات المشهورة ، وقد انقطعت هذه الصناعة الآن ولم يبق لها أثر .

ومن الصناعات القديمة التى استمر وجودها إلى اليوم وتطورت وتحسنت أساليبها المنسوجات الصوفية كالبطانية والفراشية والكليم والمرقوم والزربية ، فهذه الصناعات منتشرة فى قابس والمطوية ووذرف إلى اليوم وأنواعها مرغوب فيها فى جميع الأسواق .

وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى جودة المنسوجات الصوفية بقابس من قديم إلا أن أساليب صناعتها وآلاتها لم تتغير ، فما زالت تصنع حسب الطرق القديمة بواسطة (المنسج) العادى ، وهى صناعة تكاد تكون خاصة بالنساء ، وقد جعلت الحكومة هذه الصناعات من بين مواد التعليم (بمركز التكوين الصناعى للبنات) وعلى الأخص صناعة الزربية .

وفى المدة الأخيرة دخلت صناعة تصبير الأسماك إلى قابس بتأسيس مصنع حديث لهذا الغرض لا يزل فى بدايته .

التجاره :

أما التجارة فقد كنا أشرنا إلى أهمية مركز قابس التجارى قديما وحديثا وخصصنا بالذكر حركة المرفأ البحرى وحركة سوق الرقيق قديما .

وهذه الأهمية التجارية قد لاحظها كل من كتب عن هذه المدينة من المؤرخين والرحالين فقال (Gsell) فى تاريخ إفريقيا الشمالية القديم[١]: « وعلى الخليج سوق كبيرة يطلق عليها فى المخطوطات تا كاب وتا كابس » ووصفها بالسوق الكبيرة لأهمية مركزها التجارى .

ويقول ابن حوقل[٢] : « ولها أسواق وجهاز كثير .... وينتابها التجار » ويقول الإدريسى[٣] : « ولها أسواق وعمارات وتجارات وبضاعات » .

وغير هذا من الأقوال الدالة على أهميتها التجارية التى استمرت إلى اليوم . واشتهرت أسواق قابس فى هذا العهد بأن جميع أنواع البضاعات الموجودة فيها تعرض بأثمان أقل وأزهد من أثمان أسواق العاصمة نفسها سواء البضاعات المحلية أو المستوردة .

أما تجارتها اليوم فى المنسوجات الصوفية ، والحبوب ، والغلال ، والخضر ، والتمور ، والموز ، والحناء ، والمواشى ، ونتاجها من لحم وصوف وشعر ووبر والأسماك المجففة والمصبرة ، وأكثر صادراتها من المواشى ونتاجها ، والمنسوجات الصوفية ، والموز ، والحناء ، والسمك الصغير المجفف المعروف بـ (الوزف) .

---

(١) ج ٤ ص ٢٤٧ . (٢) المسالك ص ٤٧ .
(٣) نزهة المشتاق ص ١٠٦ .

الفصل الرابع

المدينة الحديثة

أقسامها — أسواقها — عدد سكانها — مراكز السلطة — المدارس

قد اتسعت مدينة قابس فى العهد الأخير اتساعا كبيراً وامتدت دورها إلى الجنوب والشرق وغطت البناءات الحديثة مساحات شاسعة كانت إلى سنة ۱۹۳۰ أراضى فضاء تنبت الحشائش والأعشاب شتاء وتتجرد منها صيفا فتغدو ترابا دقاقا تحثوه الرياح على المدينة فيضفى عليها علالة من الغبار الأبيض الرطب المضجر .

كانت المدينة قبل سنة ۱۹۳۰ تنحصر فى (المنزل) وبناءاته حوالى سوقه وتناثرت منه بعض المنازل القليلة قرب (عين سلام) وفى (جارة) وبناءاتها حول سوقها لا تتجاوز غربا (قصر أولاد الجبالى) وشرقا (ظهرة قراوش) وتمتد جنوبا إلى قرب محطة القطار وفى الحى الحديث المسمى (باب البحر) ويبتدى من جارة غربا وينتهى شرقى (نزل الاتلانتيك) أما اليوم فقد كثرت البناءات بالجهة القبلية من المنزل فامتدت إلى ضاحية عين سلام والقهباية ، ووصلت بناءات هذين المكانين قبلة إلى سيدى أبى لبابة ، ثم امتدت بين الغابة وطريق مطماطة حتى الثكنة العسكرية وامتد البناء شرقا فأحاط بمحطة القطارات من الجنوب وتمططت بناءات الحى الحديث جنوبا فوصلت (محطة الطائرات) وشرقا حتى شاطئ البحر .

وهكذا أصبحت المدينة مستطيلة الشكل تحدها الغابة من الغرب والشمال والبحر من الشرق ومن الجنوب خط يبتدئ من طريق مطماطة غربى ضريح أبى لبابة شرقا فى موازاة واحة (شننش) حتى البحر .

أقسامها وأسواقها :

وتنقسم اليوم إلى أربعة أقسام : المنزل وجارة والحى الحديث وسيدى أبي لبابة ، والقسم الأخير يشمل ما يسمى بـ (عين سلام) و (القصباية) ، وهذا القسم خارج اليوم[1] عن المنطقة البلدية ، وقد وقع التفكير فى ضمه قريبا ، وفى المدينة أسواق قديمة وحديثة ، فهناك سوقان قديمتان إحداهما بالمنزل والأخرى بجارة ، وكلاهما عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بها من الجهات الأربع الدكاكين التى تبيع مختلف السلع ، وفى الساحة الوسطى ينصب التجار سلعهم فى أكداس على الأرض وفوق الموائد من الحبوب والخضر والسمك واللحوم والأقمشة الخ ، وفى أحد مداخل السوق ينصب تجار المنسوجات الصوفية التى تباع بواسطة (الدلال) — مزايدة علنية ، وتقتسم السوقان أيام الأسبوع فيجتمع الناس فى كل منهما ثلاثة أيام من الأسبوع ويوم الجمعة يوم راحة للسوقين ، والحركة التجارية فى هاتين السوقين عظيمة جدا لكثرة الواردين عليهما من كامل جهات الجنوب من نفزاوة إلى بنقردان .

وفى ساحة كبرى بين السوقين تنتصب سوق الحيوان فتجتمع فيها عادة الإبل والغنم وذوات الحافر ، وقد نقلت هذه السوق الآن من تلك الساحة ، و الحى الحديث سوق مركزية للخضر والغلال حديثة الوجود ، هذا عدا الدكاكين التجارية المنتشرة فى كامل المدينة .

سكانها :

وسكان المنطقة البلدية وحدها يعدون خمسة وعشرين ألفا حسب

---

(١) أوت ١٩٥٩ .

الإحصائية الأخيرة (١٩٥٧) ويعد القسم الخارج عن المنطقة نحو خمسة آلاف ساكن ، فجملة سكان قابس الحديثة ثلاثون ألفا تقريبا .

مراكز السلطة :

وفى المدينة مركز ولاية الأعراض الذى حل محل المراقبة المدنية الفرنسية السابقة وإدارة العمل معا ، وتتبع نظر الولاية معتمديات الحامة ومطماطة ومارث والمطوية وقبلى ودوز ، وكانت مطماطة قبل الاستقلال عملا مستقلا عن قابس كما كانت تتبعه أيضا معتمدية جربة التى أضيفت فى هذا العام (١٩٥٩) إلى ولاية مدنين ، وأضيفت لقابس معتمديتا قبلى ودوز إثر طرح ولاية توزر . وبقابس مجلس عدلى تتفرع منه محاكم نواحى قارة فى مطماطة والحامة ومدنين وتطاوين وجرجيس وبنقردان وجربة ومحاكم نواحى دورية فى عدة جهات أخرى ، وفيها أيضا مركز للبوليس وثان للحرس الوطنى ومركز هام للجيش التونسى فيه قيادة مراكز الجنوب كلها .

مدارسها :

أما المدارس فى قابس فمنتشرة فى المدينة وأحوازها والمعتمديات التابعة لها . ويهمنا أن نذكر فيما يلى المدارس الخاصة بقابس وأحوازها حسب إحصائية أفريل ١٩٥٩ ، ففى قابس وأحوازها ٢٥ مدرسة منها ثمانية بالمدينة وبها ٨ أقسام تكميلية ومدرستان للتكوين الصناعى إحداهما للذكور والأخرى للبنات ، ومدرسة ثانوية زيتونية(١) وفى هذه المدارس (٧٧٧٩) سبعة آلاف وسبعمائة وتسعة وسبعون تلميذاً يتفرعون كما يلى :

---

(١) أغلقت هذه الثانوية أخيراً تبعاً لتوحيد مناهج التعليم وعوضت بثانوية قابس الجديدة (ليسى) .

بالمدارس الابتدائية لمدينة قابس	٤٨٦٢	تلميذاً
بالمدارس الابتدائية لأحواز المدينة	٢١٥٢	»
بالأقسام التكميلية	١٩٧	»
بمدرستى التكوين الصناعى	٤١٦	»
بالثانوية الزيتونية	١٥٢	»

ومائة وثمانية وستون معلما ومعلمة وأستاذا (١٦٨) يتفرعون كما يلى:

بمدارس قابس وأحوازها	١٢٩
بمركز التكوين الصناعى	١٧
بالأقسام التكميلية	٨
بالثانوية الزيتونية[1]	١٤

وحركة التعليم فى تقدم وتطور مستمر بحيث نستطيع أن نقول إن الأرقام المذكورة زادت فى الثلاثة أعوام الأخيرة بنسبة لا تقل عن ثلاثين بالمائة .

(١) أغلقت هذه الثانوية أخيراً تبعاً لتوحيد مناهج التعليم وعوضت بثانوية قابس الجديدة (ليسى)

الفصل الخامس

احواز قابس

ليس فى الإمكان أن نتعرض هنا للحديث عن أحواز قابس بالتفصيل وتحقق تطورات هذه القرى المنتشرة حولها عمرانيا وسياسيا فهذا يقتضى تأليفاً خاصا ؛ فإن لبعض هذه الأحواز أحداثا تاريخية هامة سوف نشير إلى بعضها عرضا فى الباب الخامس ، ولكننا سنقتصر على بيان موقعها وسكانها وحالتها الاقتصادية وتحقيق بعض الأشياء التى رأينا من المناسب إضافتها لهذا الباب ، ثم إننا اقتصرنا على ذكر بعض القرى التى لا تبعد عن المدينة أكثر من ثلاثين ك . م تقريبا والتى تكون حياتها العامة أكثر ارتباطا بمدينة قابس .

وهذه القرى تمتد مع الطرقات العامة الخارجة من قابس من ثلاث جهات ، فمن الجهة الشمالية :

١ — غنوش :

على نحو ستة ك م من قابس ، وهى قرية حديثة ذات غابة من النخيل كثيفة تقع على شاطئ البحر تفصل بينهما سبخة تنتشر فيها مذانب من مياه البحر زمن المد ، وقد اتسعت غابتها إلى الجنوب حتى اقتربت من غابة قابس ، وسكانها خليط من البربر والعرب ، غنانشة ، ومهاذبة ، وحزم ، ويوجد بعضهم خارج قرية غنوش فى سيدى مهذب ووادى المالح ، الخ[1] .

---

(١) اعتمدنا فى أسماء العروش والأحياء فى هذا وفيما يأتى على السكان وعلى كتاب الم روا م المطبوع سنة ١٩٠٠ . (Les Tribus tunisiennes)

٢ — المطوية :

مركز معتمدية ، وتبعدعن قابس نحو ١٢ ك م ، وبها غابة نخيل جميلة وموقعها بين البحر والجبل والسهول الزراعية وجوها صحي ، وتستقى من عين قديمة تسمى عندهم إلى اليوم (بالعين القديمة)[1] ، وتعرف عند سكان الضواحي بـ (عين المطوية) وتقع هذه العين بالجهة الغربية من البلد بجانب الطريق ؟

ويحكى السكان عن وجه تسميتها أن هذه العين كانت ممرسا للقوافل التجارية الراحلة بين قابس والقيروان فندت يوما ناقة من إحدى القوافل وقصدت العين لتشرب منها فغرقت فيها فسميت العين (عين المطية) ، ثم حرفت بعد ذلك فأصبحت (عين المطوية) ، ويزعم بعض السكان أن هذا الاسم مأخوذ من الطي أو الانطواء ، وذلك أن ماء العين ينبع من الأرض ويدور حول نفسه فتراه كأنه ينطوى على نفسه فسميت (العين المطوية) ، إلى آخر هذه التعليلات والتعلات وأصل عمرانها غير معروف إلا أن أقدم الرسوم التى عثر عليها لدى السكان يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الهجرى ، ويقول أهل البلد أنه أثناء هذا القرن أوالذي قبله مرت قافلة بالمكان فأعجبها موقعه فنزلت به وعمرته .

وتنقسم البلدة اليوم إلى محلتين (المطوية — والماية) ، ويرجعون نسبهم إلى سيدى مبارك وزاويته معروفة بين المطوية والعوينات ، وتتفرع المحلتان إلى عروش :

الأحمدين — ومنهم : السوالم والحنايرة — والبكاكشة — والشوامخ — وأولاد رجب .

---

(١) انظر الحديث عن عين الزيتونة عند ذكر ضاحية (العوينات) .

الشرفاء : ومنهم أولاد عبد الرحيم — أولاد عبد القادر — وأولاد مبارك .

المراشدة : ومنهم الحوامد — والعتايدة .

البنينات : ومنهم أولاد بوسعادة — والدهامنة .

المابة : ومنهم العبايدة — والمهاذبة — وأولاد يحيى — والحنانشة — وكلهم يسكنون (المطوية) و (سيدى مهذب) .

وللمطوية شهرة واسعة فى إنتاج المنسوجات الصوفية المتينة والمزركشة بالألوان ، كالكليم ، والمرقوم ، والبطانية . . الخ .

وسكان البلد أهل نشاط وحزم ، نزح فريق كبير منهم للعاصمة وأكثر اشتغالهم بالتجارة والنقل والمقاولات .

٣ — وذرف :

قرية صغيرة على رمية سهم من (المطوية) وتكاد تعتبر جزءاً منها ، وهناك شبه عظيم بين السكان فى الحزم والنشاط وفى الاشتغال بالتجارة والمقاولات ، وتنتج نفس ما تنتجه المطوية .

ويتفرع سكانها إلى عروش : أولاد حميد — والتايمة — وأولاد التومى — والتبايبة — والشتاتوية — وكلهم يسكنون وذرف والميدة ولا يعرف أحد وجه تسميتها ولا الزمن الذى عمرت فيه ، إلا أننا لانستبعد أن عمرانها كان فى نفس الوقت الذى عمرت فيه المطوية .

وقد عثرنا على ذكر (ذرف) فى رحلة التجانى فوصفها بأنها[1] « منزل فيه نخيلات قليلة ، وعيون ماء جارية وقصر متسع يعرف بوذرف ، وفى هذا

---

(١) ص ٨٦ .

الموضع يقول أبو عبد الله محمد بن محمد المزدورى الهنتاتى أيام اضطرته الحال إلى الخروج من تونس والسكنى بتلك الجهات . .

هذى عيون (وذرف) دع العيون تدرف
بدلت من أرضى بها وا أسفى وا أسفى »

٤ — العوينات :

واحة نخل جميلة تقع فى منحدر من الأرض على بعد نحو ١٨ ك م شمالى قابس وبينها وبين البحر سبخة أو بحر ميت — كما يقول القدماء — تشقها السكة الحديدية الرابطة بين قابس وصفاقس ، وبطرفها من جهة البر ثكنة عسكرية كبيرة أسسها الفرنسيون أيام احتلالهم .

وقد عثرت فى كتب الرحالين القدماء على ذكر (عين الزيتونة) وعينوا مكانها بأنها على مرحلة شمالى قابس ، وكنت ظننت أنها هى (عين المطوية) إلا أن الوصف الذى ذكره البكرى فى مسالكه[1] أكثر مناسبة لواحة (العوينات أو العوينة) حيث قال . عين جارية على بحر ميت ، عليها مرصد لجانى إفريقية[2] ، وهى عين مذكورة فى حدثان إفريقية ، قال ابن أعقب فى أرجوزته التى يذكر فيها وقائع إفريقية .

عند حلول الجيش بالزيتونة تكن هناك الوقعة الملعونة

وقال (ابن خرداذبة)[3] . إنها على مسافة ١٣ ميلا من قابس وسماها (بئر الزيتونة) .

وسماها اليعقوبى (عين الزيتونة) وقال إنها غير آهلة[4] .

---

(١) ص ١٩ . (٢) لم يبق أثر اليوم لهذا المرصد
(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨٦ .
(٤) البلدان ص ١٠٥ .

ومن الجهة القبلية :

١ — تبلبو :

واحة صغيرة على ٧ ك م من قابس ، تقع شرق ربوة المنار وقبلى (زريق الدخلانية) وغابتها نخل وزيتون ، ويسكنها اليوم عروش القواسم : والشرابكة — وأولا مبارك — والحنانشة — والعيايدة — وأولاد خليفة ، وبعض هذه العروش منتشرة فى (قرعة الزرلكين) و (عين تمولة) .

وجاء ذكر هذه القرية فى رحلة التجانى[1] قال : هو منزل فيه مبان قليلة وعليه غابة الزيتون متسعة ، وكانت به قبل هذا غابة نخل فقطعت أيام محاصرة مخدومنا[2] لقابس ولم يبق منها إلا نخيلات قليلة فى مواضع متنافرة منه .

٢ — مطرش والمدو :

واحتان صغيرتان فى هده الجهة ، تجاوران تبلبو ، ولكل منهما غابة نخل يتخللها الزيتون والأشجار المثمرة ، وغالب السكان من (الحزم) .

٣ — زريق :

هناك واحتان بهذا الاسم ، فالأولى تسمى (زريق الدخلانية) وتقع بين ضريح سيدى أبى لبابة وبين تبلبو وتطل عليها من الغرب ربوة المنار ، وغابتها لا تختلف عن بقية الواحات المجاورة لها ، والظاهر أنها حديثة الوجود ، أى أنها وجدت بعد زريق القديمة ، والثانية تسمى (زريق البرانية) ، وهذه هى

---

(١) ص ١٧٩ .

(٢) هو أبو يحيى زكريا ابن اللحيانى السلطان الحفصى ، وانظر عن هذه الواقعة الباب الخامس .

(زريق) المشهورة فى التاريخ وتقع غربى (كتانة) على نحو ١٨ ك م من قابس .

واشتهرت هذه الواحة بنزول الميورقى فى جيشه عليها سنة ٥٩١ ﻫ ومكث بها ثلاثة أيام متلوما ثم هاجم قابس وقطع غابتها[١] .

وذكر التجانى[٢] أنه يوجد بقربها (نخلات على عين ماء عذبة وزاوية يسكنها رجل من البربر اسمه سلام ويعرف بأبى غدارة) أما الزاوية المشهورة الآن بهذه القرية فهى زاوية سيدى (عبد الله بن عبد العزيز بن يحيي بن عبد الرحمن بن جابر أحد السادات الحمارنة)[٣] .

٤ — كتانة :

لا تزال هذه الواحة كما وصفها التجانى فى أول القرن الثامن للهجرة لم تتغير سوى نقص الزيتون وكثرة النخل .

قال التجانى : « قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر كأنها بستان واحد خضرة ونضرة وعامة شجرها الزيتون وكان غرسه بها أيام الأمير أبى زكرياء[٤] على قابس سنة ٦٢٤ ﻫ ، ولأهلها قصر كبير يأوون إليه[٥] وبها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر من جهة غربية وتخرج مذانب ومسارب تخرق الغابة فتعمها بالسقى » .

وتبعد كتانة عن قابس نحو ١٨ ك م ويخترقها الطريق رقم (١) الرابط بين قابس وطرابلس ، وتسكنها عروش : الحزم — والموادسية — والحنانشة — والشلايية — والبكاكش .

---

(١) انظر فصل (أحداث تاريخية) من (الباب الأول) والحديث عن هذه الواقعة فى (الباب الخامس) .

(٢) الرحلة ص ١٨٠ .

(٣) نقلنا هذا النسب من رحلة العياشى ج ١ (مخطوط) .

(٤) أبو زكريا الأول السلطان الحفصى .

(٥) اندثر الآن .

وعروش الحمارنة : السوالم – والغنادر ، ويسكن البعض منهم واحة (الغندرى) القريبة .

٥ – الزركين :

واحة فى هذه الجهة ، جميلة الغابة ، أهلها حمارنة غالبهم من أولاد عبد اللطيف – من أهلها من يسكن مارث كأولاد محمد – وأولاد حامد – والشعارة – والكرايمة – والطوالبية .

٦ – مارث :

وصفها التجانى[1] بأنها « قرية حقيرة وعليها غابة نخل يسيرة » وقد تغيرت الآن تماما وعظم عمرانها فأصبحت أكبر قرى هذه الجهة ومركز معتمدية ، واتسعت مساحتها وبنيت فيها (الفيلات) العصرية ، وكان لمركزها العسكرى أيام الفرنسيين أكبر الأثر فى عمرانها حيث اشتهرت بالخط الدفاعى المشهور باسم (خط مارث) أو (خط دلادبى) ، وكان لهذا الخط ذكر فى الحرب الأخيرة ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ولم يستطع الجيش الإنجليزى خرقه فاضطر لمفاجأته من الخلف على طريق الحامة قابس .

وقد عرفت مارث منذ سكنها الحمارنة من قبيلة دباب من قبائل سليم ابن منصور المصاحبين للزحفة الهلالية ٤٤٣ هـ ، ويسكنها اليوم منهم .. أولاد عبد اللطيف – وأولاد أبو عبيد والجلايلة – والعزايزة – والموامنة – والكواكبية – وبعض هؤلاء يسكن (زملة النكارة – وسيدى التوانى) .

والظاهر أن عامة هذه القرى – مارث – والزركين – والزارات – وعرام لم تعمر إلا من طرف الحمارنة فى أواخر القرن الخامس .

---

(١) الرحلة ص ١٨١ .

٧ — الزارات :

وصفها التجانى[١] بأنها « قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حمئة قد اجتمعت لدى منبعها بركة ماء متسعة القطر بعيدة القعر » . وذكرها الإدريسى[٢]: فقال هى « قصور ثلاثة تلى جزيرة جربة وبينهما فى البحر عشرون ميلا » :

ويبدو من هذا أنها قديمة وربما كانت من الرباطات البحرية وأهلها حمارنة منهم عروش العلاية — وأولاد عبد اللطيف — وأولاد حديدان — وأولاد محمد — والعصايدة .

٨ — عرام :

تقع جنوب مارث شرقى الطريق رقم(١) ، تطل على (وادى الزاس) يعرفه القدماء بـ (أجاس) قال عنها العياشى[٣] : « قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة إذ بها مقابر أسلافهم : سيدى يحيى وغيره من أكابرهم ، وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدى عبد الله بن عبد العزيز[٤] فإنه دفن بجانب زاويته بزريق » .

ووصفها الورثلانى[٥] بأنها « طيبة ذات مياه عذبة ونخيل ومزارع وبساتين ، ومن مات من الحمارنة دفن فيها فإنها محل أجدادهم وموضع خزائنهم ، يسكنها من لا يقـــدر على البادية منهم فيها روضات مبنية تراها كالنجوم فى السماء » .

---

(١) الرحلة ص ١١٩ .
(٢) نزهة المشتاق ص ١٢٨ .
(٣) رحلة العياشى ج ١ (مخطوط) .
(٤) هو حفيد سيدى يحى بن عبد الرحمان المذكور قبله .
(٥) نزهة الأنظار ص ٦٥٢ .

والظاهر أن قرية (عرّام) هذه هي نفسها قرية (أجاس) التي ذكرها التحاني بقوله(١) : « هي قرية ضخمة ذات مبان كثيرة ولها غابة متسعة وبها عين خرارة عذبة الماء غير أنها مستوبأة ، وأخبرني أهلها أنهم احتفروا في



(شكل ١٤) أحد فرسان الحمارنة

---

(١) الرحلة ص ١٨١ .

هذا الوقت بئراً عذبة الماء سالمة من الوباء فهم الآن يشربون منها ويسقون من تلك العين بهائمهم وزروعهم ، ورأيت بها مسجدا يذكر أهلها أن له فضلا مشهوراً عندهم وأن الدعاء مستجاب عنده » الخ .

والذى دفعنى لهذا الافتراض هو وقوع « عرام » على ضفة (وادى الزاس) وهو أجاس القديم ولأنها أكبر قريه معروفة هناك ومعظمة إلى درجة التقديس ، ولأن التجانى يقول إنهم مروا عليها بعد مارث مباشرة ، هذه كلها أسباب جعلتنى أفترض أنها هى (أجاس) القديمة وأن اسمها قد غير بعد عصر التجانى لمناسبة من المناسبات .

وسكانها حمارنة كما ذكرنا يسكنها منهم : الحمايدة والعوامر وبعضهم بوادى يسكن الزاس فى منازل متفرقة .

وقد اشتهرت (أجاس) بإقامة جعفر بن حبيب قائد جيش باديس الصنهاجى الموجه لقتال يانس الصقلى بطرابلس فيها ثلاثة أشهر كما سيأتى تفصيل ذلك فى الباب الخامس .

والظاهر أيضاً أن هذه القرية كان عمرانها فى الزمن الذى عمرت فيه مارث وغيرها من قرى الحمارنة .

* * *

ومن الجهة الغربية :

الحامة وضواحيها :

تسمى (حامة قابس) اليوم وكانت فى القديم تسمى (حامة مطماطة) تفرقة بينها وبين (حامة الجريد) وتقع على بعد ٣٣ ك م غربى قابس ، فى منبسط من الأرض شبه سبخة تحيط به الجبال والروابى من الشرق والجنوب والغرب والشمال ، إلا أن الجبال من الشمال بعيدة عنها ومن الحامة يبتدئ (شط الحامة) الذى يتصل بـ (شط الفجيج) المتصل بـ (شط الجريد) .

وعامة غابتها النخيل وفيه من الأنواع ما يدخر ، واعتماد أهلها فى عيشهم على زراعة الحبوب وتربية الماشية فالأراضى الزراعية واسعة المساحة تتصل بأراضى قابس وأحوازها المشالية وتمتد إلى أراضى نفزاوة من جهة وقفصة من جهة ثانية ومطماطة من جهة ثالثة .

وعامة الأراضى المحيطة بها إلى مسافات بعيدة صالحة للمرعى وتربية الحيوان وغالبه من الضأن والمعز ..

ويذكر ابن خلدون أن تسميتها بحامة مطماطة نسبة إلى هذه القبيلة من البربر الذين كانوا استوطنوها (وهم فيما يقال الذين اختطوها)[1] وشك ابن خلدون فى نسبة تأسيس بلدة الحامة لقبيلة مطماطة له مغزاه ، فإن جميع المظاهر بهذه البلدة تدل على أن العرب هم الذين عمروها بعد نزولهم بتلك الجهات فى منتصف القرن الخامس على آثار القرية الرومانية القديمة ، فالسكان اليوم كلهم من قبيلة بنى يزيد من دياب من قبائل سليم بن منصور يحفظون أنسابهم ويعرفون قبائلهم وعروشهم ليس فيهم دخيل ولا يعرف بينهم أثر للبربر ، حينئذ فأين دهب البربر الذين كانوا بتلك الجهة ، فالحامة معروفة من القديم وكانت ملجأ المصابين بالأمراض الجلدية والروماتيزم وعرفت فى الرومان باسم (Aquae Tacapitanae حامة قابس) .

ومكانها هو نفس مكان البلدة اليوم[2]، ولا نشك أن الحامـــة القديمة كانت مسكونة من طرف البربر وقد وجدهم العرب هناك وعاشروهم زمانا طويلا ، وذكر ابن خلدون أن قبائل من (توجن — وبنى ورتاجن) الزناتيين كانوا بالحامة .

فالعرب حين قدموا إليها لم يجدوها صحراء خالية ولكنهم وجدوا بها

---

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٦٤٥ ط الجزائر .

La Berberie Orientale sous les Hafsides T. 1, p. 314 (٢)

بعض العائلات البربرية التى تعيش فى أخصاص متفرقة على ضفاف واديها الحار تمتهن الزراعة ، فلما قدم العرب وامتلكوا تلك الجهة انصهرت تلك العائلات البربرية فذابت فيهم ، ولم تعمر البلدة بالبناءات إلا فى زمن العرب ، فتكاثروا فيها واتسع العمران حتى أصبحت مركزا هاما لفت إليها الأنظار وجعلت حكومات العاصمة منها ولاية خاصة تتبع قابس أحيانا وتتبع العاصمة رأسا أحيانا وتستقل بنفسها أحيانا أخرى ، وصفها التجانى فى أول القرن الثامن الهجرى[1] بأنها « مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل تحمل حملة ، وجميع مياه هذه البلدة شروبة وهى فى غاية السخانة وبسخانة مائها سميت حمة ، والحمة فى اللغة هى العين التى بمائها سخانة ، وهذه البلدة فى أكثر أوقاتها سالمة من الوباء فإذا وبئت استأصلت أهلها وكانت فى ذلك أشـــد من قابس ، وكان عليها سور مرتفع ورأيت مواضع منه قد تهدمت ولم يشتغل أهلها برمها فسألتهم عن ذلك فقالوا نحن لا نعتمد على سور وإنما سورنا سيوفنا ، وبناء داخل هذه المدينة فى غاية الارتفاع وهم يتنافسون فى ذلك ورأيت فى قصبتها وهى موضع سكنى الوالى آثارا تدل على ضخامتها غير أن الخراب استولى الآن على كثير منها وبهذه القصبة قناة ماء يتسرب إليها من خارجها فى غاية القوة ، وقد بنى عليها بيت على شكل حمام جاء فى نهاية الظرف والحسن . . . وبالبلدة جامع حسن ظاهر البركة والخير » .

والبلدة التى وصفها التجانى لم يتغير مكانها إلا أنها امتدت واتسعت كثيرا وأكثر امتدادها لجهات السوق وحواليه ، والجامع لا يزال فى مكانه إلا أنه جدد مرات وبنى جامع ثان هو جامع الشباب وهو الذى كانت فيه الدروس الثانوية الزيتونية . والسور لم يبق له أثر ، والقصبة التى كانت مقر الوالى قد اندثرت وكانت فى الحى الذى يسمى الآن (القصر) وكذلك لم يبق أثر للخندق الذى ذكر ابن أبى دينار بأنه دائر من كل جهاتها[2] .

(١) الرحلة ص ١٣٤ .
(٢) المؤنس ص ١٩٦ .

وأما الحمام فماء الحامة كله حمام يخرج من منابع طبيعية قرب البلدة ، ترى الابخرة تتصاعد منها من بعيد وتتجمع فى أودية صغيرة وسواق تتحلل الغابة والسوق ، وقد بنى على هذه السواقى فى القديم حمامات هى عبارة عن بيوت صغيرة فوق الوادى ينزل لها بدرجات ثم بنت البلدية حماما له صهريج متسع والأوقات مقسومة بين الرجال والنساء وهى عادة معروفة من قديم وفى السواقى الخارجية يستحم الناس أحرارا فى أى مكان إلا أنهم فى بقاع متباعدة مستورة لا يتصل أحدهم بالآخر ، وإننى لأعجب من قول الورتلانى الذى زارها فى القرن الثانى عشر للهجرة : « وفيه بيت يستر المغتسلين وخارجه نهر منه يجتمع فيه الرجال والنساء من غير ستر فى النهار كل واحد يرى عورة الآخر من غير تغيير ولا نكير »[1] لأن هذا يخالف ما طبع عليه بنو يزيد من الغيرة وشدة احترام المرأة .

وقد عمدت البلدية منذ فجر الاستقلال إلى الاعتناء بهذا الحمام فبنت عليه حمامات عصرية منظمة وطهرت جهاته من الأوساخ وهى دائبة على إدخال التحسينات المتتابعة . وقد اشتهر حمام الحامة بصلاحيته لمقاومة مرض البرد (الروماتيزم) وعدة أمراض أخرى مما جعله مقصد المرضى من أطراف الجمهورية التونسية واعتزاز سكان الحامة بأنفسهم المتمثل فى جوابهم للتجانى (إنما سورنا سيوفنا) أمر مشهور عنهم ، فهم من أمهر فرسان تلك الجهة ، وهذا الاعتزاز هو الذى دعاهم قديما للقيام بعدة ثورات ضد السلطة المركزية كانت نتيجتها غالبا خراب بلدهم وعرضهم للتشتيت والانتقام وعرض غابتهم إلى القطع والتخريب ، ومن أكبر ما منيت به الحامة من قتل وتخريب انتقام حمودة باشا المرادى منها حين تمرد سكانها على سلطته مدة سبع سنوات فهاجمها بجيش كثيف « ونصب عليها المدافع وقطع نخلها حتى فتحها

---

(١) نزهة الأنظار ص ١٢٧ .

فقتـــل رجالها وسبى نساءها ، ونهب أموالها وباع أولادها أواخر سنة ١٠٤٥ هـ »[١] ؛

ولكن لم يكد يحدث الخلاف بين « الأخوين محمد وعلى ابنى مراد بن حمودة باشا (حتى) خالف أهلها (أيضا) فهاجمها محمد باى عند استقلاله بالأمر وأباحها »[٢]، وذلك فى أوائل القرن الثانى عشر ، ورغم هذه المصائب التى تنزلها السلطة الحاكمة بالحامة فإن أهلها دائما كانوا تواقين إلى التمرد والأنفة من تبعية الغير وقد استطاعوا مرات أن يستقلوا بأنفسهم ويكونوا إمارة تنادى بالعصيان أحيانا وتطيع اسميا أحيانا أخرى ، وقد استقل بالأمر فيها جماعة متعددة من الوشاحين فى عهد الدولة الحفصية ، ذكر بعضهم ابن خلدون[٣]، وآخر ما أثر من تمردهم مناصرتهم للشيخ غومة المحمودى[٤]

---

(١) المؤنس ص ١٩٧ .

(٢) التاريخ الباشى ص ٢٦٢ – ٢٩٢ (مخطوط) .

(٣) ج ٦ ص ٤١٨ ط بولاق .

(٤) غومة المحمودى من محاميد طرابلس كان صديقاً لعائلة القرمانلى ولاة طرابلس فلما انقرضت سلطتهم ثار فى وجه الدولة التركية وشن الغارات على مراكزها بطرابلس فقبض عليه باشا طرابلس وأرسله للأستانة فحكم عليه بالنفى فهرب من منفاه ورجع إلى أهله ودخل بحيه إلى جهة الحامة وتوسط له قنصل فرنسا لدى باى تونس ليقبله فى أرضه ويشفع له عند السلطان فقبله الباى وأرسل للأستانة مستشفعاً فيه رغم نصح وزرائه له بعدم التداخل فى شأنه فأعلمته الحكومة التركية بأن شفاعته ليست فى محلها إذ أن الرجل مفسد ومجرم فار بدم ورغبت منه إعانة باشا طرابلس على القبض عليه فأنف الباى من خفر ذمته ولم يتعرض لغومة ، ولكن غومة لم يقابل كرم الباى بالسكون والراحة بل اجتمع عليه بعض الأعراب وشن الغارات على بعض الأحياء وأكثر الفساد والشر وكان يحرض الناس على عدم دفع الضرائب لأنها – فى زعمه – جزية مضروبة على المسلمين ، فكتب له الباى بواسطة قنصل فرنسا – الذى لايشك العاقلون أنه كان هو المحرض لغومة على الإفساد – ويأمره أن يرحل بحيه لدواخل البلاد قرب العاصمة أو القيروان فاعتذر غومة متعللا بكثرة من معه وكثرة أنعامهم التى لاتجد المرعى فى الدواخل وكان القنصل فى هذا الوقت دائب الحركة يتستر على صديقه غومة ، فاضطر الباى أن يرسل له محلة بقيادة اللواء (محمد خزنة دار) فلما قربت المحلة من غومة أرسل له قائدها يخبره بين الانتقال للدواخل أو الخروج من البلاد ، فراوغ غومة ولم يستجب لأحد الأمرين فقصدته المحلة إلى (قبلى) حيث كان =

الطرابلسى الثائر الذى طاردته حكومة طرابلس فقدم إلى تونس واتصل ببنى يزيد سنة ١٢٧٣ ﻫ مما اضطر الباى إلى مطاردته أيضا بجيش أخرجه من البلاد التونسية أوائل سنة ١٢٧٤ ﻫ ثم مشاركتهم فى تدبير المؤامرة الشهيرة ضد الاحتلال الفرنسى سنة ١٩١٤ م إبان الحرب العالمية الأولى ، تلك المؤامرة التى امتدت عروقها إلى غالب العروش العربية بالبلاد التونسية وعلى الأخص عروش الجنوب ، وكادت تعصف بالاحتلال الفرنسى لولا اكتشافها من طرف سلطة الاحتلال بواسطة خائن كان (خليفة) بالحامة تظاهر لرؤساء الحامة البسطاء بالتحمس للقضية الوطنية وقبل اندلاع الثورة بوقت قليل كشف المؤامرة وقبض على مدبريها .

هذا عدا التمرد الفردى ضد الاحتلال ، فقد اشتهر عدد من أبناء الحامة أذاقوا المحتلين الأمرّين ، كالمرحوم (الدغباجى)[1] الذى قتل شهيداً فى بلده وبين أهله وذويه انتقاما وإرهابا للسكان ، وكان لأبناء الحامة يد طولى فى الثورة الوطنية الأخيرة التى نتج عنها استقلال البلد .

وبنو يزيد سكان الحامة الأصليون . يقول التجانى[2] إنهم ينتسبون إلى يزيد على مدلول الزيادة لا إلى رجل يسمى (يزيد) ، ويذكر أنهم فى وقته أربعة أفخاذ : (الصهبة) وهم بنو صهب بن جابر بن قائد بن رافع بن دياب

= نازلا ولما قربت منه ارتحل إلى (الجرسين) من قرى نفزاوة الغربية ثم فر منها إلى أرض الجزائر. أما خزنة دار الذى كان مأموراً بمطاردة الثائر وباستباحة بلد قبلى وقطع غابته فقد استباح البلد واكتفى ببيع غابته فى خبر طويل سوف أفصله فى كتاب عن نفزاوة شرعت فى جمع مواده إن طالت بى الحياة .

(١) محمد الدغباجى من عرب الحامة هرب من الجندية الفرنسية وسكن جبال الجنوب ثائراً على السلطات الفرنسية وله معها وقائع مشهورة سجلها شعراء الملحون فى ملاحم شيقة - وألقى عليه القبض بطرابلس وسلمته السلطة الإيطالية إلى فرنسا فسيق إلى الحامة وقتل وسط سوقها رمياً بالرصاص حوالى ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ م رحمه الله رحمة واسعة .

(٢) الرحلة ص ١٣٤ .

و (الحمارنة) وهم بنو حمران بن جابر ، و (الخرجة) وهم بنو سليمان بن رافع بن دياب ، و (الأصابعة) الخ :

وهذه الأسماء لا تزال إلى اليوم موجودة على أصلها عدا (الصهبة) فقد تنوسى هذا الاسم ، وتغلب اسم الحمارنة على سكان مارث وعرام وضواحيها .

ويتفرع بنو يزيد اليوم إلى فروع عديدة منتشرة بين الحامة وقراها وأراضيها الواسعة وهذه الفروع هي :

الشياب — والبقلة (بضم الباء وسكون القاف) ، ومن هؤلاء السمايحة والحوازم والتراجمة وفروعهم — والشعل وفروعهم — والخرجة وفروعهم — والأصابعة — والشواشين — والشلاخشة ومن هؤلاء أولاد عمر ، وأولاد غريب وفروعهم — والزمازمة والغياليف والحماين وفروعهم — وأولاد خليفة ومن هؤلاء المزارعية ، والرتيمات والودارنة ، والدحاحلة وفروعهم ومطمط وفطناسة ومن هؤلاء أولاد ضو والحرشان والحداية — وأولاد بن خود الخ والجميع يسكنون الحامة البلد ، والقصر والسنباط والدبدابة وبشيمة وبو عطوش والمرطبة والفجيج والسقى وبوقرفة وجبل الطباقة وغيرها من القرى والضيعات .

وفى بنى يزيد حضريون يسكنون البلد وبدو يتنقلون بين البلد والبادية تحت الخيام :

البَابُ الرابع

سُكان قابس

الفصل الأول

القدامى

البربر — الفنيقيون — الرومان — العنصر الخليط — اللغة — الديانة

أشرنا فيما تقدم إلى أن أول من سكن قابس هم البربر سكان إفريقيا القدامى ، وهم الذين كونوا المساكن الأولى بها وأطلقوا عليها (تاكاب) ، هذا الاسم الذى اشتهر بعد ذلك فى العهد الفنيقى وهو ما ذهب إليه المؤرخ القديم (بلين Pline) حيث يقول (وسكنها بربر نوميديا)[١] .

وليس لدينا من النصوص القديمة ما يساعدنا على معرفة أنساب هؤلاء السكان الأول ، وكل ما تعرضت له النصوص الإسلامية أن بربر باديتها كانوا ينتسبون إلى مختلف القبائل المعروفة من زناتة ولواتة ومطماطة والماية ونفوسة وزواغة ، ونعرف أن عائلات من لواتة كانت مستقرة فى قابس نفسها فى العهد الإسلامى ، وعائلات من زناتة كانت منتشرة بين الحامة وجهات جنوب قابس وقبائل مطماطة كانت تعمر جبل مطماطة حيث هى الآن ، ثم جاء الفنيقيون وارتادوا الشواطئ الإفريقية يؤسسون المصارف التجارية (Comptoires) فى عدة مراكز ويبادلون البربر سلعهم فيدفعون لهم بضائعهم كالأقمشة والأسلحة والأوانى الخزفية ويقبلون فى مقابلها منتجات الأرض الإفريقية وصناعاتها كالصوف والجلد والعاج والأنعام والعبيد[٢] .

وفى هذا العصر دخلوا (قابس) واتصلوا بأهلها وعمروا شواطئ

---

(١) Pline : l'Ancien. Histoire naturelle p. 370—371

(٢) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٣٤ .

خليج قابس ومن بين مراكزهم المعروفة (قابس) و (مغمداس) و (المقام الحديث) على الشاطئ الشمالى للخليج وهو أقرب مركز لقابس واختلط السكان لصلة القرابة بين الفنيقيين القادمين من السواحل الشامية والبربر الذين يرجعون إلى أصل شرقى أيضاً حسبما يقول المؤرخون .

وكان التزاحم التجارى على أشده بين الفنيقيين واليونان ، وكانت سفن الجانبين التجارية ترتاد الشواطئ التونسية ويختلط الجانبان بالسكان ، ولم يلبث الفنيقيون أن أسسوا مدينة قرطاجنة فى القرن التاسع قبل المسيح على أرجح الروايات فسيطرت على الشواطئ الإفريقية واحتكرت فيها التجارة وناوأت اليونانيين فانتصرت عليهم بعد عراك عنيف(١) وخلصت إفريقيا الشمالية نهائياً إليها ونشطت حركة العمران وازدهرت التجارة والزراعة واختلط القرطاجنيون بالأهالى الذين تعلموا لغتهم وشاركوا فى غزواتهم البحرية وكانت قابس فى هذا الوقت أكثر مدن الخليج ازدهارا(٢) .

الرومان :

واحتل الرومان هذه البلاد إثر انكسار قرطاجنة أمام جيوشهم الغازية سنة (١٤٩ ق . م) فانتشروا فى البلاد ونظموا إدارتها وأتوا بآلاف العائلات الرومانية لتعمير أرض إفريقية واستغلال خيراتها(٣) — على عادة المستعمرين إلى اليوم — فأسسوا الضيعات وأعانتهم الحكومة بما فى إمكانها حماية من وتعبيد طرقات ومد قنوات المياه وبناء السدود والمصانع وغيرها من الوسائل الممكنة فى ذلك العصر ، واقتدى البربر بالرومان فى استغلال

---

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٣٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٧٧ .

الأرض وتوسيع نطاق الزراعة مما جعل إفريقيا الشمالية عمدة رومة فى حياتها الاقتصادية حتى سماها اللاتينيون (مطمور رومة Romee graniarum) وازدهرت قابس فى عصر الإمبراطورية على الخصوص[1] لخصوبة أرضها وكثرة مياهها فكثر عمرانها واتسعت رقعتها ، فنحن نجد آثار البناء الرومانية فى قابس وأحوازها وعلى الأخص فى جهات من غابتها متناثرة هنا وهناك مما يدل على كثرة سكانها وتعدد ضياعها الزراعية .

وكثرة السكان نتجت من الرومان الأجانب الواردين عليها من أفراد الجيوش المكلفة بالأمن ومن عائلات المعمرين ومن نزوح سكان البلاد من البادية إلى الحواضر للمشاركة فى الحياة الحضرية المستقرة .

الوندال :

واتى الوندال بعد الرومان فسكنوا هذه البلاد مدة قرن كامل ولكنهم لم يتركوا بها أثراً فقد كانوا أمة عسكرية لم تعتن بالعمران بل إنها قضت على ما تركه الرومان من آثار عمرانية .

البيزنطيون :

وقضى البيزنطيون على سلطة الوندال سنة ٥٣٤ م وساروا على نهج أسلافهم الرومان فى التحصين والتعمير والتنظيم إلا أنهم كانوا أقل قوة من الرومان وجاءوا فى وقت استيقظ فيه البربر سكان البلاد من غفلتهم وقويت عصبيتهم ونشطت حميتهم لتخليص بلادهم من كل سيطرة أجنبية وشعر البيزنطيون بضعفهم أمام قوة التطور واتساع رقعة الأرض عن قدرتهم فتركوا خط الدفاع الرومانى القديم المتمثل فى الحصون الموجودة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

آثارها إلى اليوم بصحراء الجنوب التونسى وبنوا خطا دفاعيا ثانيا يتمثل فى سلسلة حصون تمر وسط البلاد التونسية ، ولكنهم مع ذلك لم يتركوا المدن الساحلية ومنها (قابس) التى مكثوا بها حتى تسلمها منهم الجيش الإسلامى ، وقد شارك البربر فى الحياة السياسية والاقصادية وحتى العلمية فى هذه العصور المختلفة ، ونجد لهم أثراً بارزاً فى السياسة والعلم فى العصر الرومانى والبيزنطى بالخصوص ، وقد تزوج الرومان من البربريات[١] ، كما تزوج البربر من العائلات الأجنبية فنتج عن ذلك جيل مختلط الدماء تكون منه عنصر جديد كان له أثر فى نشر الثقافة الرومانية وأصولها اليونانية وهذه السلالات البربرية والفنيقية والرومانية والبيزنطية والمختلطة هى التى تكون سكان قابس القدامى . وقد وجدها المسلمون عند الفتح فذكروا أن السكان يتكونون من بربر وأعاجم أو أفارقة ويقصدون بكلمة الأعاجم الرومان والبيزنطيين والبربر أيضا ، ويقصدون بكلمة أفارقة سكان البلاد غير العرب ، ونعت ابن خرداذبة قابس بأنها (مدينة الأفارقة الأعاجم)[٢] .

اللغة :

وكانت لغة السكان الإفريقيين هى البربرية القديمة المتحدة الأصل وإن اختلفت لهجاتها بعض الشىء حتى جاء الفنيقيون وسرعان ما تعلم البربر لغتهم واستعملوها فى معاملاتهم ، وعلى الأخص فى المدن حيث كانت هى لغة الإدارة والتجارة والمعاملات ولا يستغرب انتشار اللغة الفنيقية — أو القرطاجنية على الأصح — بسرعة بين البربر (إذا ما أعدنا إلى الأذهان أن البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية واحدة وأن الشبه عظيم بينهما لا فيا يتعلق بالبنية والعنصر بل فيا يرجع إلى التفكير أيضا)[٣] .

---

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٧٩ .

(٢) المسالك والممالك ص ٨٦ و ٢٢٤ .

(٣) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٤٢ .

وتغيرت لغة الحكومة والمعاملات بعد الاحتـــلال الرومانى فاحتلت اللاتينية مكان القرطاجنية ، وتعلمها البربر أيضا وبرعوا فيها وألفوا فيها المؤلفات العديدة .

ولكن هذا لم يتجاوز المدن بالنسبة للفنيقية واللاتينية معا وبقيت البربرية هى اللسان القومى للسكان خارج العواصم لم تستطع أية لغة اكتساحها والحلول محلها حتى جاء العرب فاكتسحت لغتهم اللهجات البربرية التى لم يبق لها ذكر إلا فى بعض القرى النائية المحصنة داخل الجبال أو البحر حيث بقيت إلى اليوم فى بعض قرى جبال مطماطة وفى جزيرة جربة وهى سالكة طريق الاضمحلال شيئا فشيئا .

الديانة :

ولم يحذ البربر حذو الدخلاء (فى الشؤون المادية فحسب بل اقتفوا آثارهم فى سائر الميادين الأخرى أخذوا عنهم أخلاقهم ووثنيتهم ، فجعلوا يعبدون الكبش (عمون) كما كان يعبده القرطاجنيون من قبلهم[1] . وقد عثر على آثار بربرية وتماثيل تدل على عبادتهم للكبش القرطاجنى ، وقلدوا بعـــد ذلك الرومانيين أيضا واستعملوا فى هياكلهم بعض آلهتهم ولم تكد تدخل المسيحية فى صـــفوف الرومان حتى تهافت عليها البربر كعادتهم ليستعملوا منها سلاحا ضد الرومان العاصبين حتى كان هؤلاء يقاومونها لأنها كانت تنادى بالمساواة ، وحين أصبحت المسيحية ديانة رسمية لم يجد البربر وسيلة لمقاومة الحكومة غير الدخول فى صفوف الخلافات المذهبية وتبع أكثرهم المذهب المناوئ للسلطة حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه أفواجا ما دام ينادى بالمساواة وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى وبمحاربة

---

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٤١ .

الطبقات وبأن الناس سواء أمام العدالة ولكل فرد من الرعية نفس الحقوق التى للراعى ولا نشك أن مدينة (قابس) كانت مرت بهذه الأحداث كلها فضمت من السكان البربرى والفنيق والرومانى والعنصر الخليط من هؤلاء كلهم ، ورأت اللغات والمعتقدات تصارع بعضها حتى جاء الإسلام فإذا به يكتسح الديانات والمعتقدات قبله ويحل محلها فى قابس وأحوازها وتكتسح العربية غيرها من اللغات ، ولكن فى المدينة فحسب ، وبقيت البربرية على قوتها فى الأحواز حيث ينتشر البربر فى القرى والضياع ويشتد أزر هذه اللغة حين تصبح الدولة بربرية فى القرن الثانى[1] ، ولكن قدوم أعراب الصعيد فى منتصف القرن الخامس الهجرى قضى على هذه اللغة وحلت العربية محلها ولم يبق للبربرية إلا زوايا صغيرة منعزلة فى الجبال

---

(١) انظر فى الباب الخامس الحديث عن أيمة نفوسة وتاهرت وسيطرتهم على أحواز قابس من سنة ١٤١ إلى ٣١١ هـ

الفصل الثانى

العرب

الفاتحون – الزحفة الهلالية وأسبابها – الأحياء المشتركة فيها –
استيلاء العرب على قابس وأحوازها – أثرهم فى البلاد

لا ندرى بالضبط متى دخل العرب الفاتحون مدينة قابس ، فأقوال المؤرخين مضطربة فى هذا الباب ، ففى تعليقات ابن الشباط نقلا عن مختصر الطبرى أن ابن أبى سرح حاصرها سنة ٢٧ هـ ثم تركها خلفه بإشارة من أصحابه[١] ، وهذا ما ذهب إليه أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب فى تعليقاته أيضاً بأنه سلك إلى سبيطلة ولم يتوقف فى قابس :

أما ياقوت فيقول : « وكان فتحها مع فتح القيروان سنة ٢٧ هـ »[٢] ؛ وإذا لم نأخذ بقول ياقوت فتى كان فتحها ؟ إذا قدرنا صحة وجود (أبى لبابة) الصحابى بقابس – وهو الرأى الذى أخذنا به[٣] – ، والمعروف أنه توفى سنة ٤٠ هـ فمعنى ذلك أن قابس فتحت قبل سنة ٤٠ هـ ويبقى أن نتساءل : هل فتحها أحد الجيوش الإسلامية ؟ ونقدر أنه جيش معاوية بن حديج الذى دخل إفريقية سنة ٣٤ هـ ، أوكان فتحها على يد إحدى السرايا التى كان عمرو بن العاص ، ثم عبد الله بن أبى سرح يبعثان بها لترتاد أطراف إفريقية غازية مستكشفة ، وهو ما نص عليه ابن عبد الحكم أقدم المؤرخين المسلمين بقوله .[٤] « كان عبد الله بن أبى سرح أمير مصر

---

(١) الحلل السندسية ص ١٤٧ .
(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٩ ط بيروت .
(٣) انظر الحديث عن أبى لبابة فى الباب السادس .
(٤) ص ٤٢ ط كربونال .

يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون » .

وعلى كل فالمسلم به أن العرب دحلوا قابس ما بين سنتى ٢٧ و ٤٠ هـ ، ولكننا نقدر أنهم لم يستقروا بها إلا بعد فتح عقبة لإفريقية سنة ٥٠ هـ ، ونقدر أن عائلات المجاهدين التى استقرت بها لم تلبث أن غادرتها بسبب ثورة البربر على عقبة واستيلائهم على إفريقية ولم يبق منها إلا القليل .

وعليه فلا يمكننا أن نعتبر أن العرب قد سكنوا قابس واستقروا بها نهائيا إلا بعد حملة حسان بن النعمان وانتصاره الحاسم على البربر سنة ٨٤ هـ[1] ، فمن ذلك الوقت ظهر العرب فى المراكز الهامة من إفريقية ، ونقدر أن الذين سكنوا قابس منهم إنما هم عائلات الجنود والعمال والتجار وعلماء الدين الذين يصاحبون دائما الحملات لفتح العقول وتطهير العقائد وتوجيه الحكام والدفاع عن الحق فى مجالسهم على أن العرب بقوا رغم استقرار الحالة بإفريقية أيام الأغالبة قلة بالنسبة لسكان البلاد ، ولم يحدث وجودهم رغم اختلاطهم بالسكان أى أثر فى المجتمع البربرى الأصيل فى البلاد عدا الأثر الدينى ، والأثر التمدينى الطيب الذى خلفه الأغالبة فى المدن والسواحل ، أما الأطراف فلم تتأثر بشىء وبقيت فيها النزعة إلى الثورة ضد العرب الدخلاء حتى قدوم بنى هلال وبنى سليم منتصف القرن الخامس ، ومنذ ذلك الحين بدأ تعريب البلاد وظهر العنصر العربى وكاثر البربر واستطاع أن يصهرهم فى بوتقته ويذيبهم فى معدنه .

الزحفة الهلالية :

فى سنة ٤٣٥ هـ[2] ثارت العامة على الشيعة الذين تركز مذهبهم

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ٥١ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٣ .

فى البلاد أيام الفاطميين — فقتلوهم فى كل مكان واضطر المعز لدين الله الصنهاجى — وكان تابعا للخلافة الفاطمية بمصر — أن يجارى الثورة وكان مالكى المذهب — ويفكر فى الاستقلال عن الفاطميين فتربص سنوح الفرصة لإعلان استقلاله حتى سنة ٤٤٠ هـ[1]، فأعلن تبعيته للخلافة العباسية ببغداد

---

(١) يذهب أستاذنا ح ح عبد الوهاب فى الخلاصة ص ٩٣ أن قطع التبعية للفاطميين كان سنة ٤٣٩ هـ ، والصواب ما ذكره ابن عذارى فى المغرب ح ١ ص ٣٩٩ أنه (فى ٤٤٠ قطعت الخطبة لصاحب مصر وأحرقت بنوده) وأيده ابن ناجى فى المعالم ج ٣ص ٣٤٣ حيث ذكر أن إعلان القطيعة وقع يوم عيد الفطر من سنة ٤٤٠ هـ ويؤيد صحة هذين النصين وجود اسم المستنصر الفاطمى فى النقد المضروب سنة ٤٤٠ هـ واختفاؤه من النقود المضروبة سنة ٤٤١ هـ ، فى مجموعة النقود الموجودة (بالمعهد القومى للآثار التونسية) دينار ذهبى ضرب سنة ٤٤٠ كتب عليه :

الوجه ١ الطوق : بسم الله ضرب هذا الدينار بصبرة سنة أربعين وأربعمائة .

الوسط : الإمام
المستنصر بالله
أمير المؤمنين

الوجه ٢ الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

الوسط : لا إله إلا الله
محمد رسول الله
على ولى الله

وفى نفس المجموعة دينار ذهبى ثان ضرب سنة ٤٤١ هـ كتب عليه .

الوجه ١ الطوق : بسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام والقيروان سنة إحدى وأربعين وأر(بعمائة) .

الوسط : ومن يبتغ غير
الإسلام دينا
فلن يقبل منه

الوجه ٢ الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

الوسط : لا إله إلا الله
وحده لا شريك له
محمد رسول الله

ومن الاطلاع على هذين الدينارين يتضح أن الصلة لم تقطع مع الفاطميين قبل سنة ٤٤٠ هـ

وجاء التقليد العادى منها وغضب الفاطميون فسرحوا عرب الصعيد إلى إفريقية وأعانوهم بالمال والسلاح وجعلوا لهم ملك ما يحتلونه منها إلى آخر ما هو معروف من كتب التاريخ .

وكان الواصلون الأولون لإفريقية بنو هلال بن عامر[١]، وأشهر قبائلهم زغبة[٢] ودريد[٣] ورياح[٤] والأثبج[٥] « وتهاون المعز أولا فشغلهم بخدمته وأثقلهم بأعباء نعمته وهم فى خلال ذلك يتمرسون بجهاته ويدبون إلى أنصاره وحماته ويطلعون على مقاتله وعوراته حتى بان لهم شأنه وهان عليهم سلطانه »[٦] .

وكان من بين أصدقائه المقربين إليه الأمير مؤنس بن يحيى الرياحى فاشتكى المعز له يوماً من تمرد جند صنهاجة وأعلن تبرمه من عنادهم وفسادهم ورغب إليه أن يدعو بنى عمه من رياح ليكون منهم بطانة وجندا يجعلهم شوكة فى حلق الصنهاجيين فنهاه مؤنس بن يحيى[٧] عن ذلك ونصحه بأن

= بدليل وجود اسم المستنصر الفاطمى وشعار الشيعة (علىّ ولىّ الله) على النقود المضروبة فى هذه السنة واختفاء الاسم والشعار من النقود المضروبة سنة ٤٤١ هـ وكتب بدل اسم الخليفة الفاطمى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ولا يخفى ما فى هذه الآية من تعريض بفساد عقيدة الفاطميين .

(١) هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان من العدنانية (معجم قبائل العرب ٣ ص ١٢٢١) .

(٢) قبيلة من هلال كانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم إفريقية (معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٤٧٥) .

(٣) قبيلة من الأثبج بن هلال بن عامر كانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعبا ، لهم كانت الرئاسة على الأثبج كلهم لحسن بن سرحان بن وبرة (معجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٧٩) .

(٤) رياح بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر (معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٤٥٧) .

(٥) قبائل من هلال بن عامر كانت من أوفر القبائل عدداً وأكثرها بطوناً فكان لهم جمع وقوة وكانوا أحياء عزيزة وهم من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية (معجم قبائل العرب ج ١ ص ٤) .

(٦) رحلة التجانى ص ١٨ .

(٧) سماه الشماخى فى كتاب السير ص ٣٧٣ (يونس بن يحيى) ولعل هذا الاسم هو الذى أوحى لكاتب أسطورة بنى هلال باسم (يونس ويحيى) أخوى مرعى كما تزعم الأسطورة .

لا يستعين بقبائل هلال لأنهم أهل فساد لا يدينون بالطاعة لأحد وكان مخلصا في نصحه وأعرف بأهله من المعز ولكن المعز اتهمه بالأنانية وبأنه يريد الاستئثار بالنعمة والجاه دون بني عمه فغضب مؤنس واشهد على المعز بأنه سيكون بريئا مما يقع من بني عمه في المستقبل ، وذهب لأحياء هلال النازلة ببرقة وطلب منهم الارتحال لإفريقية حسب رغبة المعز ولم يكادوا يصلون أطراف الجنوب التونسي حتى ظهر فسادهم وتخريبهم لكل ما يصلون إليه فاتّهم المعز صاحبه (مؤنس بن يحيى) بأنه يحرضهم على الفساد ، وقبض على أهله وولده رهينة عنده وامتنع من إرسالهم إليه حسب رغبة (مؤنس) قال ابن عذاري[1] : « فلما انتهوا إلى قرية تنادوا هذه القيروان ونهبوها من حينها فلما ورد الخبر على القيروان عظم الأمر على المعز وقال : إنما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه فأمر بثقاف أولاده وعياله وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره ، فلما بلغ مؤنس ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه الخ » .

وهناك أعلن مؤنس العداء السافر وأرسل لمن بقي من بني عمه في الالتحاق به فقدمت إليه بقية هلال وقبائل سليم بن منصور[2] من برقة وبدأت الحرب بين الجانبين[3] وكانت المعركة الفاصلة في جبـل حيدران شمالي قابس سنة ٤٤٤ هـ حيث التقى المعز في نحو ثلاثين ألفا ببني هلال وسليم وهم في نحو ثلاثة آلاف فارس وكاد النصر يكون للمعز لولا انخذال زناتة ومنهاجة من جنده فتمكن الأعراب من الانتصار عليه وفر المعز من المعركة في بقية من حرسه الخاص إلى القيروان .

وقد ذكر هذه الواقعة شاعر الهلاليين علي بن رزق الرياحي في قصيدة مطلعها :

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٤١٨ .

(٢) يجتمع نسبهم مع بني هلال في منصور بن عكرمة .

(٣) انظر الخلاصة النقية ص ٤٧ وابن عذارى ج ١ ص ٤١٩ الذي أطنب في وصف الواقعة وفي احتلال العرب للقيروان .

لقد زار وهنا من أميم خيال   وأيدى المطايا بالذميل عجال

وفيها يقول :

وأن ابن باديس لا حزم مالك   ولكن لعمرى ما لديه رجال

ثلاثة آلاف لنا غلبت له   ثلاثين ألفا إن ذا لنكال[1]

والتحق به العرب للقيروان فصالحهم مدة وقرب إليه زعماءهم وأصهر إلى بعضهم ببناته ، ولكن العرب لم يلبثوا أن نقضوا العهد وحاصروا القيروان فاستجاش المعز بأصهاره منهم وارتحل إلى المهدية فى حمايتهم سنة ٤٤٩ هـ حيث نزل على ابنه تميم هناك ومات بحسرته سنة ٤٥٣ هـ على الأرجح ونهب العرب بعده القيروان نهبا فظيعا لم تر مثله فى حياتها الطويلة مما دفع شعراء ذلك العصر إلى رثائها فى قصائد رائعة خالدة[2] تلهب الضلوع وتستدر الدموع .

وتمكن العرب من اكتساح كامل إفريقية ثم اختلفوا وتحاربت قبائلهم فدان بعضهم للأمراء المحليين كالصنهاجيين فى المهدية وبجاية واستقل بعضهم بجهات من إفريقية مما يتعذر تفصيله فى هذا الكتاب .

وكانت قابس إثر هذه الحملة من نصيب قبيلة زغبة ولكن لم تلبث أن زحزحتها قبائل سليم ثم اصطلحوا على أن تبقى قابس فى أيدى بنى جامع من الرياحيين كما سيأتى ، وهم الفخذ الوحيد من بنى هلال الذى بقى بجهات الجنوب حيث انتشرت قبائل سليم .

والواقع أنه لم يكن لبنى جامع إلا مدينة قابس أما أحوازها فقد انتشر

---

(١) هذه رواية التجانى فى الرحلة ص ٢١ وفى رواية أخرى جاء هذا البيت :

ثلاثون ألفا منهم هزمتهم   ثلاثة آلاف وذاك ضلال

ونقل ابن عذارى ج ١ ص ٤٢٠ عن ابن شرف هذا البيت كالآتى .

ثمانون ألفا منكم هزمتهم   ثلاثون ألفا ، إن ذا لنكال

(٢) كابن رشيق وابن شرف وعلى الحصرى وغيرهم .

فيها بنو دياب بن ربيعة بن زغب بن جرو بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم بن منصور[1] حيث بقى أحفادهم إلى اليوم .

وإذا تمكن بنو دياب هؤلاء من الظهور فى أحواز قابس وانصهر السكان الأصليون فيهم بحيث لم يبق لهم أثر يذكر إلا فى جبال مطماطة فإن مدينة قابس بقيت محتفظة بنصيب من سكانها الأصليين من البربر والرومان ولو أن العرب قد تكاثروا وتناسلوا فيها حتى أصبحوا هم غالبية سكانها .

التعريب :

وكان لهؤلاء الأعراب أثر فعال فى البلاد يتمثل فى صبغها بالصبغة العربية فأخذ السكان عاداتهم وقلدهم البربر فى حياتهم الاجتماعية وتناسوا لغتهم وعاداتهم فلم يبق لها ذكر فى قابس وأحوازها عدا بعض قرى مطماطة التى احتفظت بلغتها وبعض عاداتها ، كما أشرنا لذلك سابقا ، وظهر هذا الأثر أكثر وضوحا فى آدابهم فقرض البربرى الشعر بالعربية وكتب بهذه اللغة كما يكتب أبناؤها واندمجت العائلات بالمصاهرة واختلطت الدماء وذابت حتى الصفات الجسمانية للبربرى فأصبح عربى الملامح واللغة والأخلاق .

ويظهر أن سبب هذا التعريب السريع هو اتحاد الأرومة واتفاق النزعة والتفكير بحيث تعرب البربرى بإرادته ورغبته دون أن يرى فى ذلك الانقلاب أى جرح عليه ، فما العربى إلا ابن عمه فرقت بينهم الأحداث ثم التقيا بعد قرون فكان كل منهما للآخر .

---

(١) عن رحلة التجانى ص ٨٥ .

الفصل الثالث

بعد التعريب

السكان وقدماء الرحالين – السكان الحاليون

قلنا فى الفصل السابق أن العرب استقروا بقابس إثر الفتح الحقيقى فى أواخر القرن الأول للهجرة أى فى عهد حيان بن النعمان (٧٨–٨٨هـ) ، وعهد موسى بن نصير (٨٨ – ٩٥) ، وتكاثر عددهم بعد ذلك فذكرهم اليعقوبى فى القرن الثالث من جملة سكان قابس قال[1] : « وأهلها أخلاط من العرب والعجم والبربر » ويقصد من كلمة (العجم) السكان الذين هم من أصل رومانى ، على أن أحواز قابس بقيت بربرية خالصة إلى ما بعد الزحفة الهلالية وهو ما أشار له المقدسى بقوله[2] : « وباديتها برابر » .

وكان العرب أهل خيام وماشية فلم يركنوا فى بداية قدومهم لسكنى المدينة وإنما سكنوا باديتها حيث وجدوا مرعى لمواشيهم ، وهناك تكدست أحياؤهم واشتجرت خصوماتهم وسلكوا عادتهم القديمة فى الإغارة والإفساد ، فاجتمع على بادية قابس شران : شر سكانها الأصليين من البربر الذين انتشرت فيهم مذاهب الخوارج من صفرية ، وأباضية[3] وأكثرهم يستحل دماء المخالفين من المسلمين وأموالهم . وشر الأعراب الغزاة الذين يدينون بعاداتهم الجاهلية التى لم يستطع الإسلام أن يمحوها من أدمغتهم ، فكان المسافر بتلك الجهة والضعيف الفاقد للحماية عرضة لهذين

---

(١) البلدان ص ١٠٥ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٢٤ .

(٣) انظر الحديث عن أصول هذه النحل فى كتاب (مؤنس الأحبة فى أخبار جربة) بتحقيقنا وعن حركاتهم بقابس فى الباب الخامس الآتى .

الشرين . ذكر ابن ناجى فى معالمه[١] أن المعز الصنهاجى كان استعار كتبا من الزاهد الواعظ محمد بن عبد الصمد[٢] ولما أرجعها لصاحبها وجد فى أحدها بطاقة بخط المعز كتب فيها « زعمت ملوك الفرس وحكماء السير والسياسة أن أهل التنمس والوعظ وتأليف العامة وإقامة المجالس أضر الأصناف على الملوك وأقبح أثراً فى الدول فيجب أن يتدارك أمرهم ويبادر إلى حسم الأذى منهم » ففهم ابن عبد الصمد أنه مقصود بتلك البطاقة فخرج للحج ولم يكد يغادر قابس حتى قتله بعض الأعراب فى الطريق :

هذا شيخ زاهد فى طريقه إلى الحج لم يسلم من القتل ، فما بالك بعيره من التجار وأصحاب الأموال مما جعل التجارة لا تمر إلا فى خفارة مسلحة مما دفع بابن حوقل إلى التشنيع بهذه الحال فقال[٣] : « وفى باديتهم شر شمر ودين قذر ، وذلك أنهم لا يخلون من الشراة أو القول بالوعد والوعيد والغيلة لبنى السبيل والاعتراض لأموالهم فى القليل والكثير ، الويل لمن نام بينهم والحرب على من جاورهم واستجار بهم ، مخالفون أكثر أيامهم لسلطانهم مواريون فى الحقوق عليهم » . على أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا كلهم على هذا الشكل بل يوجد من بينهم بعض البيوتات الشريفة ذات الدين والأخلاق

---

(١) ج ٣ ص ٢٣٧ .

(٢) ذكر ابن عذارى هذه الحادثة فى البيان المغرب ج ١ ص ٤٠٤ قال . « فى سنة ٤٤٢ هـ كان خروج الفقيه الزاهد الواعظ أبى عبد الله (محمد) بن عبد الصمد من القيروان فى شهر رجب ووكلوا به رجالا توجهوا معه إلى مدينة قابس وكانت الرفقة خارجة من القيروان إلى مصر فأمر أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها وكوتب عامل قابس بأن لايترك من يدخل إليه ولا من يسلم عليه ولايخرج من موضع نزوله إلا فى يوم سفره فخرج وهو غير آمن على نفسه ثم قتل فى طريقه ذلك ، وكان رجلا واعظا يعظ الناس فيجتمعون إليه ويسمعون كلامه وكان له لسان وحدة فحذره المعز واجتمع عليه بعض فقهاء القيروان واستبشعوا ألفاظا ذكرها فرفعوا رقاعهم إلى المعز بذلك فكان سبب نفيه وحتفه » .

ويفهم من كلام ابن عذارى أن الرجل خرج منفيا ، ولم يخرج بإرادته .

(٣) المسالك ص ٤٧ .

السامية ، ولكن الفتن المشتعلة من عصر الولاة إلى عصر الحفصيين هى التى أظهرت أهل الفساد . ومن المعروف أن الحمارنة سكان مارث وعرام كانوا من العرب الحماة للقوافل وأبناء السبيل ، بل إن نفس الجند المرابط بتلك الجهات كان فى العصور الأخيرة لا يتحرك إلا بإشارتهم ، وقد اشتهروا بأن من اعتدى عليه ولجأ إليهم ردوا عليه متاعه وحموه من الأعراب ، وكانت لهم مكانة لدى أعراب الجهة لشرفهم وانقطاعهم للبر والخير ، قال الورثلانى فى نزهة الأنظار[1] : « وأما الحمارنة فمن أجود العرب وأكرمهم نسباً لديهم وشرفا عندهم قد جملهم الله برشاقة القد وحسن الخد وهيئة الركوب وزينة الملابس وسعة البيوت ولهم جاه عظيم عند سلاطين تونس فإن محلة الأعراب أعنى محلة زواوة التى تأتى إلى نواحى قابس على أيديهم والحكم فيها حكمهم » .

وهكذا بقيت الحال عهداً مديداً وقبائل سليم هى المسيطرة على البلاد التونسية وقد اقتسمت بينها البلدان والأراضى وجعلت تستخلص الضرائب والاتاوات على السكان وضعفت السلطة المركزية عن ردهم ومالت إلى الاكتفاء بتبعيتهم الاسمية لها وإلى الاستعانة بهم على حروبها ، وهذه السيطرة مكنت الأعراب من زحزحة السكان البربر من الأحواز فدخل بعضهم إلى الجبال وبعضهم إلى المدن حيث يوجد شىء من الأمن ، وامتزج البعض الآخر بهم امتزاجا كليا فذابت شخصيته فيهم واضمحل أثره .

أما سكان المدينة فقد بقوا على ماكانوا عليه خليطا من العرب والبربر والأجناس الأخرى الواردة على قابس فى مختلف العصور .

نعم إننا لا نستطيع اليوم أن نفرق بين جنس وآخر وبين العربى والبربرى مثلا لأن مقاييس الأنساب قد تغيرت ولم تبق عصبية للعائلات ولا للأجناس

---

(١) ص ٦٥١ .

وانتقلت العصبية إلى أحياء وعروش ، وقد نجد فى كل منها الأصل العربى والبربرى والرومانى ، ويصعب جدا أن يصل الباحث إلى حقيقة أصول هذه العروش أو العائلات ، وغاية ما يمكن هو الاستنتاج والتكهن الذى يخطئ ويصيب .

يذكر التجانى أن المنطقة الممتدة بين قصور المباركة[1] وقابس فى عهده كانت فى قسمة بنى نائل بن عامر من دياب[2]، والمنطقة الممتدة من قابس إلى مرحلة نحو الحامة كانت فى قسمة إخوتهم بنى وشاح بن عامر ومنهم غربا تبتدئ قسمة بنى أحمد بن دباب الخ[3] .

هذا خارج المدينة ، وأما فى داخلها فقد عرفت فيها بعض عائلات بربرية لا تزال فروعها معروفة إلى اليوم وفى مقدمتها عائلة بنى مكى اللواتيين التى ملكت المدينة مائة ونيفا وسبعين سنة ولا يزال اسما ابن مكى واللواتى معروفين فيها . والمعروف الآن من العروش فى قابس أربعة .

١ — عرش الجماعة : وهذا الاسم يذكرنا باسم بنى جامع الهلاليين الذين استقلوا بأمر قابس نحو ثلاثة أرباع القرن ما بين القرنين الخامس والسادس ، ولعل هؤلاء من بقايا أولئك خصوصا إذا علمنا أن كثيرا من بنى جامع الأولين بقيت عائلاتهم بقابس منهم الأمير مدافع بن رشيد آخر ملوكهم الذى هرب من قابس ثم طلب الأمان من الخليفة عبد المؤمن بن على فأكرمه وأرجعه لقابس فسكنها ومات فيها[4] .

---

(١) على نحو مرحلتين من قابس على طريق صفاقس .

(٢) نائل بن عامر بن جابر بن رافع بن دياب .

(٣) الرحلة ص ٨٥ — ٨٦ — ١٣٤ .

(٤) انظر رحلة التجانى ص ١٠١ والباب الخامس من هذا الكتاب .

٢ – عرش الشهامة : ينتسبون إلى رجل اسمه (شمام) ومنهم الذى ينسب إليه تقسيم مياه الغابة كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

٣ – عرش أولاد بيدان : ولعل هذا الاسم محرف عن أولاد ليدان (باللام) وبنو ليدان هؤلاء بربر لواتيون من أبناء عم بنى مكى وكانت لعائلتهم مكانة فى حكم بنى مكى لقابس .

٤ – عرش البرانية : والمفهوم من هذه الكلمة أنهم غرباء نزلوا المدينة فى عهود مختلفة والظاهر أن غالبيتهم من العرب :

على أن هناك عائلات أخرى غير هؤلاء تسكن المدينة الآن ، ونرى من اللائق أن نذكر المعروف من هذه العائلات والعروش فى أقسام قابس الخمسة :

١ – المنزل الشرقى : وتسكنه العروش الأربعة : أولاد بيدان – والبرانية – والجماعة – والشهامة .

٢ – المنزل الغربى : ويسكنه البرانية – والجماعة – والشهامة – والحمارنة – والمطاوة .

٣ – جارة الشرقية : ويسكنها : الجماعة – والحمارنة – والحزم .

٤ – جارة الغربية : ويسكنها الجماعة – والحمارنة – والحزم .

٥ – سيدى أبولبابة : وسكانه : الحمارنة – والحزم .

وإذا كان ابن حوقل قد وصف سكان قابس القدماء بأنهم (قليلو الدماثة غير محظوظين من الجمال والنظافة وفيهم سلامة)[1]، فقد تغيرت

---

(١) المسالك ص ٧٤ .

الطبائع وبدلت المقاييس بطول الزّمن وأصبح السكان متخلقين بجميع ما جلبته الحضارة الحديثة من أوضاع لسكان المدن الكبيرة ، ولعل الوصف الذى ذكره ابن حوقل قديما كان نتيجة للفتن الهوجاء والصراع بين المذاهب الدينية والسياسية فى ذلك الوقت . وسبحان مبدل الأحوال ومغير الدنيا من حال إلى حال ٥



الباب الخامس

ولاة وملوك



الفصـــل الأول

قبل الفتح الإسلامى

نكاد نجهل كل شىء عن النظام السياسى والإدارى لمدينة قابس فى العصور القديمة ، وليس لدينا من النصوص ما يساعدنا على الوصول إلى معرفة الأحـــداث والتطورات التى تعرضت إليها هذه الجهة ، ولكننا سنحاول استخلاص شىء من النتف العابرة التى وردت فى بعض الكتب التاريخية .

فى العهد البربرى :

نحن نجهل كل شىء عن نظام الحكم فى قابس فى العصر البربرى حين كانت مجرد قرية لا أهمية لها ، فهى بلا شك كانت تابعة لسلطة أحد زعماء البربر ، وقد تكون سلطتها انتقلت من زعيم إلى آخر ، على أنه من المعروف أن هذه القرى الصغيرة كانت غالباً هادئة لا تشتغل كثيراً بالأحداث السياسية إلا متى ظهر فيها زعيم سياسى أو جاءت فى طريقه فى مناسبة من المناسبات .

وكل ما عرف عن البربر فى ذلك العصر بصفة عامة أنهم كانوا لا يميلون لحياة العزلة والانفراد بل يعيشون جماعات أو قبائل شأن العرب فى الجاهلية . وتمتاز كل قبيلة باتحاد أفرادها وتعصبهم بعضهم لبعض ، أما مصالح القبيلة فيكلونها إلى رئيس يشترطون فيه عدة مزايا كالشجاعة والقوة والكرم والحلم وغيرها من الخصال الحميدة التى تجعله أهلا لذلك المنصب ، وتمكنه من الدفاع عن مصالح القبيلة الحيـــوية[1] . ولا شك أن قابس كانت غير بعيدة عن هذا النظام .

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ٢٤ .

أما الأحداث السياسية والحربية التى تعرضت لها قابس فى ذلك العصر فنحن نجهل عنها كل شيء ، ولانعرف ما إذا صادفتها حروب وأحداث وتطورات وما إذا كانت تنفرد بنظام خاص وزعيم خاص أو أنها كانت خاضعة لأحد الزعماء فى مكان آخر .

فى العهد الفينيقى :

وجاء الفينيقيون للبلاد تجاراً وكانت علاقتهم بالأهالى تجارية محضة فلم يتدخلوا فى شؤونهم السياسية وبذلك حافظوا على العلاقات الطيبة معهم وكانت قابس مجرد مصرف تجارى ولكن قرطاجنة حين قوى مركزها وتمتنت شوكتها المادية أرادت أن تلعب دوراً فى سياسة البلاد . . . وتمكنت بواسطة بعض عملائها من البربر أن تبسط سيطرتها شيئاً فشيئاً على السكان فتداخلت فى شؤونهم وقبضت على زمام الحكم فيهم .

وسلطت عليهم أنواع الضرائب وسخرتهم لخدمة الجندية ولصناعة السفن وعاقبت المخالفين منهم بكل شدة وقسوة .

ومن المعروف أنه كان لقرطاجنة ولاة يمثلون الحكومة المركزية فى سائر المناطق المحتلة تختارهم غالباً من بين التجار والصناع أى من الطبقة البرجوازية الرأسمالية التى كثيراً ما تقدم مصالحها الشخصية على مصالح الأمة(١) .

ولما كانت قابس مدينة بحرية ومركزاً تجارياً هاماً فلا شك أنه كان لها وال قرطاجنى وكان لها نائب أو نواب فى مجلس الشيوخ القرطاجنى .

فى العهد الروماني (١٤٦ ق م — ٤٢٩ م) :

وانتصرت رومة على قرطاجنة سنة ١٤٦ ق م . واحتلت مركزها فى إفريقيا ، والظاهر أن قابس بقيت خارجة عن هذا النضال فالوقائع كلها كانت

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠ — ٤١ .

فى الجهات الشمالية من البلاد وأقرت رومة نظاماً إدارياً فى إفريقيا ، فعهدت برئاسة الشؤون العموميــة إلى حاكم عام يحمل اسم (البروكنسول — Proconsul) وكان يستعين على القيام بمهمته بموظفين آخرين من الرومان والبربر لهم السلطة التامة على الأهالى . وكان هؤلاء الأهالى المساكين يتألمون من شتى الضرائب المفروضة عليهم فرضاً كالضريبــة الشخصية والضريبة الفلاحية وغيرهما[١] .

واشتغل الرومان بالناحية الزراعية فجلبوا للبلاد كثيراً من المعمرين : وازدهرت البلاد فى عهدهم وكانت قابس من المستعمرات الزراعية الهامة فنشأت حواليها كثير من الضياع والحقول وأصبحت فى العهد المسيحى مركز أسقفية تابعة لأبرشية طرابلس[٢] .

فهل كانت قابس تابعة فى النظام المدنى لطرابلس كما كانت عليه فى النظام الدينى ؟ أم كانت مقاطعة مستقلة بنفسها ؟ هذا سؤال لم نعثر على جوابه بعد .

وفى هذا العهد قام البربر بعدة ثورات للتخلص من الاستعمار الرومانى مغتنمين كل فرصة لذلك ، وساعدهم على ذلك اقتصار الرومان على احتلال المراكز العسكرية والاقتصادية الواقعة بين البحر وخط مجاور للصحراء أطلقوا عليه اسم (ليميس — Limes) وهو عبارة عن سلسلة من الحصون يسكنها قدماء المحاربين المكلفون بحفظ الأمن هناك[٣] .

وجاءت الديانة المسيحية فاعتنقها البربر كوسيلة لمناوأة الرومان المحتلين ولما أصبحت هذه الديانة هى الديانة الرسميــة للدولة اغتنم البربر فرصة

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) J. Servonnet et F. Lafitte : Le golfe de Gabès en 1888, p. 220
(٣) إفريقيا الشمالية ص ٧٢ .

الخلافات المذهبية فدخلوا فى المذهب المعادى للحكومة وشاركوا فى جميع الثورات الدينية .

والظاهر أن قابس كانت من المدن التى راقبت هذه الأحداث عن كثب فسكانها خليط من البربر والفينيقيين والرومان والقوة بيد الدخلاء وإذا كانت هناك أحداث فنحن نقدر أنها لم تتجاوز أحوازها البعيدة كجبال مطماطة وجبل دمر بجهة ورغمة :

مع الوندال (٤٢٩ — ٥٣٤ م) :

ودخل الوندال قابس عند احتلالهم لبلاد المغرب العربى على إثر فشل الوالى الرومانى أمام جيوشهم الجرارة المتوحشة الناهبة ، والأظهر أنهم لم يجدوا أية مقاومة فى هذه الجهة بعد استسلام العواصم الكبرى . وكان انتصارهم السريع على الحاميات الرومانية معزوا فى غالبه إلى إعانة البربر سكان البلاد الذين يحاولون التملص من الاستعمار الرومانى ولو بواسطة استعمار آخر شأن الضعيف فى كل مكان وزمان .

والواقع أن إفريقية فقدت فى هذا العهد كثيراً من الآثار العمرانية الرومانية التى خربها الوندال تخريباً تاماً لكنهم عاملوا سكان البلاد معاملة طيبة بالنسبة لسابقيهم .

فسياسة الرومان سلكت النظام الطبقى فجعلت من السكان ثلاث طبقات مختلفة الاعتبار . طبقة عليا وتتمتع بجميع الحقوق والامتيازات دون غيرها ، وهذه الطبقة لا يسمو إليها إلا الرومانيون — (Les Romains) ، وطبقة وسطى وتشمل السكان اللاتينيين — (Latium) ، وطبقة سفلى تتكون من أهالى البلاد وأطلق عليها الرومان اسم الأجانب (Pérégrins) أى أن أصحاب البلاد هم الأجانب فى عرف الاستعمار الرومانى ، وهذه الطبقة بالخصوص

كانت مضطهدة ليس لها أى حق فيما تمتاز به الطبقة الأولى وكانت هى التى تتحمل الضرائب المعفاة منها الطبقة الأولى . ولما جاء الوندال حافظوا على النظام الإدارى الرومانى فى مجموعة من مجالس استشارية وبلدية الخ . وقسموا البلاد التونسية إلى خمسة أقسام إدارية كانت جهة قابس قسما من أقسامها وفرقوا فيها الولاة والموظفين وأسسوا محاكم قضائية خاصة بالفصل فى قضايا الوندال وأخرى خاصة بقضايا السكان من بربر ورومان[١] .

وكانوا أميل إلى الرأفة بالبربر بقدر ما كانوا قساة على الرومانيين . ولما كان نظامهم ماكيا مستبداً استأثر الملك بتسمية الولاة والعمال والموظفين ورجال الكنيسة الخ ولكن سيرة الوندال فى تقسيم الأرض التى احتفظوا لأنفسهم بالتصرف فى أخصب جهاتها وترك الباقى بيد الأهالى مقابل دفع ضرائب باهظة مع محاولة هؤلاء الأهالى الاحتفاظ بشخصيتهم وشعورهم بعزتهم الوطنية جعلهم يتململون من المحتلين الجدد وتظهر نواياهم هذه للمحتلين فيعمدون إلى هدم جميع التحصينات فى المدن البربرية وبذلك بدأ ظهور الشر بين الأسياد الجدد والسكان .

فى العهد البيزنطى (٥٣٤ — ٦٤٠ م) :

ولم يكد البيزنطيون يرتكزون فى هذه البلاد حتى شمروا للقضاء على مخلفات الوندال فعاملوهم بقسوة وشدة وشردوهم فى كل مكان وافتكوا منهم كل ما اغتصبوه سابقا من أراض وضيعات وزعت بعد افتكاكها على الرومانيين الذين عاملهم أبناء عمهم المحتلون الجدد بكل لين واحترام ، وأما الأهالى فقد حددوا فيهم السياسة الرومانية سياسة (فرق — تسد) ، وقسم البيزنطيون البلاد التونسية إلى قسمين : قسم الشمال التونسى وأطلقوا عليه اسم (zeugitane) ، وقسم الجنوب التونسى وأطلقوا عليه اسم (Byzacène) ،

---

(١) إفريقيا الشمالية فى العصر القديم ص ١٢٢ .

ولكل من هذين القسمين عامل يقوم على تيسير شؤونه تحت نظر الوالى العام البيزنطى صاحب قرطاجنة[١] الذى كانت له سلطة واسعة على جميع الشؤون السياسية والإدارية والعدلية والمالية .

وأكبر غلطة ارتكبها البيزنطيون فى سياستهم هى بيع وظيفة عمال المقاطعات أى أنهم سلكوا نظاما إقطاعيا ظالما . فكانت وظيفة العامل تشترى بأغلى الأثمان ، ولا يكاد العامل يتسلم هذه الوظيفة حتى يشمّر لاسترجاع المال الذى دفعه من الأهالى ولتكوين ثروة بأسرع ما يمكن حتى يضمن لنفسه شراء الوظيفة مرة ثانية أو يستغنى عنها بما كسبه من الأولى .

وهكذا دفعت هذه السياسة وما شابهها السكان إلى مناهضة المحتلين ، فقاموا بثورات عارمة لا ندرى هل كان لقابس فيها نصيب ؟ على أننا نميل دائما إلى أن هذه المدينة كانت بعيدة عن مثل هذه المحاولات ، اللهم إلا بعض جهاتها وخاصة الجبلية فلا يبعد أن تكون قد شاركت فى التمرد وذلك يرجع إلى ما ذكرناه سابقا من كثرة السكان الأجانب بقابس من جهة وإلى قربها من البحر وبعدها عن الحصـــون الجبلية التى تدبر فيها المؤامرات غالبا .

هذا بالرغم من أن الثورة الكبرى التى قام بها بربر طرابلس وبرقة بين سنتى (٥٤٥ – ٥٤٦ م) ضد البيزنطيين قد انتظمت كامل الجهة من برقة إلى قابس ؛ قال حسين مؤنس فى كتابه (فتح العرب للمغرب) نقلا عن كتاب (البربر) لمرسى ، متحدثا عن العهد الذى تلا الثورة المذكورة : « وظهرت دويلات وطنية لها قوانينها وأديانها وحكامها الذين كادوا أن يكونوا مستقلين فكانت لواتة التى تحتل الساحل من برقة إلى قابس ومعها

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٨ .

هوارة ونفوسة على جانب عظيم من القوة وكان فى استطاعتها بعد ذلك بسنوات قلائل أن تجمع نحوا من ستة عشر ألف مقاتل »[١] .

لقد كانت الثورات تنتظم هذه الجهة الواسعة ولكننا نستبعد أن تنال من العواصم المحصنة والمليئة بالجيش البيزنطى كطرابلس وقابس .

بقى السؤال الذى لم نجد له جوابا لحد الآن وهو هل كانت قابس فى هذا العهد مركز ولاية ؟ وهل جعل منها عامل منطقة الجنوب عاصمة له ؟ أم أنها كانت مدينة تابعة لمركز آخر بالجنوب ؟

والأظهر أنها كانت تابعة لمركز طرابلس مدنيا كتبعيتها لها دينيا . قال حسين مؤنس نقلا عن ديل (Diehl) فى حديثه عن فتح طرابلس من طرف المسلمين : «لم يتم فتح إقليم طرابلس بسقوط صبرة إذ بقى من مدنها الكبرى جربة فى جزيرة جربة (Menin) وقابس (Tacapes) على حدود إفريقية وبقى كذلك عدد من المسالح والحصون مثل جرجيس (Girzis)[٢]. وعبارة : بقى من مدنها تدل على أن جربة وقابس وجرجيس كلها كانت تابعة لولاية طرابلس .

وعلى كل فيكفى أننا عرفنا بعض الشىء عن النظام السياسى والإدارى فى المقاطعات منذ العهد الفنيقى إلى العهد البيزنطى وهو كل ما نطمع فيه من هذا التاريخ القديم .

---

(١) فتح العرب للمغرب ص ٥١ .

(٢) فتح العرب للمغرب ص ٦٦ — وإطلاق حسين مؤنس اسم Meninx على مدينة جربة خطأ إذ أن Meninx هى مدينة القنطرة وتقع فى جزيرة جربة قرب القنطرة الحالية بينما تقع مدينة جربة القديمة بجهة (الحارة) قرب (حومة السوق) (انظر مؤنس الأحبة) بتحقيقنا .

الفصل الثانى

ولاة وثورات

فتح قابس – فتن وثورات – النظام الإدارى فى هذا العهد

الفتح الإسلامى :

كان للمسلمين عيون على إفريقية توافيهم بأخبارها ، وكانوا على علم بما يجرى على صعيدها من ثورات وأحداث ضد البيزنطيين ، ويظهر أن تلك الأحداث قد حفزتهم للإغارة على إفريقية إغارة لا يقصدون من ورائها فتحا حقيقيا وإلحاقهما بالعالم الإسلامى وإنما يقصدون جس نبضها وعجم قناتها واستطلاع طرقها ومرافقها تمهيداً لفتح كامل . ولذلك خف إليها من مصر عبد الله بن أبى سرح فى جيش لا يتجاوز عدده عشرين ألفا فى سنة ٢٧هـ ، وانطلق هذا الجيش رأساً إلى جهة سبيطلة دون أن يتوقف فى الطريق . وتقابل مع (جرجير – أو جرجيوس) الحاكم البيزنطى فقتله ثم رضى المسلمون بالانكفاء إلى بلادهم مقابل غرامة مالية دفعها لهم البيزنطيون .

ولم يتوقف هذا الجيش فى قابس بل تركها دون فتح وتجاوزها إلى إلى سبيطلة ، هذا ما تكاد تجمع عليه الروايات التاريخية ، يقول حسين مؤنس : « يظهر أن جرجيوس استعد استعدادا كبيرا فى قابس لأن العرب سيتحاشونها عندما يشرعون فى غزو إفريقية فى حملة عبد الله بن سعد بل سيقصدون إلى سبيطلة رأساً ، ولو قد وجدوا الاستيلاء عليها هينا لأخذوها فى طريقهم »(١) .

---

(١) فتح العرب للمغرب ص ٦٧ .

ثم يقول الأستاذ حسين مؤنس معللا إهمال المسلمين لفتح قابس فى غزوة سبيطلة : « وربما حصن (جرجيوس) بعض ثغوره الشرقية كقابس لأن المسلمين وجدوها على الأهبة للقائهم حين أدركوها . وقد تحصن أهلها خلف أسوارها فلم يمكنهم الإستيلاء عليها »[١] .

ويقول فى مكان آخر : « تتفق الروايات كلها على أن عبد الله (بن سعد) حاصر طرابلس[٢] فى طريقه ثم استصوب أن ينصرف عنها كسبا للوقت وكذلك فعل عند قابس »[٣] .

ويقول فى مكان آخر : « حين أدرك (ابن أبى سرح) قابس ، وجد أهلها متحصنين فانصرف عنها إذ أشار عليـــه الصحابة أن لا يشتغل بها عن إفريقية »[٤] .

إذن فقابس لم تفتح فى الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ ، كما يزعم ياقوت معجمه ، وقد ذكرنا تفرده بهذه الرواية سابقا . وهى رواية لا مستند لها ، وربما لم يطلع ياقوت على أقوال المؤرخين من قبله فاعتمد على أن قابس كانت فى طريق الجيش العربى فلا يبعد أن يكون قد فتحها قبل تجاوزها إلى سبيطلة . والواقع أن ما فهمه يا قوت وبنى عليه — حسب الظن — تحديده لسنة فتح قابس (٢٧ هـ) هو الذى يتبادر إلى ذهن المتتبع للتاريخ ، فقابس كانت من الحصون الهامة والمراكز الحربية الخطرة بصفتها واقعة على رأس خليج بحرى وبوجودها فى مجمع طرقات هامة ، لكن فهم المؤرخ لااعتبار له أمام النصوص .

نعم إن هذه النصوص لاتحدد لنا تاريخ فتح مدينة قابس ولكنها تتظافر

---

(١) نفس المصدر ص ٧٦ .
(٢) يفهم من هذا أن مدينة طرابلس انتقضت بعد فتح ابن العاص لها وتحصن فيها الروم .
(٣) فتح العرب للمغرب ص ٨٢ .
(٤) فتح العرب للمغرب ص ٨٥ .

على أنها لم تفتح سنة ٢٧ هـ ، وعللوا ذلك بأنها كانت محصنة وأن أهلها استعدوا للدفاع عنها خلف حصونهم عند مرور الجيش العربى بهم وأن هذا الجيش رأى أن فتحها سيقتضى حصاراً طويلا وجهوداً عظيمة من الأجدر أن توجه نحو العاصمة الكبيرة إرهابا لبقية الحصون .

إلا أنى أجد فى النفس شيئا من هذا التعليل الأبتر ، فابن أبى سرح كان من قواد بنى أمية اللبقين الذين اشتهروا بالدهاء وحسن السياسة مما جعل ابن الزبير يثنى عليه الثناء الجم فى خطابه الذى ألقاه بالمدينة عند قدومه على الخليفة ببشرى الفتح ، وليس من المعقول أن يترك ابن أبى سرح حصنا دفاعيا هاما مثل قابس خلف جيشه يتحكم فى طريق روعه وليس عنده أمل فى وصول إمدادات جديدة إليه تحمى خط رجعته .

والتعليل المقبول لإهمال ابن أبى سرح أمر قابس هو أن المسلمين كانت لهم معلومات مدققة عن قوة البيزنطيين فى إفريقية إثر الثورات البربرية ضدهم فى طول البلاد وعرضها وأنهم كانوا على علم بأن الحصون التى خلفوها وراءهم مثل قابس لا أهمية عسكرية لها وأنه لا يخشى خطرها على خط رجعة الجيش وأنه كان لا يوجد فيها غير حامية ضعيفة يمكن لها أن تحمى الحصن فى وجه الجيش أياما مختبئة خلف الأسوار ولكنها لا تستطيع أن تتجاوز ذلك ، أضف إلى ذلك اطمئنان المسلمين إلى ولاء البربر لهم فلا شك أن البربر المنتشرون ما بين قابس وبرقة كانوا يساعدون الجيش الإسلامى[1] وأنهم كانوا يحمون خط رجعته . وقد كنا أشرنا إلى أن بربر هذه الجهة كانوا ثائرين على الحكم البيزنطى وأنهم كانوا يتحكمون فى الأراضى

(١) فتح العرب للمغرب ص ٨٥ ، وقد نقل عبارة النويرى فى نهاية الأرب « فسار ابن أبى سرح وبث السرايا فى كل وجه ، وكان يؤتى بالبقر والشاة والعلف » . ووردت العبارة نفسها فى معالم الإيمان ج ١ ص ٣١ مما يدل على أن البربر كانوا يوفرون للجيش العربى جميع المساعدات .

الواقعة ما بين برقة وقابس . وقد جاء فى بعض النصوص أن الجيش الإسلامى نفسه كان يضم جماعة من هؤلاء البربر ، ثم اطمئنان المسلمين أيضاً إلى عدم تلقى البيزنطيين أية نجدة من الخارج ، فقد كان جرجير انفصل عن بيزنطة نهائيا وأعلن استقلاله عنها وليس له من القوة فى الداخل ما يساعده على مقاومة الجيش العربى الغازى لعاصمته من جهة ، وإرسال نجدات للحصون الشرقية تستطيع الخروج من الأسوار وقطع خط الرجعة على المسلمين من جهة ثانية .

فقابس حينئذ لم تفتح سنة ٢٧ هـ ، ولكن متى فتحت ؟ هذا هو السؤال الذى لم نجد له جوابا تطمئن إليه النفس ، إذ أن النصوص الموجودة تحت اليد لم تتعرض لهذا الأمر ؟

والمعروف أن المسلمين فى إفريقية لم تستقر أقدامهم طيلة السنوات التى عقبت الغزوة الأولى أى من سنة ٢٧ هـ إلى تغلب حسان بن النعمان على الكاهنة حوالى سنة ٨٢ هـ ، وقد تخللت هذه السنوات عدة غزوات متعاقبة ، وفى كل مرة كان المسلمون يضطرون إلى فتح جديد وجهود جديدة بسبب النجدات البيزنطية التى كانت تتوارد على إفريقية محاولة حمايتها من رسوخ أقدام المسلمين فيها مع ما ينضم لهم من عملائهم البربر .

فنحن نعرف أنه لم يكد الجيش العربى الأول يتراجع إلى مصر حتى فرض البيزنطيون ضريبة ثقيلة على السكان تساوى ما غرموه للعرب[1] .

فثار البربر وطردوا عامل بيزنطة واضطرمت الفتن بين الروم والبربر ، وجاء معاوية بن حديج لإفريقية على رأس جيش عربى سنة ٣٤ هـ[2]

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٢) يذكر غالب المؤرخين المغاربة أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات سنة ٣٤ هـ ، وسنة ٤٠ هـ ، وسنة ٥٠ ، وهى رواية أقدم المؤرخين العرب ابن عبد الحكم ، ولكن الأستاذ

واستقر بجهة القيروان واضطر لملاقاة جيش بيزنطى جديد فى سوسة فتغلب عليه قائده عبد الله بن الزبير .

ونجد معاوية بن حديج فى إفريقية سنة ٤٥ هـ ، بعد استقرار الحالة فى الشرق وخمود الفتن بموت على بن أبى طالب (رضى الله عنه) واستتباب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، فبقى بن حديج يكافح البربر والروم فى الشمال بينما فتح عامله على طرابلس رويفع بن ثابت جزيرة جربة سنة ٤٧ هـ .

ولم تكد تتم الفتوحات الكبيرة فى عهد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، حتى ثار البربر بمساعدة الروم تحت قيادة الزعيم البربرى كسيلة . واستطاعوا أن يطردوا العرب إلى ما وراء حدود إفريقية ، وعلى إثر هذا الزعيم تولت أمر البربر الكاهنة فارتكبت أكبر خطأ عرفه التاريخ بإحراق غابات الزيتون والأشجار فى إفريقية مما أثار ضدها الروم وكثيراً من البربر فانحازوا إلى العرب ومدوا حسان بن النعمان بمساعدتهم وأعطوه طاعتهم حتى تمكن من التغلب عليها سنة ٨٢ هـ ، واستتب الأمر نهائياً للمسلمين . قال حسين مؤنس نقلا عن نهاية الأرب للنويرى : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه

= حسين مؤنس شك فى صحة هذه الرواية ورجح أنه غزا إفريقية مرة واحدة سنة ٤٥ هـ ، معللا ذلك بأن ابن حديج من أنصار عثمان وأنه وجد فى مصر سنة ٣٥ ، على رأس أنصار عثمان وأن سنة ٣٤هـ ، كان فيها الهيجان شديداً ضد عثمان فلا يعقل أن يكون ابن حديج قائد جيش مصر بعيداً عن مسرح الحوادث ، وفى سنة ٤٠ لم يستقر الأمر بعد لمعاوية ولم يشتغل المسلمون بالفتوحات ، وفى سنة ٤٠ هـ ، كان ابن حديج معزولا عن قيادة جيش مصر الخ .

والظاهر أنه لا مبرر لهذه التعليلات ما دامت الروايات مطبقة على تحديد السنة وقد يكون ابن حديج جاء إفريقية سنة ٣٤ ، وبقى بعيداً عن مسرح الفتن لم يتصل به إلا بعض الفترات كان يضطر فيها القدوم على مصر ، وأنه استمر مشغولا بإفريقية حتى عزل عن القيادة .

وأن الرواية الثانية التى تجعل غزوة ابن حديج لإفريقية سنة ٤٥ هـ ، قد تكون هى الغزوة التى تمكن فيها ابن حديج من الفتوحات العظيمة فى الشمال .

جمع أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة فسره ذلك وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة »[1] .

وقد يفهم من هذه العبارة (وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة) أن قابس فتحت فى هذه الغزوة (سنة ٨٢ هـ) ولكن هناك اعتبارات أخرى تجعلنا نستبعد ذلك وتصطرنا للتكهن بأن فتحها كان ما بين سنتى ٣٤ هـ و ٥٠ هـ ، فى عهد معاوية بن حديج أو فى أول عهد عقبة بن نافع .

١ ـ لأن ابن حديج جعل « مسيره على مقربة من الساحل فتقدم حتى أفضى إلى سهل تونس »[2] ، ولا شك أنه افتتح الحصون التى جاءت فى طريقه .

٢ ـ لأنه أسس فى مكان القيروان (قيروانا) ابتنى بها دورا وحفر بها آبارا تسمى آبار حديج[3] .

٣ ـ لأن أبا لبابة الأنصارى دفين قابس تتفق الروايات أنه مات سنة ٤٠ هـ ، ودفنه بقابس يدل على أنها كانت إذ ذاك بلدا إسلاميا أو أن الجيش الإسلامى قد طرقها فى تلك السنة وفتحها أو حاول فتحها[4] .

٤ ـ إذا ذهبنا على أن فتحها كان على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، فالفاتح لها لم يكن عقبة نفسه وإنما هى إحدى سراياه التى كان يرسلها لمختلف الجهات أثناء توغله فى إفريقية ، لأن عقبة قدم إفريقية من فزان على

---

(١) فتح العرب للمغرب ص ٢٥٣ .
(٢) فتح العرب للمغرب ص ١٢٠ .
(٣) الخلاصة النقية ص ٥ ومعالم الإيمان ج ١ ص ٤٢ .
(٤) انظر عن أبى لبابة الفصل الأول من الباب السادس فهناك ذكرنا الخلاف الواقع فى شأنه .

طريق غدامس فنفزاوة والجريد ثم توغل من هناك إلى جهة القيروان[1] .

وزعمنا بأن قابس لم يتأخر فتحها عن سنة ٥٠ هـ ، اعتمدنا فيه على أن عقبة بن نافع أسس مدينة القيروان فى تلك السنة ولا يمكن أن يؤسس عقبة مدينة ستصبح مستقر الجيش الفاتح ويذهب منها فاتحا إلى المحيط الأطلسى بالمغرب الأقصى وتبقى قابس حصنا للعدو ويطل على مجمع طرقات إفريقية وهى باب إفريقية ونقطة الاتصال بطرابلس .

هذا وإننا لا نزعم أن قابس فتحت من طرف أحد هذه الجيوش الكبيرة ، جيش ابن أبى سرح سنة ٢٧ هـ ، وجيش ابن حديج سنة ٣٤ أو ٤٥ ، وجيش عقبة سـنة ٥٠ ، بل قد يكون فتحها من طرف إحدى السرايا الصغيرة التى كان يرسلها عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى سرح فى زمن ولايتهما على مصر إلى إفريقية للإغارة والاستطلاع .

قال ابن عبد الحكم[2] : « كان عبد الله بن أبى سرح أمير مصر يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون » فقد تكون إحدى هذه السرايا التى كانت تصل إلى قابس وما حواليها قد تمكنت من فتحها وقد يكون أبو لبابة الأنصارى مات فى إحدى هذه الغارات ، ولكن الفتح لم يستقر إلا فى إحدى الغزوات الكبرى .

فترة مجهولة :

وكما جهلنا تحديد السنة التى وقع فيها فتح قابس كذلك نجهل التطورات

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٦٢ .
(٢) فتوح مصر وإفريقية ص ٤٢ .

والأحداث التي مرت على قابس من ذلك العهد حتى استقرار الفتح نهائيا سنة ٨٢ هـ، ونجهل هل بقي المسلمون مستقرين بقابس أثناء الزحوف التي وقعت بين المسلمين والبربر والروم أم أنهم غادروها عند تغلب كسيلة على عقبة وطرد المسلمين إلى ما وراء الحدود، وعند تغلب الكاهنة على حسان في غزوته الأولى ؟ وكل ما نعرف أن بعض المسلمين اختار البقاء في إفريقية حين أمنهم كسيلة وحماهم من عادية جيشه، وبقيت القيروان تعج بجماعات منهم حتى رجع الجيش العربي منتصرا بعد ذلك .

والأقرب أن تكون قابس مضطربة السياسة أثناء هذه الفترة : يكون حكمها عربيا كلما كان للعرب نفوذ في البلاد ثم ينقلب بربريا أو روميا أثناء الفترات التي تغلب فيها هؤلاء على العرب، ولا شك أن كثيرا من البربر كانوا معتنقين للإسلام أو مناصرين للمسلمين وعلى الأخص بربر الجنوب .

كذلك نجهل مركز قابس أثناء الفترة التي تلت استقرار الإسلام فيها أي بعد سنة ٨٢ هـ، فلا نعرف هل كانت مركز ولاية تابعة رأسا لعاصمة القيروان أم أنها كانت ملحقة بطرابلس التي كانت مركز ولاية تابعا للقيروان ونجهل كذلك أسماء المشرفين على حظوظها في تلك الفترة حتى سنة ١٤١هـ، حين أصبحت إحدى الولايات التابعة لخليفة نفوسة الأباضي .

ثورات وفتن :

أشرنا فيما سبق إلى مساعدة بعض القبائل البربرية للمسلمين أيام الفتح انتقاما من البيزنطيين وتشبثا بالنزعة الاستقلالية المشهورة عند البربر وأعقب الفتح الحقيقي زمن حسان بن النعمان فترة من الهدوء والراحة سكنت فيها الفتن واستسلم البربر للواقع اطمئنانا إلى التعاليم الإسلامية التي

تجعل الناس سواء لا مزية لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ولكن هذا السكون لم يدم إلا فترة معينة كان فيها التمسك بالتعاليم الإسلامية هو دستور حكام إفريقية حتى ظهرت النزعة العربية المتمسكة بالنعرة الجنسية أيام الأمويين ، هذه النزعة التى تجعل السيادة للعرب وحدهم ، فلم تكد تظهر هذه النزعة فى إفريقية حتى تململ البربر وتحركوا لشن الفتن والثورات وجعلوا من المذاهب الدينية الجديدة المتطرفة فى تعاليمها كالصفرية والأزارقة والأباضية[١] التى ظهرت فى إفريقية مع بزوغ القرن الثانى للهجرة جعلوا منها مطية لمقاومة السلطة العربية وتستروا بها لتلبية نداء النزعة الاستقلالية فى نفوسهم ، وأشهر ثوراتهم ثورة (عكاشة الصفرى) على الأمير حنظلة بن صفوان الذى استطاع التغلب على الثورة سـنة ١٢٤ هـ وإثر ذلك قام (عبد الرحمن بن حبيب الفهرى) من أحفاد عقبة بن نافع مطالباً بالولاية لنفسه فقام معه ثوار البربر وتغلبوا على القيروان سنة ١٢٩ هـ ولكن عبد الرحمن وإخوته وأبناءه من الفهريين لم يستقم لهم حال إذ كان الثوار البربر ينازعونهم السلطة ويشعلون حولهم حروباً وفتناً عمياء[٢] .

وأثناء هذه الفتن نجد قابس ممراً لكثير من هذه الجيوش يدخلها هذا ليخرج منها فيحل محله الآخر ، وهكذا تحملت هذه الجهة أكثر ما تحملته جهة أخرى من إفريقية بسبب مركزها الموجود على طريق النجدات والقريب من منازل القبائل البربرية القوية فى نفوسة ودمر ونفزاوة ومن الصحراء حيث يلتجىء غالباً بعض الثوار إثر هزائمهم فنجد مثلا أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مر فى جيوشه بقابس وذهب إلى جبل نفوسة سنة ١٣١ هـ ، ليقتل

---

(١) انظر خلاصة تعاليم هذه الفرق فى تمهيدنا لكتاب (مؤنس الأحبة فى أخبار جربة)

(٢) خلاصة تاريخ تونس ص ٥٥ .

الثائرين الأباضيين عبد الجبار بن قيس المرادى والحارث بن تليد الحضرمى ويقضى على ثورتهما ، فيقوم اسماعيل بن زياد إمام الأباضية مطالباً بثأرهما ويحتل قابس سنة ١٣٢ هـ[١] ، وأن (حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب) لما وثب على عمه إلياس أمير القيروان فقتله وأخذ مكانه هرب عمه عبد الوارث إلى قبيلة ورفجومة البربرية لاجئاً إلى زعيمها عاصم بن جميل ، فحاربهم حبيب فهزموه فانحاز إلى قابس وزحف البربر إلى القيروان فامتلكوها ثم نفروا إلى حبيب بقابس فهزموه واحتلوا المدينة ثم التحقوا بحبيب فى جبال أوراس فكانت الدائرة عليهم وكانت هذه الوقائع حوالى سنة ١٣٨ هـ[٢] .

وهكذا كانت قابس أثناء هذه الثورات تنتقل من يد إلى يد كغالب مدن إفريقية فلم تتركز فيها سلطة ولا اطمأنت لراحة ودعة .

الأباضيون :

ذكرنا فى تحقيقنا لكتاب (مؤنس الأحبة) أن هذه الفرقة تنسب إلى الإمام عبد الله بن أباض الذى عاصر الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأن هذا المذهب دخل إفريقية كغيره من مذاهب الخوارج وانتشر لدى البربر خصوصاً فى جهات نفوسة ودمر وأوراس .

وقدم من الشرق أثناء الفتن الإفريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن أبى السمح الأباضى[٣] فأعطى له بربر نفوسة الطاعة ونصبوه إماماً لهم فحاصر طرابلس وتملكها سنة ١٤٠ هـ ، ثم انتقل بجموعه إلى قابس فاحتلها سنة ١٤١ هـ وترك فيها والياً من قبله ، وتقدم إلى القيروان فاحتلها وترك فيها

---

(١) مؤنس الأحبة ص ٤٤ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٨١ .

(٣) انظر ترجمته فى (مؤنس الأحبة) .

عبد الرحمن بن رستم – مؤسس الدولة الرستمية بتاهرت بعد ذلك – والياً من قبله .

وبقيت قابس تابعة لأبي الخطاب حتى قدم محمد بن الأشعث والياً على إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤ هـ ، فقضى على أبي الخطاب قرب طرابلس ووافى قابس فى جيشه فاطرد منها العامل الأباضى وتقدم إلى القيروان فافتتحها وشرع فى تطهير البلاد من الفتن .

والظاهر أن قابس نعمت فى ظل الأباضيين خلال ثلاث سنوات بشىء من الطمأنينة وكثير من العدل والمساواة فهؤلاء الناس كانوا على غاية من التشدد فى الدين والتمسك بالحق والقيام على نصرته والزهد فى الدنيا .

ولا شك أن هذا السكون الذى نعمت به قابس استمر كامل عهد ابن الأشعث (١٤٤ – ١٤٦) وعهد الأغلب بن سالم التميمى جد الأغالبة (١٤٨ – ١٥٠) .

وفى هذه السنة (١٥٠ هـ) ثار (أبو قرة الصفرى) فى جموع عديدة من البربر فذهب الأغلب إلى حربه بالزاب فاغتنم الحسن بن حرب الكندى عامل تونس الفرصة وأعلن العصيان وهاجم القيروان فافتتحها فرجع الأغلب بسرعة وكاتب ابن حرب يعظه ويعرفه فضل الطاعة ووبال المعصية فأجابه الحسن بقوله :

ألا قولا لأغلب غير سر	مغلغلةعن الحسن بن حرب
بأن البغى مرتعه وخيم	عليك وقربه لك شر قرب
فإن لم تدعنى لتنال سلمى	وعفوى فادن من طعن وضرب

فسار الأغلب من الزاب إلى قابس التى بقيت فى طاعته ، وهناك وافاه رسول الخليفة ومعه رسالة إلى ابن حرب ينصحه بالطاعة فامتنع من الرضوخ ، فهاجمه الأغلب ففر إلى تونس ثم أعاد الكرة والتقى بالأغلب فى معركة كبرى

مات فيها الأغلب[١] ، واستشرت نار الفتن فى كل مكان ويظهر من مختلف الروايات أن مدينة قابس بقيت مخلصة لأمراء القيروان نواب الخلافة على إفريقية بعد الأباضيين فى عهد ابن الأشعث والأغلب التيمى، ثم فى كامل عهد الأمراء المهالبة (١٥١ — ١٧٨ ﻫ) فنحن نجد أن الفضل بن روح المهلبى آخر المهالبة لما ثار عليه (ابن الجارود) بتونس وطرده من القيروان التجأ إلى قابس[٢] ، ولكن جهاتها الجبلية حيث يسكن البربر بقيت تابعة إلى أئمة نفوسة ثم انتقلت تبعيتها إلى أئمة تاهرت الرستميين الذين امتد نفوذهم إلى ضواحى طرابلس وكانوا يبعثون بولاتهم إلى هذه الجهات ؛ ففى الشماخى[٣] أن سلمة بن قطفة كان عاملا على قابس ونواحيها للإمام عبد الوهاب بن رستم (١٦٨ — ٢٠٨) .

والواقع أنه لم يمتد حكم الرستميين لنفس المدينة كما يفهم من عبارة الشماخى لما كنا ذكرناه سابقاً من أنها كانت مخلصة لأمراء القيروان ، ويصرح الشماخى نفسه فى مكان آخر بقوله[٤] : « أرسل الإمام عبد الوهاب إلى قابس قطعان بن سلمة الزواغى فحاصرها حوالى سنة ١٩٦ وكان خارج قابس — مطماطة — وزنزفة ودمروزواغة وغيرهم تحت ولايته » .

النظام الإدارى فى عهد الولاة :

كان النظام العربى من عهد الفتح إلى عهد الاستقلال أيام الأغالبة يتلخص فى إناطة إفريقية بعهدة ولاة يعينهم خليفة المسلمين نواباً عنه ولهم النظر الأعلى على الدواوين الحكومية وأكبر هذه الدواوين ثلاثة :

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٨٧ .

(٢) خلاصة تاريخ تونس ص ٦٠ .

(٣) كتاب السير ص ٢٠٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦١ .

١ ـ ديوان الجند (الحربية) ؛

٢ ـ ديوان الخراج (المالية) .

٣ ـ ديوان الرسائل (الخارجية والأخبار) .

أما المسائل العدلية والشرعية فكانت لنظر قضاة مستقلين لهم السلطة القضائية المطلقة حتى على الأمراء أنفسهم والأمن كان لنظر رئيس الشرطة الذى يعينه الوالى ؛

وكانت البلاد مقسومة إلى مناطق كل منطقة لها عامل يقوم بالإشراف على الحامية وعلى الخراج وعلى الأمن ويستقل القاضى بالقضايا الاستحقاقية والشرعية ؛

والظاهر أن قابس كانت فى هذا العهد تابعة لمنطقة طرابلس إذ أننا لم نجدها ضمن المناطق المعروفة فى ذلك العهد وهى خمسة :

١ ـ تونس ويمتد نظر عاملها على بلدان الشمال كبنزرت .

٢ ـ الراب وقاعدته (طبنة) وتمتد المنطقة إلى جنوب قسنطينة .

٣ ـ قسطيلة وهى بلاد الجريد وقفصة ونفزاوة وقاعدتها (توزر) .

٤ ـ طرابلس وتمتد منطقتها إلى برقة .

٥ ـ المغرب ويشمل المغرب الأقصى والسوس[١] .

---

(١) عن خلاصة تاريخ تونس ص ٦١ – ٦٢ بتصرف .

الفصــل الثالث

فى ظل دولة إفريقية

فى ظل الأغالبة – والفاطميين – والصنهاجيين – إلى الاستقلال

مع الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦) :

بقيت قابس فى عهد الدولة الأغلبية التى كانت أول دولة استقلت بإفريقية عن الخلافة الشرقية ، ولم تبق مرتبطة بها إلا الارتباط الروحى ، والتبعية الاسمية التى تقتصر على أمور شكلية كعهد الولاية الذى يرد من الخليفة إلى كل أمير جديد وتقديم مبلغ من المال ترسله إفريقية سنويا للخليفة ، بقيت قابس فى هذا العهد مخلصة لأمير القيروان ، لم تشترك فى الأحداث والفتن ناعمة بالهدوء والسكون والازدهار الذى عم إفريقية فى ذلك العصر فلم تشارك فى ثورة الجند التى اندلعت فى تونس ضد زيادة الله الأول (٢٠١ —٢٢٣ هـ) بقيادة منصور الطنبذى[1] سنة ٢٠٨ هـ ، والتى عمت غالب البلاد واحتلت عاصمة القيروان وحصرت زيادة الله فى العباسية (القصر القديم) لم تشارك فيها قابس وبقيت مخلصة لزيادة الله حتى تغلب على الثورة . قال ابن عذارى متحدثا عن هذه الثورة[2] : « لم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس فإنهم تمسكوا بطاعته ولم ينقصوه شيئاً من جبايته ، وملك منصور جميع عمل زيادة الله وضرب السكة باسم نفسه الخ » .

---

(١) نسبة إلى طنبذة وكانت فى مكان (المحمدية) اليوم قرب (أوذنة) من أحواز تونس .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٣٠

ولقد تغيرت حال إفريقية بعض الشيء فى هذا العهد الاستقلالى وانصرف الأغالبة إلى تمصير البلدان وتوسيع العمران وتقوية وسائل الدفاع وتنظيم المصالح الإدارية والقضائية مما جعل إفريقية تأخذ بنصيب وافر من الحضارة والتمدين .

فقد بنى الأغالبة سلسلة من الحصون والرباطات على كامل الساحل البحرى فى عهد أبى إبراهيم أحمد (٢٤٢ – ٢٤٩) .

وفى عهدهم بنيت مدينة العباسية المسماة بالقصر القديم على ٣ ك م من القيروان سنة ١٨٥ هـ . فى عهد إبراهيم الأول (١٨٤ – ١٩٦) ، ومدينة رقادة على ثمانية أميال جنوب القيروان سنة ٢٦٤ هـ . فى عهد إبراهيم الثانى (٢٦١ – ٢٨٩) ومصرت مدينة صفاقس على يد قاضيها على بن سالم تلميذ سحنون ونائبه بصفاقس فى عهد محمد الأول (٢٢٦ – ٢٤٢) وأبى إبراهيم أحمد (٢٤٢ – ٢٤٩) .

وفى عهد هذا الأمير بنيت غالب المؤسسات الدينية والمعالم العمرانية والمصانع والقناطر والمعاقل والقلاع والقصور .

وفى عهدهم أيضاً نظمت المصالح الإدارية والقضائية ووزعت الاختصاصات ، فنجد الإمام سحنونا (رضى الله عنه) عمد حين تولى قضاء القيروان سنة ٢٣٤ هـ ، إلى الاستعانة بقضاة آخرين وتوزيع الأعمال بينهم فى نفس العاصمة من بينهم قاض للحسبة أو أحكام السوق ، ويرجع إليه النظر فى الأسعار ونظافة البلاد الخ . فدائرته كانت أشبه شيء بالبلديات اليوم ، وهذه الخطة كانت موجودة من قبل إلا أنها كانت من مشمولات قاضى البلد .

مع الفاطميين (٢٩٦ ــ ٣٦٢) :

امتلك الفاطميون القيروان سنة ٢٩٦ هـ ، وانتشرت جيوشهم تغزو بقية البلاد ، وأسسوا المهدية وانتقل إليها عبيد الله المهدى سنة ٣٠٥ ، ولم تنص المراجع التى بين أيدينا إلى سنة امتلاكهم لقابس ولكن الظن أنهم دخلوها فى أول عهدهم قبل بناء المهــدية بدليل أنهم أرساوا جيشاً لفتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، بقيادة ولى العهد أبى القاسم القائم ، ومعنى ذلك أن الطريق إلى مصر كان ممهداً قبل ذلك ، ولم ينص المؤرخون إلا على جزيرة جربة التى احتلوها سنة ٣١١ هـ ؛ وكان تأخر فتحها ناتجاً عن عصبية أهلها من الأباضية ضد الشيعة ولضعف الأسطول الفاطمى فى أول عهده عن اقتحامها .

وفى هذا العهــد كانت قابس مركز ولاية ، وكان يتداولها (بنو لقمان الكتاميون) عمالا للفاطميين ، قال التيجانى[1] : « كانت ولاية قابس فى أيام الشيعة مترددة فى بنى لقمان الكتاميين ، وفى بعض أمرائهم يقول الشاعر :

لولا ابن لقمان حليف الندى   سل على قابس سيف الردى »

ومن بين هؤلاء على ابن لقمان ذكره ابن عذارى فى حوادث سنة ٣١٠ هـ ، حين تحدث عن خلاف بربر نفوسة الأباضيين على المهدى : « فأخرج إليهم على بن سلمان الداعى (الذى فتح جربة فى السنة الموالية) فى جمع كثير ، فلما قرب منهم بيتوه فقتلوا كثيراً من أصحابه وانهزم الباقون وتفرقوا عن على بن سلمان ، فسار على إلى طرابلس وأخبر المهدى فكتب إلى على بن لقمان عامله على قابس بأن بقتل كل من يمر به من المنهزمين ، فقتل منهم جماعة وأمد المهدى على بن سلمان بالجيوش وأخذ فى حصار نفوسة »[2] .

---

(١) الرحلة ص ٩٦ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ .

ولعل الشاعر صاحب البيت (لولا ابن لقمان الح) يمدح علياً هذا ولعله يقصد هذه الواقعة .

ثورة ابن كيداد :

وفى عهد عبيد الله المهدى ظهر بجهة الجريد رجل من زناتة من فرع (بنى يفرن) يدعى أبا يزيد مخلد بن كيداد كان مؤدب صبيان من غلاة الخوارج النكار[1] يدعو ضد الشيعة ، فأمر عامل (توزر) بالقبض عليه وأحس أبو يزيد بذلك فخرج هارباً للشرق سنة ٣١٠ هـ .

ورجع إلى الجريد مستخفياً سنة ٣٢٥ هـ فقبض عليه العامل وسجنه فثار ابنه وبعض أعوانه على العامل وتمكنوا من إخراجه من السجن وفر إلى جبل (أوراس) وأظهر دعوته هناك وجمع جيشاً جراراً دخل به ملك الفاطميين وانتصر عليهم انتصارات متوالية لموالاة السكان له خصوصاً الفقهاء السنيين بسبب كرههم للشيعة ، وانحصر ملك الفاطميين فى مدينة المهدية التى امتنعت عن أبى يزيد بحصونها المنيعة ، ودامت هذه الفتنة حتى تمكن المنصور ابن القائم الفاطمى (٣٣٤ — ٣٤١) من الانتصار على أبى يزيد وقتله سنة ٣٣٥ هـ .

وكانت قابس من جملة المدن التى احتلها أبو يزيد فى ثورته وترك فيها عماله ، والظاهر أن احتلاله لها كان حوالى سنة ٣٣٠ ومنها ارتحل إلى جزيرة جربة فاحتلها سنة ٣٣١ هـ وبقيت تحت حكمه بقية ملك القائم الفاطمى ، أى من سنة ٣٣٠ إلى ٣٣٤ هـ وفى عهد ابنه المنصور وإثر انتصاراته على أبى يزيد رجعت قابس لحكم الفاطميين .

---

(١) انظر ترجمة أبى يزيد وقواعد المذهب الأباضى وسبب تسمية هذه الفرقة منهم بالنكار فى كتاب (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا .

مع الصنهاجيين إلى الاستقلال (٣٦٢ — ٤٩٠ هـ) :

وانتقل الفاطميون إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وقلدوا ولاية إفريقية (بلقين بن زيرى الصنهاجى) وسموه (يوسف) وجعلوا الولاية من بعده لأبنائه وأضافوا له ولاية طرابلس بطلب منه سنة ٣٦٧ هـ[١] ، فاستقل بلقين بإفريقية وأخلص للفاطميين ولم يغير شيئاً من بدعهم المذهبية وأنظمتهم الإدارية والسياسية .

وكثرت فى هذا العهد ثورات البربر فشغل الصنهاجيون بإخمادها غالب أيامهم وعلى الأخص بالمغرب الأقصى والأوسط وطرابلس .

وبقيت قابس فى عهدهم مركز ولاية تداولها عمال كثيرون ، قال التيجانى[٢] : « ترددت ولاية قابس فى صنهاجة وعبيدهم فوليها فى أول الأمر بنو عامر ، ثم وليها إبراهيم بن يوسف بن زيرى وهو أخو باديس ثم منصور ابن ماواس ثم توالت بعد فى أقوام من برغواطة ولاهم المعز بن باديس » ؛

والمفهوم أن بنى عامر تولوها فى عهد بلقين بن زيرى (٣٦٢ - ٣٧٣) وكامل عهد ابنه المنصور (٣٧٣ — ٣٨٦) وفترة من عهد باديس بن المنصور يتوارثونها ، ذكر منهم ابن عذارى[٣] وابن خلدون (يوسف بن عامر) عامل قابس فى سنة ٣٩١ هـ ، وذكر ابن عذارى أيضاً من عمالها فى سنة ٣٩٣ (عطية بن جعفر)[٤] .

وجاءها بعد ذلك إبراهيم بن بلقين بعهد من ابن أخيه باديس بن المنصور (٣٨٦ — ٤٠٦) ولا ندرى كم بقى فيها كما لا نعرف مدة منصور ابن ماواس ، وكل ما عرفناه من النصوص التى بأيدينا أن العامل على قابس

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣١٨ ط بيروت .
(٢) الرحلة ص ٩٦ .
(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦١ .
(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦٨ .

أيام زحفة بنى هلال كان يسمى (ابن وانمو الصنهاجى) ونجد (المعز بن محمد الصنهاجى) عاملا على قابس فى عهد تغلب الأعراب على المعز بن باديس وانتقاله إلى المهدية سنة ٤٤٩ هـ .

عيش رضى :

وقبل أن نمضى فى تعداد عمال قابس إلى سنة ٤٩٠ ، يجب أن ننبه إلى أن قابس كانت أثناء هذا العهد هادئة تنعم بما نعمت به إفريقية من تقدم وترف فى العصر الصنهاجى وعلى الأخص فى عهد المعز بن باديس (٤٠٦ — ٤٥٣) الذى أثمرت فيه ما زرعه الأغالبة والفاطميون من بذور التقدم المادى والعلمى والأدبى والازدهار العمرانى والزراعى والتجارى[1] .

ولا نشك أن قصر العروسين الشهير بقابس بدئ فى بنائه أثناء هذا العهد، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . وكانت حياة الأمراء بالخصوص حياة بذخ وترف ظهرت آثاره فى مدائح الشعراء والمنتجعين لمنحهم وأعطياتهم ، وكانت قصورهم موئل الموائد والضيافات ومصدر الغرائب والأعاجيب .

حكى البكرى فى مسالكه[2] « أخبر أبو الفضـــل جعفر بن يوسف الكلبى ، وكان كاتبا لمؤنس صاحب إفريقية (مؤنس بن يحيى) أنهم كانوا فى ضيافة ابن وانمو الصنهاجى صاحب مدينة قابس فأتاه جماعة من من أهل البادية بطائر على قدر الحمامة غريب اللون والصورة ذكروا أنهم لم يروه قبل ولا عهدوه ، كان فيه من كل لون أجمله وهو أحمر المنقار طويله ، فسأل ابن وانمو من حضره من العرب والبربر وغيرهم : هل رآه أحد منهم ؟ فلم يعرفه أحد ولا سماه ، فأمر ابن وانمو بقص جناحيه وأرسل

---

(١) انظر خلاصة تاريخ تونس ص ٩١ — ٩٢ .

(٢) ص ١٨ — ١٩ .

فى القصر ، فلما جن الليل جعل فى القصر مشعل نار فما هو إلا أن رآه ذلك الطائر فقصد قصده وأراد الصعود إليه فدفعه الخدام وجعل يلح فى التكرار على المشعل فأعلم ابن وانمو بذلك فقام وقام من حضر معه — قال جعفر : « وكنت فيمن حضر فأمر ابن وانمو بترك الطائر وشأنه فصار فى أعلى المشعل وهو يتأجج نارا واستوى فى وسطه وجعل يتفلى كما يفعل سائر الطير فى الشمس ، فأمر ابن وانمو بزيادة الوقود فى المشعل من خرق طران وغير ذلك فزاد تأجج النار والطائر فيه على حالته لا يكترث ولا يبرح ، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشى لم يربه ريب[1] . وأخبر قوم من أهل إفريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس والله أعلم بحقيقة ذلك » . وإهداء الأعراب مثل هذا الطائر العجيب لعامل قابس يدل على أنهم يعلمون سلفا ما عليه العمال من البذخ وما يقدمونه من الجوائز لأصحاب الهدايا والمدائح .

والظاهر أن قابس لم ينلها شىء من الثورات البربرية التى حدثت فى أيام المنصور وباديس والمعز سوى حصارها من طرف فلفل بن سعيد الثائر على باديس سنة ٣٩١ هـ فى عهد عاملها (يوسف بن عامر) .

وأصل الواقعة أن فلفل بن سعيد[2] هذا كان عاملا لباديس على طبنة عاصمة الزاب فحدثت بينهما وحشة آلت إلى حرب انهزم فيها فلفل ببسيط مرماجنة (قرب تالة) سنة ٣٨٩ هـ ، وطاردته عساكر باديس بجهات الزاب فانتقل إلى إفريقية واستولى على أحواز قابس وحاصر المدينة فقاومه عاملها يوسف بن عامر فتركها فلفل وتقدم إلى طرابلس وكان جعفر بن حبيب أحد قواد باديس محاصراً لها إثر تغلبه على يانس الصقلى وقتله .

---

(١) هذا الطائر معروف بالهند يسمى طائر السمندو ، وكانوا ربما اتخذوا من ريشه أرزا تقى من يرتديها من النار وقد اشتهر أن ريشه لا تعمل فيه النار .

(٢) انظر ترجمته فى (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا

فى زنزور[1] فوردت إلى جعفر رسالة من عامل قابس ينذره بتحرك فلفل إلى طرابلس ففك جعفر عنها الحصار وتحامى طريق فلفل راجعاً إلى إفريقية فدخل فلفل طرابلس ومنها بعث بطاعته إلى الخليفة الفاطمى ، فأرسل هذا إليه يحيى بن على بن الأندلسى والياً على طرابلس وقابس فسلم له فلفل

---

(١) فى واقعة يانس الصقلى هذا خلاف بين التيجانى وابن خلدون يحسن بنا أن ننبه إليه ، قال التيجانى فى رحلته (ص ١٨٢) عن هذه الحادثة . « إن باديس بن المنصور كان والياً على إفريقية وكانت طرابلس مستثناة عليه لا يليها أحد من قبله بل تتعين ولاتها من مصر فأحب والى طرابلس إذ ذاك أن يرتحل إلى مصر فكتب إلى الحاكم (الفاطمى) يطلب ذلك منه ليكون بين يديه فى حضرته وأن يوجه إليه من يتسلم البلد من يده فوجه إليه يانس المذكور وكان والياً على برقة فلما وصل إلى طرابلس توجه واليها إلى مصر وأمكنه من البلد فلما علم بذلك باديس وجه إلى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعى منه سجلا إن كان بيده الولاية فبعث إليه إنما بعثت نائباً عن أمير المؤمنين ومثلى يكبر عن أن يولى بسجل ، فحينئذ وجه باديس جعفر بن حبيب . . لقتاله فأقام بقرية (أجاس) متلوماً عليه وبعث إليه فى أثناء تلك المدة يخيره فى واحدة من ثلاث ، إما بعث السجل إن كان بيده ، وأما القدوم على باديس ليفاوضه فيما وصل إليه ، وإما المناجزة بالحرب ، فعاد جوابه إليه يقول « أما الوصول فلا سبيل إليه وأما سجل الولاية فأنا أكبر من ذلك إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس ، وأما الثالثة فأنا أوافيك عن الحركة إلى وأجيئك إلى موضعك فأقاتلك به ، فتحرك إليه جعفر بن حبيب متوجها إليه فنزل عرى زنزور ونزل يانس بالجانب الشرقى منها والزيتون بينهما ثم التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقتل أكثر جنده وأخذ هو أسيراً فطلب من أسره أن يحملوه إلى جعفر فأبوا من ذلك واحتزوا رأسه ثم حملوه إلى جعفر ونجا فلال المنهزمين فلجأوا إلى مدينة طرابلس ، فأبى أهل طرابلس من تمكين جعفر من البلد ومن اللاجئين إليها إلى أن وصل إليهم فلفل بن سعيد الزناتى فمكنوه من البلد » ، وما ذكره التيجانى هنا من أن طرابلس كانت مستثناة على باديس لا يليها أحد من قبله بل تتعين ولاتها من مصر مخالف لما جاء فى ابن خلدون (ح ٦ ص ٣١٨ ، ط - بيروت) من أن طرابلس أضيفت إلى حكم يوسف بن زيرى (جد باديس) سنة ٣٦٧ هـ ، وكلام ابن خلدون هذا أولى بالقبول إذ لو لم تكن طرابلس تابعة لحكم الصنهاجيين لما أمكن لباديس أن يستغرب تولية يانس عليها وأن يطالبه بالاستظهار بسجل الولاية ولما امتنع ناجزه بالحرب وقتله . وكلاهما وال تابع لخليفة مصر فالمعقول إذن أن تكون طرابلس تابعة للصنهاجيين فلما تعين لها وال من مصر طالبوه بإظهار سجل الولاية لشكهم فى صحة مدعاه .

طرابلس سنة ٣٩٣[١] وارتحل معه فى جيشهما إلى قابس فحاصرا فيها عاملها عطية بن جعفر ، فامتنعت عليهما فرجعا عنها إلى طرابلس ولما رأى يحيى بن على اختلال الحال عليه ولم يجد مايعطى لرجاله عاد ببقيتهم إلى مصر واستبد فلفل بطرابلس[٢] .

قابس الثائرة :

كنا أشرنا فى الباب الرابع إلى الزحفة الهلالية وأسبابها وإلى الخصام الذى شب بين المعز بن باديس ومونس بن يحيى الصبرى زعيم قبيلة رياح وكيف أصبح مونس فى مقدمة الزعماء العرب المتألبين ضد المعز والجالبين عليه .

ولما حقت الهزيمة على جند المعز فى حيدران سنة ٤٤٤ هـ ، انتشر الأعراب فى قابس وجهاتها مما جعل عاملها يداريهم بالمجاملة والإكرام اتقاء لشرهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى حادثة (طائر السمندو) التى قصها البكرى نقلا عن كاتب مونس بن يحيى الذى كان حاضراً للحادثة ضيفاً على العامل وعلى إثر تخريب القيروان وانتقال المعز للمهدية سنة ٤٤٩ هـ . وأصبح مونس بن يحيى هو الحاكم المسيطر على تلك الجهة مع بقاء العامل الصنهاجى وهو إذ ذاك (المعز بن محمد بن ولموية الصنهاجى) على قابس خاضعاً لمونس وليس للصنهاجيين إلا الاسم . وصادف أنه كان للمعز بن محمد هذا أخوان يقودان خيل المعز بن باديس وهما إبراهيم وقاضى . فغضب عليهما المعز وربما كان هذا الغضب ناتجاً عن تقصيرهما فى قتال الهلاليين وصرفهما عن القيادة فالتحقا بأخيهما عامل قابس وتآمرا معه على العصيان والتمرد وصرف طاعتهم إلى مونس بن يحيى الرياحى أمير العرب وقطع كل علاقة مع أمير المهدية وأعلنوا ذلك فتولى إبراهيم بن محمد ولاية قابس نيابة عن مونس

---

(١) يجعلها التيجانى ص ١٨٢ سنة ٣٩٠ هـ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦٨ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٩ وما بعدها ط بولاق .

ابن يحيى بدل أخيه المعز الذى أخذه مؤنس لمحلته حتى توفى هناك ، ولا ندرى السبب فى نزع ولاية قابس من يد المعز وتولية أخيه وربما كان السبب فى ذلك تردده فى قبول ما عرضه عليــه أخواه فى أول الأمر وخشية مؤنس من انتقاضه . ومنذ حكم إبراهيم قابس فقدت هذه المدينة النائمة على تخوم الصحراء الراحة والهدوء فهى زيادة عن أخذ الأعراب بخناقها منذ زحفتهم إلى إفريقية أصبحت عرضة لثورات وفتن وحركات جيوش لا تهدأ إذ عزم الأخوان الثائران إبراهيم وقاضى على الاستعداد لمنازلة المهدية مغتنمين فرصة انشغال تميم بن المعز (٤٥٣ – ٥٠١) بثورة حمو بن مليــل البرغواطى بصفاقس[1] وقيام التمرد والثورات فى كل مكان وانتزاء عمال الأطراف على ما تحت أيديهم ، وقد انضم لهما كثير من الأعراب مؤملين بذلك التغلب على عاصمة المهدية وفعلا سار قاضى بن محمد على قول ابن خلدون[2] الذى يجعل ولايته على قابس سابقة لسنة ٤٧٤ هـ . سار هذا العامل المتمرد صحبة جموع من الأعراب يقودها مالك بن على الصخرى إلى المهدية وحاصروها سنة ٤٧٦ هـ ، فهزمهم تميم ورجع الجيش المغلوب إلى قابس وهربت فلول الأعراب إلى القيروان[3] .

---

(١) ذكره التيجانى فى رحلته (ص ٧٠) وقال إنه قتل ابن عمه منصور البرغواطى عامل المعز على صفاقس غدراً فى الحمام سنة ٤٥١ هـ ، واستقل بصفاقس وجاهر بالعصيان إثر موت المعز وطمع فى توسيع ملكه فاحتل بعض القرى المجاورة ثم هاجم المهدية نفسها بإعانة قبائل على والأثبج سنة ٤٥٦ هـ ، وحاصرها فاستنجد تميم بأصدقائه من العرب من زغبة ورياح فهاجموا ابن مليل من الخارج وخرج إليه تميم من الداخل فانهزم ورجع إلى صفاقس وفى سنة ٤٧٤ حاصر تميم مدينة صفاقس « وعاث عسكره فى أجنّتها المعروفة بالغابة وأفسدها » كما قال ابن عذارى فى البيان المغرب (ص ٤٣١) ثم أفرج عنها وعاود تميم حصارها والتضييق عليها سنة ٤٧٩ هـ مع حصاره لقابس فى « زمن واحد مما لم يسمع بمثله » حسب عبارة البيان المغرب ولكنه لم يتمكن من التغلب على ابن مليل هذا واحتلال صفاقس إلا فى سنة ٤٩٣ هـ وهرب ابن مليل إلى قابس حيث أقام ضيفاً مكرماً لدى صاحبها مكى بن كامل بن جامع حتى مات بها .

(٢) ج ٦ ص ٣٢٧ ط – بيروت .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٤٣١ والكامل لابن الأثير .

ورأى تميم أن لا بد له من حسم هذا الداء وإخضاع قابس المتمردة فقام إليها فى جيش كثيف سنة ٤٧٩ ، وحاصرها حصاراً شديداً فى نفس الوقت الذى كان محاصراً فيه اصفاقس كما ذكر فى تعليق سابق فامتنعت عليه فعاود الكرة سنة ٤٨٦ فحاصرها حتى تمكن من فتح ربضها[١] وذلك بعد أن صالح أهل (جنوة) الذين هاجموا المهدية فى أسطول عتيد سنة ٤٨٠ هـ ونزلوا بجانبها وأحرقوا بعض جهاتها حتى اضطر تميم لمصالحتهم على مبلغ من المال ليتفرغ لتسكين الفتن بمملكته[٢] ، وفى سنة ٤٨٩ هـ ، ثار سكان قابس على صاحبهم (قاضى بن محمد الصنهاجى) فقتلوه لسوء سيرته وأمروا بدله (عمر بن المعز بن باديس) أخا تميم وكان مغاضباً لأخيه ، فنهض إليه تميم وحاصره فى قابس حتى تمكن من احتلال المدينة والقضاء على ثورتها[٣] وسكت المؤرخون عن مصير عمر بن المعز صاحب قابس . ويظهر من عبارة ابن عذارى فى هذه الحادثة « وأخرج منها عمر بن المعز أخاه » أنه هرب من قابس ولم يتمكن منه أخوه .

وفى احتلال تميم لقابس يقول أحد الشعراء [٤]:

ضحك الزمان وكان قدماً عابسا ... لما فتحت بحد سيفك قابسا

الله يعــلم ما حويت ثمـــارها ... إلا وكان أبوك – قبل – الغارسا

أصدقت عذرتها نكاحاً جائزاً ... سمر القنا وبواتراً وفوارســا[٥]

من كان بالبيض القواضب خاطباً ... حلت له بيض البلاد عرائسا[٦]

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) خلاصة تاريخ تونس ص ٩٦

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٤٣٤ ورحلة التيجانى ص ٩٧ وابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

(٤) نسبها ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ لابن خطيب سوسة ، ولم نتوصل لمعرفته واقتصر التيجانى على ذكر ثلاثة أبيات منها فى رحلته ص ٩٧ .

(٥) هذا البيت ذكره التيجانى وأغفله ابن الأثير .

(٦) فى هذا البيت اختلاف بين روايتى التيجانى وابن الأثير .

فابشر تميم بن المعـز بفتـكة ... تركتك من أكناف قابس قابسا
ولوا فكم تركوا هناك مصانعاً ... ومقاصراً ومخالداً (؟) ومجالسا
فكأنهـا قلب وهن وسـاوس ... جاء اليقين فذاد عنه وساوسا

ولكن هذا الانتصار لم يسفر عن نتيجة فى مثل ذلك الخضم من الفتن والثورات وسيادة الفوضى على كل مكان ، فبعد قليل من انصراف تميم إلى المهدية ثار أهل قابس وأعلنوا العصيان وتملك المدينة العرب وظهرت فيها أسرة بنى جامع الذين استقلوا بحكم قابس نيفاً وستين سنة كما سيأتى فى الفصل التالى .

ومما سبق يمكننا أن نضع قائمة ولاة قابس من بداية عهد الصنهاجيين إلى انتصاب أسرة بنى جامع كما يلى :

١ — بنو عامر ، آخرهم يوسف بن عامر كان والياً سنة ٣٩١ هـ .
٢ — عطية بن جعفر ، كان والياً سنة ٣٩٣ هـ .
٣ — إبراهيم بن يوسف بن زيرى .
٤ — منصور بن ماواس .
٥ — ابن وانمو — أيام الرحفة الهلالية .
٦ — المعز بن محمد بن ولموية حوالى ٤٥٠ .
٧ — إبراهيم بن محمد بن ولموية .
٨ — قاضى بن محمد بن ولموية قتله أهل قابس سنة ٤٨٩ .
٩ — عمر بن المعز بن باديس سنة ٤٨٩ .

الفصـــل الرابع

عهد الاستقلال (٤٩٠ - ٧٩٦ هـ)

بنو جامع الرياحيون - بنو مكى اللواتيون

— ١ —

بنو جامع

(٤٩٠ - ٥٥٥ هـ)

ذكر ابن خلدون أن بنى جامع أسرة من دهمان من بنى على من قبيلة رياح الهلالية ، وهذه القبيلة كان زعيمها لأول عهد دخولهم (مؤنس بن يحيى) . وقد ذكرنا سابقا أن عمال قابس كانوا يدارونه أول الأمر ثم أعطوه الطاعة ووضعوا أنفسهم تحت سلطته منذ أيام المعز بن محمد الصنهاجى :

فقابس التى استقلت عن الصنهاجيين فى منتصف القرن الخامس أصبحت تابعة لسلطان العرب من رياح ولو أن عمالها بقوا صنهاجيين فعهد الاستقلال إذن يبتدئ من استيلاء الرياحيين عليها نهائيا حوالى سنة ٤٩٠ هـ .

ولا ندرى كيف خلصت قابس لبنى جامع دون بقية إخوانهم من الأسر العربية ، والظاهر أن بنى جامع هؤلاء كانوا من الأسر الظاهرة المتزعمة وأن امتلاكهم لقابس كان برضى الأسر الأخرى التى تفرقت تغزو وتملك شمالا وغربا .

ولا نعرف بالضبط الظروف التى مكنت بنى جامع من التملك على قابس فهل أنهم اغتنموا فرصة ثورتها على تميم فنزوا عليها ؟ أم أن سكان قابس

هم الذين استدعوهم للحكم ؟ أو أن الأسر العربية اقتسمت تركة الصنهاجيين فكانت قابس من نصيب بنى جامع ؟

كما أننا لانعرف بالضبط أول من تملكها من بنى جامع ، وكل ما ذكره المؤرخون أن أول من عرف من هذه الأسرة ، وقد يكون أول من ملك منها هو :

١ — مكى بن كامل بن جامع :

ظهر هذا الأمير بعد ثورة قابس على تميم بن المعز ، ولم يذكر المؤرخون متى ثارت قابس ولا متى تملكها مكى هذا ، ولكنهم ذكروا أنه كان موجوداً فى سنة ٤٩٣ ، ونحن نعرف أن تميما تغلب على قابس وطرد منها أخاه عمر سنة ٤٨٩ ، فقدرنا أن تكون قابس ثارت أواخر ٤٨٩ أو أوئل ٤٩٠ ، وفرضنا أن مكى بن كامل كان أول من ملك من بنى جامع فتكون بداية ملكه لقابس حوالى سنة ٤٩٠ ه .

وفى سنة ٤٩٣ ه استجار به حمّو بن مليل البرغواطى هاربا من صفاقس التى احتلها جيش تميم — وقد كنا أشرنا إلى أن حمو كان ثائراً بصفاقس — والتحق بقابس أيضاً المثنى بن تميم عاصياً لأبيه ، فرأى مكى أن مركزه قد تعزز بهذه الفئة المغاضبة لأمير المهدية ، ويظهر أن الجماعة وجدت منه أرضاً طيبة لقبول بذور الإغراء والتحريض على مناوأة تميم ، فأظهر مكى عزمه على مهاجمـــة المهدية ، بعد ما تكفل له المثنى بمصاريف الغزوة .

قصة المثنى بن تميم :

ذكر ابن الأثير أن السبب فى غضب المثنى على أبيه وفراره إلى قابس ، هو أن والده كان رشحه لولاية العهد أيام أسر أخيه يحيى بصفاقس عند

حمو بن مليل ولما أطلق يحيى من الأسر ورجع إلى المهدية حرم المثنى من الولاية التي كان ينتظرها فحقد على أبيه وفر إلى قابس[١] ، وقصة أسر يحيى سردها التيجانى فى رحلته[٢] وملخصها أن أميراً تركيا يسمى (شاه ملك) قدم على تميم فأكرمه ورتب له جراية فلم تعجبه ، وخرج يوما صحبة يحيى ولى العهد إلى الصيد فقبض عليه وفر به إلى صفاقس فخاف صاحبها ابن مليل أن يميل السكان إلى يحيى ويملكوه فكاتب والده طالبا منه إرسال عائلات الأتراك وأموالهم مقابل إطلاق ولده إليه ففعل ورجع يحيى إلى المهدية .

أما ابن الأثير فيقول عن (شاه ملك) إنه أمير تركى هرب من بلده إلى مصر بسبب حادث فحماه صاحب مصر وأخرجه إلى طرابلس فملكها فحاربه تميم وأسره وقدم به إلى المهدية الخ ، ويجعل ابن الأثير فرار المثنى إلى قابس سنة ٤٨٨ هـ ، وهو غلط واضح ما دام هو نفسه (أى ابن الأثير) يقول وصاحبها (أى قابس) مكى بن كامل ، والمعروف ، أن مكى هذا لم يتول أمر قابس إلا بعد طرد عمر بن المعز عنها سنة ٤٨٩ كما ذكرنا ذلك سابقا .

ونرجح أن التحاق المثنى بقابس كان بعد سنة ٤٩٣ هـ ، التى التحق فيها حمو بن مليل بقابس أيضا ـ ولعله قدمها معه ـ بدليل أن ابن الأثير نفسه يقول إن المثنى حرض مكى بن كامل على مهاجمة صفاقس ويصرف هو على الجند فلم يحصلوا منها على طائل فذهبوا للمهدية فهزمهم يحيى بن تميم وكان قائداً للجنـــد ، وكان فى هذه الحملة شاه ملك التركى[٣] . وإذا صدقنا ابن الأثير فى رواية مهاجمة صفاقس وعدم الحصول

---

(١) الكامل ج ص ١٧٤ .

(٢) ص ٧٠ – ٧١

(٣) الكامل ج ٨ ص ١٧٤ .

منها على طائل ، فمن الواضح أن ذلك كان بعد خروج ابن مليل منها سنة ٤٩٣ هـ إذ لا يمكن أن يهاجم مكى صفاقس وفيها صاحبه ابن مليل ، ويخلق لنفسه عدوين قويين تميما وحمو .

أما ابن خلدون فيقتصر فى هذه الواقعة على القول بأن المثنى لحق بمكى ابن كامل « مغاضبا لأبيه فهاجم معه المهدية فلم يفعلا شيئاً واطلع مكى على خبائث المتنى فرجع عنها »[1] . والأقرب عندنا أن يقال إن حمو بن مليل لما قدم قابس فارا من صفاقس كان فى صحبته شاه ملك التركى والمثنى ابن تميم أو أن هذا الأخير التحق بهم بعد ذلك واجتمعت الجماعة على إغراء مكى بن كامل بمهاجمة صفاقس والمهدية فأصغى مكى إلى إغرائهم وهاجم المهدية ولكنه انهزم أمام جيش تميم ، وكانت هذه الهزيمة رادعة لمكى عن إعادة الكرة ومناوشة تميم حتى مات بقابس فى سنة لم يحددها المؤرخون ، إلا أننا نرجح أنه مات بين ٤٩٥ — و٩٤٨ ، لأنه هاجم المهدية بعد ٤٩٣ ولا بد أن تحضيرات الهجوم استغرقت زمنا ، كما نجد رافعا ابنه قد أتم بناء باب بقصر العروسين سنة ٥٠٠ هـ ، فيكون حينئذ قد تولى قبل ذلك بزمن كما مات بقابس حمو بن مليل . ولا ندرى ماكان مصير شاه ملك والمثنى .

٢ — رافع بن مكى :

تولى الحكم بقابس إثر وفاة والده مكى وقد خمدت نار الفتن إلى حين ، ويظهر أن العلائق قد كانت طيبة بينه وبين صاحب المهدية يحيى بن تميم (٥٠١ — ٥٠٩ هـ) ، قال التيجانى[2] : « توفى تميم ورافع متولى قابس ثم ولى يحيى بن تميم ، فصالحه وداراه طول حياته ثم توفى يحيى وولى بعده ابنه

---

(١) ج ١ ص ١١٤ ط الجزائر .
(٢) الرحلة ص ٩٧ .

على فأنف من مصالحة رافع الح » وهذه الفترة من الهدوء فى أوائل ملك رافع والتى دامت من أواخر القرن الخامس إلى سنة ٥١٠ تقريباً مكنت رافعاً هذا من الاشتغال بإظهار أبهة الملك فبسط كفه للشعراء ، فانثالوا على بلاطه ، وتلفت لاستكمال بناء (قصر العروسين) وقد أشرنا سابقاً إلى أننا نرجح بأن بداية بنائه كانت فى عهد الصهاجيين ، وأن بنى جامع هؤلاء استكملوه فبنى منهم رافع هذا جانباً وأكمل الباقى الأمير رشيد بن جامع بعده ، كما أشرنا إلى الباب الذى ذكره التجانى فى رحلته[1] وقال إنه وجد عليه كتابة جاء فيها « أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء مكى بن كامل بن جامع فى رجب سنة ٥٠٠ هـ » وفى الحين نفسه أمر ببناء نواة لأسطول بحرى وحرص على بناء سفينة ضخمة بساحل قابس أمده يحيى بن تميم بما احتاجه من مواد لبنائها فكانت هذه السفينة سبباً فى نكبته إذ اشتعلت نار الفتنة بينه وبين على بن يحيى بن تميم صاحب المهدية (٥٠٩ – ٥١٥ هـ) الذى أنف أن يكون لأمير من أجواره أسطول يشاركه فى البحر.

السفينة المشؤومة :

ذكر التجانى قصة هذه السفينة فقال[2] :

كان يحيى يحتمل لرافع أموراً منها « أن رافعاً أنشأ بساحل قابس سفينة أعدها لما يعرض له فى البحر من الأمر فلم يبد يحيى إنكاراً لذلك بل أعانه عليها وأمده بما احتاجه إليه فيها فلما ولى (على بن يحيى) أنف عن ذلك وكره أن يقاومه أحد من أهل إفريقية فى إجراء السفن فى البحر فأنفذ أسطولا إلى ساحل قابس لمنع هذه السفينة من الإقلاع ، وأخذها إن أقلعت ، وعلم بذلك رافع فكتب للأُجَّار صاحب صقلية يسأله الإعانة على (على) ويخبره أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يحب أن يهديها إليه فبعث لجار إلى قابس

---

(١) ص ٩٥ .

(٢) الرحلة ص ٩٨ .

أسطولا ضخماً لنصرة رافع . فلما بلغ ذلك علياً جمع رجال دولته واستشارهم فى ذلك فكلهم أشار عليه باسترجاع أسطوله والتغاضى عن رافع فى هذه المسألة حفظاً لما بينه وبين لجار من المصالحة ، فرأى على فى ذلك وهنا عليه فأمر بقية أسطوله فأخرج للحين ، ووجهه إلى قابس فوجد الروم قد نزلوا من قطعهم لضيافة أعدها رافع لهم فلم يرعهم إلا وصول الأسطول فبادروا إلى قطعهم فغلبهم المسلمون على أكثرها وقتلوا منهم جماعة كبيرة . . . . وكان ذلك من أشد الأسباب فى الوحشة التى وقعت بين لجار وعلىّ وابنه الحسن بعده حتى أدت إلى تغلب الروم على المهدية وانقراض دولة بنى مناد منها »

إذن فقد كانت هذه السفينة سبباً فى محنة قابس والمهدية معاً ، ويظهر أن رافعاً كان من الذين لا يملكون وازعاً وطنيا ولا دينياً فلم يكد ينكر عليه على بن يحيي بناء السفينة حتى استنجد بلجار صاحب صقلية وعدو إفريقية الألد . وأعطى الطاعة لهذا الأمير الإفرنجى وطلب حمايته وكان روجار ينتظر مثل هذه الفرصة ليثبت قدمه على سواحل إفريقية فأرسل أسطوله لحماية قابس واستقبل رافع الإفرنج بالفرح والسرور وأعد لضباط الأسطول مائدة ضيافة بقصر العروسين فكانت النتيجة أن أسطول المهدية فاجأهم بساحل قابس وهزمهم هزيمة شنيعة وملك قطعا من أسطولهم ، وفى هذه الواقعة يقول محمد بن عبد الله الكاتب[1] ، يمدح على بن يحيي من قصيدة » :

ليهن المعالى ان تملك رقها	على بن يحيي بالحجا والتكرم
جرى وجرى صيد الملوك فبذهم	إلى غاية فى المجد لم تتقدم

---

(١) ذكر صاحب الخريدة أنه من كتاب الدولة الحمادية ببجاية وأورد له رسالة عن يحيى بن العزيز الحمادى المتولى سنة ٥١٥ ﻫ يستنجد فيها ببعض أمراء العرب بولاية بجاية لمقاومة جيش عبد المؤمن بن على الزاحف على بجاية سنة ٥٤٤ ﻫ (انظر الخريدة نسخة الأحمدية عدد ٤٦٣٣ ورقة رقم ١١٤ وجه ٢) .

وصمم تصميم الحسام مبادراً لإطفاء نار آذنت بالتضرم
تعدى على الإعلاج فى بحر قابس وسار إليهم فى الخميس العرمرم
فولوا على الادبار كلا وأجفلوا بنات نبا عنهم وظفر مقلم(١)

وقال محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخى(٢) يصف أسطول المهدية الذى هاجم قابس وانتصر على أسطول صقلية :

وأعددت للأعداء كل مصمصم يسير إليهم قاصداً وهو أهوج
كمثل الرواسى منعة غير أنها على ثبج ادماء تردى وتولج
كأن القنا والنبل فى جنباتها سبال بأكناف الهضاب وعوسج
يعيد مضىء الجو أقتم حالكا دخان لظى من نارها يتوهج ...
إذا نضنضت من السن لهبية بمارج نار يستقل ويعرج
رأيت صلالا أخرجت من جهنم تحرق أكباد العداة وتنضج

وفى هذا الأسطول المنتصر يقول ابن حمديس الصقلى(٣) من قصيدة طالعها :

نعيمك أن تزف لك العقار عروسا فى خلائقها نفار

ومنها يخاطب على بن يحيى :

لقد أضحى على دين النصارى لدين المسلمين بك انتصار

---

(١) نقل هذه الأبيات التجانى ص ٩٩ — والحلل السندسية ص ١٥٦ .

(٢) من أدباء المهدية فى النصف الأول من القرن السادس ومن شعراء بلاط على بن يحيى الصنهاجى قال العماد الأصبهانى فى الخريدة (ورقة رقم ١٢٣ — وجه ١ — مخطوطة الأحمدية بجامع الزيتونة) هو من معاصرى أمية بن عبد العزيز .. وأورد له أمية أشعاراً فى كتابه (الحديقة) وكان أمية يخاطبه بأشعار كثيرة .

(٣) أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى ، ولد وتعلم بصقلية ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ فمدح المعتمد بن عباد وانتقل إلى إفريقية سنة ٤٨٤ هـ فمدح يحيى بن تميم وابنه عليا وحفيده الحسن الصنهاجيين ، ثم رجع إلى الأندلس فتوفى بميورقة سنة ٥٢٩ هـ عن ثمانين عاماً ، وديوانه مطبوع وقيل إن المطبوع نماذج منه (انظر الوفيات ج ١ ص ٣٠٢ وتكملة الصلة ص ٦٣٧ — والأعلام للزركلى ج ٤ ص ٤٧) .

حميت ذماره برا وبحـــرا ... بمرهفة بهـــا يحمى الذمار
أراك الله فى الأعلاج رأيا ... لهم منه المذلة والصـــغار
رأوا حربية[1] ترمى بنفط ... لإخماد النفوس له استعار
كان المهل فى الأنبوب منه ... إلى شئ الوجوه له ابتدار
إذا ماشلك نحر العلج منه ... تعـــالى بالحمام له خوار
وكان منافس البركان فيها ... لأهوال الجحيم بها اعتبار
نحاس ينبرى منه شواظ ... لأرواح العـــلوج به بوار
وما للمـــاء بالإطفاء حكم ... عليه لدى الوقود ولا اقتدار
فرد الله بأسهم عليهم ... فربحهم بصفقتهم خســـار
وخافوا من منایاهم وفروا ... فدافع عن نفوسهم الفرار
وقد جعلوا لهم شرع الشوانى ... مع الأرواح أجنحة وطاروا

* * *

لك الفلك التى تجرى بسعد ... يدور به لك الفلك المدار
تهب لها الرياح مسخرات ... وتسكن فى تحركها البحار

ورجع أطول المهدية عن قابس ظافرا منتصرا ، ويظهر أن على بن يحيى رأى أن يحسم الداء قبل استفحاله باحتلال قابس وطرد رافع منها ، فأعد الأساطيل لمهاجمتها سنة ٥١١ هـ ، ولم يجد رافع نصيرا « فأرسل جماعة من وجوه قومه راغبا فى المصالحة فلم يجبه على إليها ، فرأى أنه ليس له قبل بقتال على فقصد إلى القيروان »[2] . ويشير ابن الأثير[3] إلى أن رافعا هاجم المهدية

---

(١) أسطولا حربيا .

(٢) رحلة التجانى ص ٩٩ ويفهم من هذه العبارة أن الحرب لم تقع بينهما وأن رافعاً فر إلى القيروان خوفاً ، ولكن ابن خلدون يقول ج ١ ص ٢١٤ ط - الجزائر - أن عليا « هاجم رافعاً ومعه العرب ففر رافع إلى القيروان » ومعنى ذلك أنه فر منهزماً وهو ما يقوله ابن الأثير .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

فانكسر وانهزم إلى القيروان ، وجاراه على ذلك ابن عذارى[١] فقال : « نزل رافع على المهدية . . ووقعت الحرب بين الفريقين . . ثم أفسد على عليه ثلاثة أخماس العرب فصعد رافع ثم ولى قاصداً القيروان » ولكن ابن خلدون والتجانى لم يشيرا إلى هذا وإنما اتفقا على أن عليا هو المهاجم لقابس وأن رافعا أجبر على الفرار إلى القيروان .

وعلى كل فإن رافعا بعد انهزامه إلى القيروان ، اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد بينهم وسلموا له الإمارة على مدينة القيروان ولكن على بن يحيى لاحقه بالعرب هناك بعد ما وزع عليهم الأموال فأنشبوا القتال مع رافع وأقلقوا راحته وكادوا يتغلبون عليه ، فتداخل الأمير ميمون بن زياد الصخرى وكان من أصدقاء على وله عليه دالة لأنه كان وجهه بجبل وسلات فأخمد فتنته وقضى على الشر فيه ، تداخل هذا الأمير بالصلح بين على ورافع ، ورجعت قابس لبنى جامع[٢] فملكها رشيد بن مدافع بن كامل بن جامع كما جاء فى التجانى[٣]. ويسكت المؤرخون عن مصير رافع بعد تملكه للقيروان، عدا ابن الأثير الذى ذكر أن رافعا قد دخل القيروان بعد قتال نشب بينه وبين أهلها وأن على بن يحيى قد طرده منها ، وإثر ذلك وقع الصلح ويقضى برجوع رافع إلى قابس[٤]. وإذا ذهبنا مع هذه الرواية وليس لدينا ما يمنع من اعتمادها فالظاهر أن رافعا قد توفى بقابس إثر رجوعه وخلفه رشيد ابن عمه . وفى انتصار على بن يحيى على رافع وفرار هذا إلى القيروان يقول محمد بن عبد الصمد بن بشير :

سل رافعا ما الذى أجرى تنصره   وهل نفى الذل عنه من به وثقا

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٤٤٢ .
(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .
(٣) الرحلة ص ١٠٠ .
(٤) الكامل ، ج ٨ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

لو لم ير الروم أهلا والصليب أبا ... لم يشك من عيشه فى قابس رنقا
إنفاقك المال فى العلياء ألْحَـقَه ... بالقيروان التى يعتدّها نفقا
أبدت له عزة للجاهلين به ... وكان ستر عليه قبل فانخرقا
لله فعلك لا للمال تجمعه ... وكيف ذلك وقد شتّتّه مزقا
وكل مال تشاد المكرمات به ... أشد ما هو توفيرا إذا محقا[١]

٣ — رشيد بن مدافع بن كامل :

قال التجانى هو مضموم الراء[٢] تولى أمر قابس بعد ابن عمه رافع وآثر الصلح مع على بن يحيى القاضى ببقاء بنى جامع بقابس سنة ٥١١ هـ أو ٥١٢ هـ على الأكثر ، وقد استتب الأمن فى أيامه وحصر أعماله فى تنظيم ولايته وتشييد البناءات وإظهار أبهة الملك وبسط العطاء للرعية فأصبح منتج الشعراء والأدباء ، مدحه منهم جماعة فى مقدمتهم ابن حمديس الصقلى بقصيدة روى منها التجانى بيتا واحداً وهو :

أفلا يحالفنى الرشاد وهمتى ... قصدت بعزم للأمير رشيد

وبحثنا عن القصيدة فى ديوان ابن حمديس فلم نعثر عليها .

وأكمل بناء العروسين حسبما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وضرب السكة باسمه فسماها ابن خلدون بالسكة الرشيدية وذكر أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب أنه يوجد بإسبانيا قطعتان من نقود بنى جامع أصحاب قابس .

وتوفى رشيد هذا سنة ٥٤٢ هـ ، على قول ابن الأثير[٣] . بعدما نعمت قابس فى أيامه بفترة من الهدوء والعظمة والازدهار .

---

(١) نقلها التجانى ص ٩٩ — ١٠٠ والحلل السندسية ص ١٥٦ .
(٢) الرحلة ص ٩٥ .
(٣) الكامل ج ٩ ص ١٦ .

٤ — محمد بن رشيد :

تولى الإمارة إثر موت أبيه والمفهوم من أقوال المؤرخين أنه كان رجلا ضعيفاً سلم تصريف الأمور وحظوظ الدولة إلى مولاه يوسف ، فاستبد بالأمر دونه وتطاول على أهل القصر والسكان ، ولم يكد يخرج الأمير محمد من قابس لشأن من الشؤون لم يوضحه ابن خلدون . وذكر التجانى أنه خرج لحرب عدو له ، لم يكد يخرج الأمير لهذا الشأن ويترك ولداً له صغيراً نائبا عنه حتى استبد يوسف على هذا الولد فطرده من القصر واستولى على الإمارة مستجيراً بروجار صاحب صقلية واضعاً نفسه تحت حمايته فأرسل له روجار الخلعة والولاية مرحبا بطاعته له واحتمائه به .

هذا ما يقوله التجانى وابن خلدون[1] ، أما ابن الأثير فيزعم أنه إثر وفاة رشيد استبد مولاه يوسف بالأمر وبايع ابنه الصغير محمدا وهرب ابنه الكبير (معمر) إلى أخواله (بنى قرة) وأن يوسف اعتدى على حرمات سيده فاشتكت (القُرّية) إلى إخوتها فطلبوها منه فامتنع وذهب معمر إلى حسن الصنهاجى مستجيراً به ، فخاطبه الحسن فى تسليم المرأة فامتنع ، فهاجمه الحسن والعرب وثار عليه أهل قابس وقتلوه ، وتولى الحكم معمر بن رشيد بنو قرة أختهم الخ[2] .

ولعل معمرا الذى ذكره ابن الأثير قد مات فى هذه الفتنة أو تنازل لأخيه مدافع أو لعله هو الأمير (مدافع بن رشيد) الذى تولى بعد أخيه محمد بن رشيد إثر هذه الواقعة وقد أطلق عليه اسم (معمر) خطأ فيكون الأقرب للصواب أن يقال إن رشيدا أوصى بالإمارة لابنه الصغير محمد دون

---

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٤ ، ط الجزائر ، ورحلة التجانى ص ١٠٠ .
(٢) الكامل ج ٩ ص ١٦

أخيه الكبير مدافع ، فلما استبد يوسف بالأمر هرب مدافع إلى العرب وإلى الحسن الصنهاجي مستنجداً بهم .

ويسكت المؤرخون الثلاثة عن مصير محمد بن رشيد ، والأرجح عندنا أن يكون قد مات فى هذه الأحداث أو خلع عن الإمارة بسبب ضعفه أو صغره وظهور رافع فى الدفاع عن كيان البلاد ضد روجار وصنيعته يوسف فتولى الأمر برغبة السكان وهو أقرب للمعقول .

وعلى كل فقد كانت نتيجة ثورة يوسف وانتمائه إلى روجار أن العرب هاجموه بمساعدة الحسن الصنهاجى وثورة السكان غضبا من انتمائه لروجار وحاصروه فى قصر العروسين حتى استسلم ، فقتلوه ومثلوا بجثته وقطعوا مذاكيره ، ووضعوها فى فه ، انتقاما لما شاع عنه أنه اعتـــدى على حرمات سيده .

وهرب من قابس إثر هذه الواقعة عيسى أخو يوسف الثائر وولد ليوسف وقصدا صقلية مستنجدين بروجار مدعين أن ما جرى ليوسف إنما كان بسبب انتمائه لطاعته .

فغضب روجار وأرسل أسطولا بحريا لقابس فحاصرها مدة ثم رجع عنها دون طائل وخلصت قابس للأمير مدافع بن رشيد ولكن روجار لم يسكت عن هذه الهزيمة ، فأعاد الكرة بأسطول ضخم وجهه إلى المهدية فاستولى عليها سنة ٥٤٣ ﻫ ، وأطرد منها الحسن الصنهاجى وقضى نهائياً على دولة بنى زيرى الصنهاجيين .

وهذه الأحداث كلها وقعت فى سنة واحدة إذا صدقنا ابن الأثير أن رشيداً مات سنة ٥٤٢ ﻫ ، إذ أن أسطول روجار هاجم المهدية واستولى عليها سنة ٥٤٢ ﻫ ، وذلك بعد فشله فى هجومه على قابس إثر ثورتها على يوسف .

٥ — مدافع بن رشيد :

قال عنه التجانى[1] «كان شاعراً حافظا للسيرة والأخبار عالما بالأنساب» وقد جدد رسوم الملك وفتح العطاء للشعراء والمنتجعين على عادة أسلافه فعمر بلاطه بهم وأصبح قصر العروسين من أعظم النوادى الأدبية التى تضم نخبة شعراء البلاد .

وفى مقدمتهم وزير الأمير مدافع وصديقه وصاحب سره والقائم بأعباء دولته . سلام بن فرحان ، وسنذكر فى الباب السادس ترجمة هذا الوزير وتراجم بعض عائلة بنى جامع والمتصلين ببلاط مدافع من شعراء مثبتين لهم نماذج من شعرهم .

واستطاع مدافع أن يدارى صاحب صقلية ويسالمه بدليل أن الصقليين لم يناوشوه ولم يحاولوا الاستيلاء على بلده كما استولوا على المهدية وصفاقس وغيرهما من السواحل فى ذلك العهد .

انقراض دولة بنى جامع :

وظهرت دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وقويت شوكتها فى عهد عبد المؤمن بن على الذى اكتسح المغرب الأقصى والأوسط ودخلت جيوشه الأندلس فظفرت وأرعبت الإفرنج واتجهت الأنظار إلى هذه القوة الإسلامية الجديدة فاستصرخت إفريقية التى كانت تخوض المعارك الطاحنة ضد الاستعمار الإفرنجى الرابض على شواطئها والمحتل لعواصمها البحرية العاهل الموحدى ليساعدها على طرد العدو الأجنبى ، واتصل صاحب المهدية الشريد

---

(١) الرحلة ص ١٠١ .

الحسن بن على الصنهاجى بموحد إفريقيا عبد المؤمن واستنجد به لإنقاذ بلاده ، فجهز الجيوش والأساطيل لإفريقية وطرد الإفرنج من سواحلها واحتلت جيوشه عاصمة المهدية سنة الأخماس (٥٥٥ ﻫ) .

وسمع عبد المؤمن بهذه الدولة العربية المنتصبة بقابس وهذا الأمير العربى المشرف على حظوظها فأراد أن يستميله ليستعين به على طرد الإفرنج من السواحل « فلاطفه واستدعاه بأشعار خاطبه بها وتلوم عليه فامتنع من جوابه ، فلما وصل إلى حصار المهدية أنفذ إليه عسكراً »[١] . بقيادة ولده عبد الله بن عبد المؤمن ؛ وفوجئ مدافع بقوة لا طاقة له بمقاومتها فلملم نفسه وأخذ أمواله وعشيرته وفر من قابس سالكا طريق طرابلس ولكن جيوش عبد الله لحقت به قريبا من قابس فقاومها مدافع ساعات ثم انهزم .وهنا يظهر وزيره (سلام بن فرحان) فى ميدان التضحية ، فوقف فى جماعة يحمى ساقة مليكه حتى يشغل جيوش الموحدين عن الالتحاق به ، وبالرغم من شيخوخته فقد تمكن من المقاومة فى عزم وثبات وبطولة نادرة ، حتى قتل فى المعركة . وكان يقاوم وهو يعرف عدم جدوى المقاومة وهو على يقين أيضا من أن مصيره الموت ، فكان يخوض الصفوف ويردد قوله :

أكذا أموت وما بلغت مرادى   بين الصوارم والقنا الميـــاد
حيث العيون لوامح وطوامح   ما بين أحباب وبين وأعادى[٢]

وكان ذلك اليوم آخر العهد بدولة بنى جامع .

وهرب مدافع بن رشيد إلى طرابلس فاستجار بأعرابها من بنى سليم فأجاروه (فلما أتى عليه عامان طريدا شريدا استشار عشيرته فى اللحاق

---

(١) رحلة التجانى ص ١٠٠ .

(٢) رحلة التجانى ص ١٠١ – والحلل السندسية ص ١٥٨ .

بعبد المؤمن فأشاروا عليه بذلك فسار إليه فلقيه بمدينة قابس فرضى عنه وأسكنه هناك فتوفى بها وقد ناهز التسعين)[1] . ويذهب ابن خلدون أنه (لحق بعبد المؤمن فى المغرب فأكرمه)[2] .

وأمعن بعض عائلة بنى جامع فى الهرب إلى الشرق وتفرقوا فى بلدانه ، منهم : أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر (أو بن مكى) بن كامل بن جامع الذى استوطن دمشق وندب ملكهم بقابس بقصيدة مطلعها :

يا جار طرفى غير هاجع   والدمع من عينى هامع[3]

ملاحظة : جاء فى هذه القصيدة قوله :

ولقد ملكنا (قابسا) بالمشرفيات القواطع

تسعين عاما لم يكن أحد لنا فيها منازع

والتسعون عاما التى ذكرها لا يؤيدها التاريخ الذى ذكرناه من أن بنى جامع انتصبوا بقابس من (٤٩٠ - إلى ٥٥٥) أى خمسة وستين سنة ، إذن فلا مندوحة من تعليل عدد (التسعين) هذا بوجه من الوجوه التالية :

١ - أن يكون الشاعر ذكر (ستين - أو سبعين) مثلا والغلط من الناسخ .

٢ - أن يكون مبالغة من مبالغات الشعراء .

٣ - أن يكون الشاعر اعتبر ملكهم يبتدئ منذ صرف العمال الصنهاجيون طاعتهم للعرب .

---

(١) الرحلة ص ١٠١ .

(٢) ابن خلدون ج ١ ص ٢١٤ ط الجزائر .

(٣) سنثبتها فى ترجمته بالباب السادس .

— ٢ —

نكسة

وهكذا خسرت قابس استقلالها بعناد أميرها (مدافع) وألحقت بالولاية العامة للموحدين بعاصمة تونس وأصبحت مقاطعة من المقاطعات الصغيرة مثل المهدية وقفصة وغيرهما يحكمها عمال من قبل الوالى الموحدى بالعاصمة .

وعلى إثر ارتحال عبد المؤمن إلى المغرب بدأت الفتن والثورات فى إفريقية إذ ورد لها مغامران فوضويان من أشد ما عرف فى التاريخ من هذا النوع بطولة وقسوة وحبا للمعامرة والقتل والتخريب ، أحدهما من الغرب وهو المعروف بالميورقى ، والثانى من الشرق وهو المعروف بقراقوش . ونظرا لاتصالهما بقابس وأحداثها وتعرضها فى زمنهما للمحن والفتن لا نرى بدا من التعرض لحياتهما وحركاتهما باختصار .

١ — الميورقى[1] :

ويلقب بابن غانية نسبة إلى جدته (غانية) من نسل أمراء المرابطين ملوك مراكش وجَدّ أبناء الميورقى هؤلاء هو محمد بن على بن يحيى المسوفى عامل جزيرة ميورقة من قبل على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ — ٥٣٧ هـ) صاحب مراكش والأندلس . ولما ظهرت دولة الموحدين بالمغرب عهد محمد بالحكم على ميورقة إلى ولده عبد الله واعتزل هو الحكم بعد عشر سنين قضاها فيه فنافس إسحاق بن محمد أخاه عبد الله وحقد على أبيه فغدر بهما وقتلهما سنة ٥٤٦ هـ ، واستقل بالأمر وأظهر المسالمة والطاعة لدولة الموحدين الجديدة حتى هلك سنة ٥٨ هـ ، تاركا اثنى عشر ولدا ذكورا هم (محمد ، وعلى ، ويحيى ، وعبد الله ، وسير ، والمنصور ، وجبارة ، وتاشفين ، وطلحة ، وعمر ، ويوسف ، والحسن) .

---

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ط بولاق من ص ١٩٢ إلى ١٩٧ ومن ٢٤٢ إلى ٢٤٩ .

فتولى بعده ولده (محمد) وأرسل بطاعته إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨ — ٥٨٠) ، فأرسل هذا أحد خواصه يختبر طاعة صاحب ميورقة . فقامت قيامة إخوة محمد واعتبروا هذا العمل من صاحب مراكش إهانة لهم وتدخلا فى شؤونهم فقبضوا على أخيهم محمد وولوا مكانه أخاهم (عليا) ، وفى هذه الأثناء توفى أبو يعقوب صاحب مراكش وولى مكانه ولده يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥) فترك على ميورقة لأخيه طلحة ورحل فى أسطول مجهز بالجيوش ومعدات الحرب إلى بجاية فاستولى عليها سنة ٥٨١ هـ ، ثم تحول إلى الجزائر فاستولى عليها أيضا وتقدم إلى مليانة وقسنطينة يملك ويخرب ، فقام إليه المنصور الموحدى بجيوش جرارة واسترد البلدان التى استولى عليها بالمغرب الأوسط وطارده ، ففر إلى الصحراء ثم نازل قفصة فاستولى عليها وحاصر توزر فامتنعت عليه ، ولما سمع بقرب جيوش الموحدين هرب إلى طرابلس ، وهناك سمع أن أخاه محمداً المسجون تمكن من الهرب إلى الموحدين وأن المنصور أرجعه واليا على ميورقة فتمكن منها وأزاح عنها أخاه طلحة فأرسل على أخاه عبد الله من طرابلس فى قطع من الأسطول لاسترجاع ميورقة فوجد أن أهالى الجزيرة ثاروا بأخيه محمد وولوا أخاه (تاشفين) ووصل عبد الله فتسلم زمام الجزيرة سنة ٥٨٣ هـ .

وفى هذه الأثناء التقى الميورقى بالمغامر الشرقى قراقوش ، فاتحد معه على الموحدين وأرسل لهما المنصور جيشا التقى بهما فى (عمرة) قرب قفصة فانكسر جيش الموحدين فتحرك إليهما المنصور من تونس والتحم بهما قرب حامة قابس فأوقع بهما هزيمة شنيعة وطاردهما إلى توزر فامتنعا منه بالصحراء ورجع المنصور إلى قابس فاستسلمت له وقبض فيها على أهل وشيعة قراقوش الذى كان مالكا لها — كما سيأتى — بعد أن تحصنوا بقصر العروسين يومين — فأرسلهم المنصور إلى مراكش وبعد تمهيد البلاد عقد

المنصور للسيد أبي زيد من شيوخ الموحدين على تونس ورجع هو إلى المغرب فى سنة ٥٨٤ ، وفى هذه السنة مات على الميورقى من أثر سهم أصابه فى واقعة حربية مع نفزاوة وأخذ مكانه أكبر مغامر عرفه التاريخ التونسى أخوه يحيى الميورقى الذى تجهز إلى بسكرة — فاحتلها بعد أن قطع غابة نخلها وفتح بعض البلدان الأخرى من المغرب الأوسط ثم يمم تونس فاحتل الجريد ونفزاوة ووقع تعير بينه وبين صاحبه قراقوش — وكان فى ذلك الوقت بطرابلس — فالتحق به هناك وتغلب عليه واحتل طرابلس ومنها رجع إلى قابس فاحتلها سنة ٥٩١ هـ ، وسيأتى تفصيل ذلك . وحدث شر بينه وبين محمد بن عبد الكريم صاحب المهدية[1] تجرأ معه هذا على محاصرة قابس فلم يفلح والتحق به الميورقى إلى المهدية فافتكها منه سنة ٥٩٩ هـ ، وفى نفس السنة احتل تونس وأسر الوالى الموحدى ثم احتل القيروان وصفاقس وأصبحت تونس كلها تقريباً تحت حكمه يخطب فيها للخليفة العباسى ونهض إليه من المغرب أمير المؤمنين الناصر بن المنصور الموحدى (٥٩٥ — ٦١١) فافتك منه تونس والمهدية وقابس سنة ٦٠١ هـ ، وفر الميورقى إلى طرابلس فأتبعه شيخ الموحدين أبو محمد بن الشيخ أبى حفص فى جيش كثيف فلحق به (بتاجرا) قرب (مدنين) فانكسر الميورقى وفر بأهله وحشمه تاركا أمواله وأثقاله غنيمة للموحدين . (روى المؤرخون أنها ثمانية عشر ألف حمل من المال والمتاع والآلة) . وطارده الموحدون فى طرابلس وجبالها فرجع إلى المغرب وظهر بسلجماسة ثم بالمغرب الأوسط ثم بطرابلس كرة أخرى والتقت به جيوش الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بجبل نفوسة — سنة ٦٠٦ هـ ، فانهزم أمامها وحاصره الموحدون

---

(١) ثار بالمهدية سنة ٥٩٥ هـ وقتله الميورقى بها سنة ٥٩٩ هـ .—انظر ترجمته كاملة فى رحلة التجانى ص ٣٥٠ وما بعدها .

فى ودان جنوب طرابلس ففر إلى الزاب فنازلته جيوشهم ببسكرة سنة ٦٢١ هـ .

وأخيراً مات يحيي الميورقى حريحا حوالى سنة ٦٣١ فى عهد استيلاء أبى زكرياء الأول(١) على تونس بعد ما حير الموحدين والحفصيين نحو نصف قرن قضاها فى المغامرات الخطيرة التى لو توجه كاتب لجمعها لكانت أعظم مما ترويه الروايات الخيالية عن المغامرين ، ومن الغريب أن هذا الرجل يموت بمكان مجهول من جنوب الجزائر ويعفى على قبره . وفى آخر لحظة من حياته يأمر بإرسال بناته إلى عدوه الألد أبى زكرياء الأول صاحب تونس ويجعله وصيا عليهن ويوصيه بعضلهن عن الزواج وهى فكرة عرفت عن أمثاله من المغامرين وربما يرجع أصلها إلى غيرتهم الجنونية من أن تصبح نساؤهم زوجات للرجال — وقد أكرمهن أبو زكرياء وأفرد لهن قصراً عرف بقصر البنات — وبه سمى باب البنات — بتونس العاصمة حيث عشن عوانس طول حياتهن .

ويقال إن ابن عم لهن خطب إحداهن بواسطة أبى زكرياء فلما خاطبها بذلك أجابت « لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب » .

قال ابن خلدون « أخبرنى والدى أنه أدرك واحدة منهن فى سنى العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين وكانت من أشرف النساء نفسا وأسراهن خلقا وأزكاهن حالا » .

وقد اشتهر الميورقى فى حروبه بالبطولة الخارقة التى تصل إلى درجة التهور أحيانا وبسرعة الحركة التى أعجز بها الجيوش اللاحقة فكان يظهر كل حين بمكان يجتاحُ البلدان كالعاصفة فيقتل ويخرب ويغنم الأموال

---

(١) وقال أستاذنا فى خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٧ ، « ظفر به أبو زكرياء وقتله » .

والذخائر حتى إذا أحس بقرب المطاردين وعرف أنهم أقوى منه ارتحل إلى مكان آخر ، وكان جيشه يتكون من عناصر غريبة من العرب والبربر المغامرين وكان جل اعتماده على مغامرين من فرسان بنى سليم المنتشرين فى إفريقية ، وكان له كاتب أندلسى من أبرع ما أنجبت الأندلس من شيوخ الأدب ونوابغ الكتابة شعرا ونثرا هو (عبد البر بن فرسان) وسنورد ترجمته ونماذج من شعره ونثره فى الباب السادس .

٢ — قراقوش[1] :

هذا هو المغامر الثانى الذى ظهر فى هذا العهد وحير حكومات إفريقيا من تونس إلى المغرب ، ذكر عن أصله التجانى ما خلاصته[2] أن صلاح الدين الأيوبى صاحب مصر أحس بوحشة من طرف أميره نور الدين زنكي صاحب الشام سنة ٥٦٨ هـ ، فخافه على نفسه وعزم أن يتخذ لنفسه مكانا للهرب أمامه إن هاجمه فتكفل له أخوه توران شاه بفتح بلاد اليمن وتكفل له ابن أخيه تقى الدين بن شاهن شاه بفتح بلاد المغرب وشرع تقى الدين فى التأهب لذلك ثم عدل عن عزمه فلم يرض بذلك مملوكه قراقوش الأرمنى واتفق مع مغامر آخر من زملائه يسمى إبراهيم بن قراتكين أحد أتباع الملك المعظم أخى صلاح الدين فهربا بطائفة من الجند إلى المغرب وافترقا على أن ينفرد كل منهما بما يفتحه من البلاد ، فأما إبرهيم فقد عزم على اللحاق بالموحدين ولكن شيوخ العرب من بنى سليم صدوه عن ذلك وساروا معه إلى قفصة فلكها بمساعدة بنى الرند أصحابها وخطب فيها

---

(١) قال عبد الواحد المراكشى فى المعجب فى أخبار المغرب ص ١٩ « هو غير بهاء الدين قراقوش صاحب صلاح الدين » المشهور فى مصر والذى يضرب بحكمه المثل (حكم قراقوش) .

(٢) الرحلة ص ١٠٣ وما بعدها .

للخليفة العباسى وللسلطان صلاح الدين بعده وهناك قبض عليه المنصور الموحدى وقتله سنة ٥٨٣ هـ .

وأما قراقوش فقد قصد بلاد الفزان فاحتل سنترية وزلة وأوجلة وزويلة بنى خطاب وقضى على دولة بنى خطاب هؤلاء وخطب فى البلاد لصلاح الدين الأيوبى ، ومن هناك انتقل إلى جبل نفوسة فاحتاه بما اجتمع معه من الأعراب ثم استولى على طرابلس ومنها سار إلى قابس فاحتلها واتفق مع الميورقى على قتال الموحدين . ولما هزمها المنصور الموحدى بالحامة سنة ٥٨٣ هـ ، ووقعت عائلته بقبضة المنصور إثر احتلاله لقابس فى هذه السنة أعلن قراقوش الإنابة والطاعة للموحدين سنة ٥٨٦ هـ واجتمع بالسيد أبى ريد بن أبى حفص والى تونس من قبل المنصور وأقام عنده زمنا ثم عاوده الحنين إلى المغامرة ففر من تونس ورجع إلى قابس فى طائفة من أصحابه ودخل المدينة مخادعة وحيلة واستولى عليها وقتل جماعة من أعيانها ثم استدعى سبعين فارسا من أعيان عرب دباب سكان الجهة فجاءوه غافلين فقتلهم ورمى رؤوسهم فى بئر بقصر العروسين . قال التجانى[1] : « ومن جملة من قتل منهم محمود بن طوق بن بقية وإليه تنسب المحاميد ، وحميد بن جارية وهو أبو الجوارى فى سبعين من كبارهم وذلك بداخل قصر العروسين فى موضع منه معلوم إلى الآن .

وأخبرنى أبو صبيرة مسعد بن الأزرق الضريسى أن الدعى بن أبى عمارة لما تغلب على قابس سنة ٦٨٢ هـ ، أمر بحفر ذلك الموضع لبناء أحب أحداثه هناك ... فوافق الحفر موضع دفنهم فرفعوا منه بين أيدينا نيفا وستين رأسا فأمر الدعى بنقلها إلى غير ذلك الموضع فدفنت به » .

---

(١) الرحلة ص ١٠٤ .

ثم انتقل قراقوش إلى طرابلس فاحتلها — وقد كانت تحت حكمه وانتقضت عليه — وهناك لحق به الميورقى كما سبقت الإشارة إلى ذلك . فانهزم قراقوش ، وكانت هذه الواقعة بموضع يعرف بمحسن ، جاء ذكره فى شعر عبد البر بن فرسان كاتب الميورقى وهو قوله :

ألا لا سقى الرحمان (محسن) قطرة ولا زال مغبر الجوانب محسن
وخيب (قطيسا) منَ الغيث كله ولا ابتْلّ فيه للركائب فرسن[1]

واستقر قراقوش بعد ذلك بودان — جنوب طرابلس — حتى وصله الميورقى فى جمع من فرسان دباب من بنى سليم الذين كانوا يتحرقون إلى الانتقام منه تأراً لآبائهم الذين قتلهم بقابس ، فحاصروه حتى فنى طعامه فاستسلم لهم وشرط أن يقتلوه قبل ولده فأجابوه لذلك ، وصلبه الميورقى بظاهر ودان وذلك سنه ٦٠٩ هـ[2] .

قال التجانى « فلما خرج هو وولده إليهم قال له الولد : يا أبت إلى أين يروحوا ؟ بنا ؟ فقال · إلى حيث رحنا بآبائهم »[3] .

قابس فى هذه الفترة :

كان هذا العهد أتعس فترة عاشتها قابس من حياتها وتعرضت فيها إلى أحداث ومحن هلك أثناءها كل شىء وعاش أهلها فى رعب مستمر ونهب للأموال والأنفس والثمرات ، وتوالت عليها من الولاة وجوه مختلفة فى السياسة والمشارب متباينة الأغراض والأهداف ، فلم تكد تستقر بها أقدام الموحدين الذين دخلوها على أثر بنى جامع سنة ٥٥٥ هـ ، حتى فاجأها

---

(١) عن رحلة التجانى ص ٢٤٤ .
(٢) الرحلة ص ١١٠ .
(٣) الرحلة ص ١١٠ .

قراقوش الأرمني في العقد الثامن من القرن السادس أي بعد نحو عشرين سنة من استقرار الموحدين بها ففرض عليها الجبات الباهضة حتى يتمكن من القيام بحروبه مع الموحدين .

وفي سنة ٥٨٣ ، دخلها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وقبض على شيعة قراقوش بعد حصارها في قصر العروسين وترك بها عاملا من قبله ، ولكن شر قراقوش لا يزال يتبعها كأنما ارتبطت به حظوطها ، ففي أواخر هذا العقد دخلها قراقوش مرة ثانية إثر فراره من تونس .

يقول التجاني « رجع قراقوش إلى قابس وخادع أهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم وأظهر الرجوع على الإنابة ، واستدعى أشياخ العرب الدبابيين فقتل أعيانهم بقابس . . الخ»[1] .

والمفهوم من هذا أن قراقوش دخلها بعنوان كونه تابعاً ومطيعاً للموحدين وأنه أظهر العصيان بعد تمكنه من الدخول إليها وبفضل كتمانه للعصيان تمكن من خداع أهل قابس حتى دخل البلد .

وفي قابس اليوم يوجد مكان يسمى (ظهرة قراوش) والظهرة في لغة الجنوب الربوة أو المكان المرتفع ، وهذا المكان موجود شرقي سوق جارة وبه يوجد ضريح سيدي أبي إسحاق ، ويزعم أهل قابس أن سبب تسميتها بظهرة قراوش هو أن صبيانهم كانوا في القديم يتعلمون القرآن بسيدي أبي لبابة وكلما حرجوا من الكتاب ورآهم الناس المجتمعون في تلك الربوة يقولون (قراو وجاو) أي قرأوا وجاءوا ، فسميت ظهرة قراوش ، وهو تعليل بعيد لسبب التسمية .

والظاهر عندي أن المكان مضاف إلى اسم (قراقوش) صاحبنا ، وأنه

---

(١) الرحلة ص ١٠٤ .

كان نزل هناك عند دخوله لقابس وقبل احتلاله لقصر العروسين ، فنسبت الربوة إليــه وسميت (ظهرة قراقوش) وحرفها العامة فأصبحت (ظهرة قراوش) .

ولما اختلف قراقوش مع يحيى الميورقى ، أرسل هذا إلى عرب بنى سليم المساندين لقراقوش يعيرهم بالانتماء إلى رجل أرمنى لاخلاق له ... ويناشدهم صلة الرحم ويدعوهم إلى التخلى عن مناصرة قراقوش واللحاق به هو قصيدا من نظم كاتبه ابن فرسان :

يا أيها الراكب السارى لطيته … على عذافرة تشقى بها الأكم[1]

بلغ سليما على بعد المزار لها … بينى وبينكم الرحمان والرحم

يا قومنا لاتشبوا الحرب إن خمدت … واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا

يقودهم أرمنى لاخــلاق له … كأنه فيهم من جهلهم علم

الله يعــلم أنى ما دعوتكم … دعاء ذى ترة يوما فينتقم

ولا لجأت لأمر يستعان به … من الأمور وهذا الحق قد علموا

لكن لأمر رسول الله عن رحم … ينمى إليــه وترعى تلكم الذمم

فإن أتيتم فحبل الود متصل … وإن أبيتم فعند السيف نحتكم

ولست أدرى ما هى الرحم التى يناشد بها الميورقى بنى سليم وهو بربرى من قبيلة مسوفة وهم عرب من العدنانية ، اللهم إلا أن تكون الصلة القديمة التى بين العرب والبربر بصفتهم من أرومة واحدة حسبما ذهب إليه ابن خلدون أو أن الميورقى كان يدعى لهم أنه عربى منهم استجلابا لحميتهم ، وعلل التجانى هذا بقوله . « لأنه واياهم من سليم »[2] وهو غلط ، ثم التحق الميورقى بقراقوش وهزمه بطرابلس كما سبق ذكره .

---

(١) جمع عذافر وعذوفر الشديد من الإبل . وكلمة (تشقى بها الأكم) رواية التجانى وفى الحلل السندسية ص ١٦٦ (يشقى بها الألم) .

(٢) الرحلة ص ١١٥

ووصلت الأخبار إلى تونس ففر عامل قراقوس من قابس والتحقت بحكم الموحدين ، وأرسل لها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص الوالى الموحدى على تونس عاملا من قبله يسمى (بن تافراجين) .

ولم يكد يستقر هذا العامل بقابس حتى داهمه جيش الميورقى القادم من طرابلس — وقد كان حاصرها إثر انهزام قراقوش — فاحتلها بعد مقاومة شديدة بدأها عامل قراقوش . واستراح الجيش بقرية رريق على ١٨ ك م جنوب قابس ، ووجد البلد مستعدا لمقاومته فأرسل الميورقى لأهل قابس إنذاراً من تحرير كاتبه عبد البر ابن فرسان جاء فيه[1] :

« ولما عزمنا على قرع بابكم ، والحلول بجنابكم ، رأينا تقديم الإنذار إليكم ، وإيراد النصيحة عليكم ، والكف عنكم ثلاثة أيام لا تمد لكم فيها يد ، ولا يتقدم إليكم بالإضرار أحد ، لنعلم ما عندكم ، ونتبين غيكم أو رشدكم ، فإن آثرتم الطاعة وتبعتم الجماعة ، مددنا لكم أكناف العدل ، وأتبعنا فيكم كريم القول وصحيح الفعل ، وإن أبيتم إلا خلافا فقد أبلينا النفس عذرا ، وأتينا بالتبرئ من أمركم برا ، ولا تغتروا بأهل طرابلس فاوكان لهم سواد يقطع ، أو مياه تصد وتمنع ، لجروا إلى الطاعة ، وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة » .

ولكن أهل قابس رفضوا إنذاره وتهديده ، وتخويفه ووعيده وعزموا على مقاومته مهما كانت النتيجة ، فلما انقضى الأجل الذى حدده لهم تحرك إليها بجموعه وشرع فى قطع أشجار غابتها وتخريب وإحراق ما بها من المساكن والمنازل حتى لم يدع فى الغابة إلا نخلة واحدة لتكون عبرة لمن اعتبر ، وجد فى حصارها وقتالها ، ونصب حولها المجانيق وآلات

---

(١) عن رحلة التجانى ص ١٠٥ .

التخريب حتى فاتحه السكان فى التسليم وشرطوا « مسالمة واليهم ابن تافراجين وأن يتوجه بأهله وماله فى البحر »[١] .

فأجابهم الميورقى لذلك وخرج ابن تافراجين من قابس بأهله ودخلها الميورقى وفرض على أهلها مائة ألف دينار غرامة ، ولما عجزوا عن دفعها أنقصها إلى ستين ألفا فدفعوها وهم كارهون . وكان هذا الاحتلال حسبما جاء فى الرسالة التى كتبها ابن فرسان إلى أهالى طرابلس على لسان الميورقى يبشرهم بفتح قابس أواخر رمضان سنة ٥٩١ هـ ، والرسالة المشار إليها من أبدع ما كتب ابن فرسان ، سلك فيها طريقة السجع الرائجة فى ذلك العصر ورصعها بأنواع من البديع والاستعارات ، ووصف فيها الواقعة وصفا دقيقا يناسب أن ننقل منها النماذج التى نقلها التجانى فى رحلته[٢] ، وذكر أنه نقلها بدوره من خط شيخه فقيه طرابلس وعالمها أبى فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبيد[٣] .

من رسالة الميورقى لأهل طرابلس

تحرير عبد البر بن فرسان

« الحمد لله الذى أعاض من النصب راحة ، وأضاء بإشراق الدعوة الدعوة العباسية[٤] جهة من هذه المدينة كانت مظلمة وساحة ، بعد لجاجة شيطانها ، ومكابدة قطانها ، وتضييق أعطانها بمجانيق مسامتة لمبانيها ، على توانيها ، لا تبلع أهلها ريقا ، ولا تجد لهم للمدافعة طريقا ، فريقا ترهب على البعد وتقتل فريقا ، وكنا قبل وضع تاجها ، وخلع رتاجها ، وكسر غايتها ، والتوغل فى غابتها ، خاطبنا جمهورهم ،

---

(١) رحلة التجانى ص ١٠٦

(٢) الرحلة ص ١٠٦ .

(٣) انظر عنه رحلة التجانى ص ٢٥٤

(٤) كان الميورقى يتظاهر بانتمائه للخلافة العباسية ببغداد .

واستنزلنا معمورهم للطاعة ومغمورهم رغبة فى الإبقاء عليهم ، وإنذاراً لم يكن بد من تقديمه إليهم ، فرفعوا عواءهم ، وركبوا أهواءهم واستنهضوا غويهم فنصبوا للشقاوة لواءهم ، وكان فيها رجال الدرق ، ورماة الحدق، غثاء أسندوا إليهم طهورهم فانقصمت ، وتمسكوا بعراهم فانفصمت ، وغوغاء استنفروها ركدوا بعد الهبوب ، وعرفوا سموم تلك الجنوب » .

ومنها فى وصف الحصار وتخريب الغابة واستسلام السكان .

« فأخذهم هول الحصار ، وأحاطت الخيام بالأسوار ، حتى كانت المدينة معها كالزند فى ضمن السوار ، وكالعنق تحت محيط الأزرار ، وكالمركز للفلك الدوار ، وكما لاحت فى هالتها أجسام الأقار ، لا ينبسون إلا على أذن واعية ، ولا يتسللون إلا على عين مراعية ، فضجوا من ثلاث ، ساقتهم إلى التشجب[1] سوق احتثاث بعد القسوة ، وانصداع عصا الأسوة ، والعجز عن حماية الثغر والأولاد والنسوة ، ولما سقط فى أيديهم ، ولم يجدوا راحما يعصمهم ممن يؤذيهم ، سلكوا للطاعة طريقه ، وتظاهروا بها مجازا أو حقيقه ، فقبلت على حكم التسليم والتفويض ، والقيام بعبء وظيفة المال والنهوض ، وانتقلوا من الحرم إلى الحل ، ومن الحرور إلى الظل ، وقصر عن العدو حد السيف المطل ، وتفقدوا سوادهم فوجدوه طامس الآثار ، مجتث الأشجار ، مغور المياه الغزار ، لا منورا أبقت الأيدى منه ولا منثورا ، يقول ناظره متعجبا ومعتبرا ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » .

ومنها فى شروط الصلح وتنفيذها :

« وإذ تقرر على الشرط حكم الاصطلاح ، وجرد المسترزق منهم

---

(١) الهلك والموت أو الحزن .

والمتطوع من ملابس السلاح ، وحمل غويهم(١) والمؤمن فى نفسه وأهله مع من اختار صحبته من جنده الخاسر على ذات الدسر والألواح ، وفرضنا عليهم مائة ألف دينار عددا ، لم نفسح لهم فى اقتضائها أمدا ، فعجزوا واستكانوا ، وتضاءلوا بذلك كأنهم غير الذين كانوا ، فوسعهم التفات دينى ، ونظر على الرحمة مبنى ، خفف المتون ، فأضحت المائة وهى ستون ، وهم فى شأنها مفيضون ، وعما عداها معرضون ، فخاطبناكم بهذا الفتح(٢) الذى أشرقت من جانبيه شمس النجح ، لتأخذوا من المسرة بحظ من تبين لعينه تبلج الصبح ، فقد تقرر لدينا مما تعتقدون من الاعتماد علينا والاقتصار ، ومزيد النظر كل حين فى أحكام الطاعة والاستبصار ، ما عضد خبره بالاختبار ، ولم يرتمع منه إلا ما وقع بالموافقة وجاء على الاختيار » .

ويقول ابن فرسان فى هذه الواقعة نفسها يمدح مخدومه الميورقى(٣) :

أجل إنه النصر المهنأ والفتح	طواه الدجى وقتاً وبينه الصبح
عصوا ثم جاءوا طائعين إمامهم	عماية غى كان آخرها النجح
هدوا للهدى بعد اقتحام مضلة	بأوجههم من منح(٤) ضرائها لفح
عموا عن سبيل الرشد ثمت أبصروا	وقد كان نشوان الضلالة لا يصحو
وفاءوا على حين اقتراح(٥) سمائهم	إلى غرة قد كان مهم بها قرح
أجالوا قداح الرأى أثناء عزمهم	فحين أنابوا فاز بالأمل القدح
وما أدعنوا للشرط حتى أراهم	ردى فهم فى كل حرب لهم برح

(١) المقصود ابن تافراجين والى قابس للموحدين .

(٢) الخطاب موجه لأهل طرابلس .

(٣) عن رحلة التجانى ص ١٠٩ والحلل السندسية ص ١٦٢ .

(٤) فى الحلل (من قبح) . ولعل الصواب (من فيح) .

(٥) فى الحلل (وعن حين اقتراء) .

فما وريت منهم زناد استكانة ... من الشر حتى حك فى سمها[١] القدح

جثوا لقبول العفو فى مجلس الرضا ... على بذل مال بان عنهم به الشح

فأوسعتهم عفوا وخففت عنهم ... من المال ما لولاه أدهم الفدح[٢]

وهبت الذى لو ظن غيرك أنه ... يعوز به لم ينجهم عندها الصلح

وما المـــال إلا للنفوس وقاية ... خسارته فى جنب[٣] ما يتقى ربح

تقود الجيوش الدهر[٤] برا ولجة ... ففى سبسب وخد وفى لجة سبح

تنازل من عاداك فى عقر داره ... فتنزله لو كان منزله الصرح

وتضرب بالحق الصحيح كلى العدى ... إذا كان حظ البطل من غيرك الجرح

وتطلع فجر العدل فى مشرق الهدى ... إذا امتد من ليل اعتداء العدى جنح

وتسرد من آى العلى سورا لهـــا ... براهين لا يخفى لها أبدا شرح

تقوم لها فى المكرمات[٥] دلائل ... كما قلم عن مستودع الروضة النفح

فلا زالت فتاح البلاد ممهدا ... جوانبها ما التاح من بارق لمح

ودان لك الدانى وقص من الذى ... قصا[٦] طاغياً ريش وحم[٧] له ذبح

واستكانت قابس للميورقى بعد هذه النكبة واتجه السكان لتجديد غراسة غابتهم التى خربت وغورت مياهها وأفسدت مزروعاتها ، إلا أن الأحداث

---

(١) فى الحلل (فى مسها) .

(٢) فى الحلل (ادهم الفتح)

(٣) فى الحلل (فى حب) .

(٤) فى الحلل (الدهم)

(٥) فى الحلل (بالتكرمات) .

(٦) فى الحلل (بغى) وقصا بمعنى بعد .

(٧) فى الحلل (وصح) .

لم تمهلهم ، فقد وقعت خصومة بين الميورقى وبين ابن عبد الكريم صاحب المهدية فهاجم الأخير قابس طامعا فى طرد الميورقى منها ، « فلما أشرف عليها ، هاله أمرها وعلم أن لا طاقة له بها فارتحل عنها إلى قفصة »[1] . وكان ذلك فى سنة ٥٩٧ — فلما استقر ابن عبد الكريم بقفصة تحرك إليه الميورقى من قابس وهزمه فى قصور (لالة) قرب قفصة ثم التحق به إلى المهدية وحاصره فيها واحتل البلد وقبض عليه وقتله فى نفس هذه السنة .

وقد اضطرت هذه الأحداث الخليفة الموحدى محمد الناصر بن المنصور إلى أن يقصد تونس فى جيوش كثيفة لحسم الفتن والثورات ، فوصل إلى قابس سنة ٦٠١ وحاصر الميورقى حتى خرج منها واحتلها الموحدون وتبعت الجيوش الميورقى إلى تاجرا قرب مدنين فكسرته كسرة شنيعة وفر الميورقى هاربا بنفسه إلى جهة طرابلس .

واستراحت قابس من أهوال الفتن والفواجع واعتنى عمالها من الموحدين بالحالة الاقتصادية والزراعية ، فاهتم الناس بذلك تبعا لسياسة ولاتهم ، فنجد غابة (كتانة) قد غرست زيتونا فى عهد ولاية أبى زكرياء الأول الحفصى على قابس سنة ٦٢٤[2] .

وانتهى عهد النكسة بقابس سنة ٦٢٥ — عندما انتصب أبو زكرياء يحيى سلطانا على تونس واسترجعت قابس استقلالها الكامل تارة والمنقوص أحيانا تحت حكم عائلة بنى مكى اللواتيين .

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٣ .

(٢) الرحلة ص ١١٩ .

بنو مكى (٦٢٥ - ٧٩٦)[1]

أصلهم :

من قبيلة لواتة البربرية وجدهم مكى بن فرج (أو فرح) بن زياة الله بن أبى الحسن (أو الحسين) بن محمد بن زيادة الله بن الحسين اللواتى .

وكانت هذه العائلة من أعيان عائلات قابس ذات الشهرة والثروة الواسعة ، ولا نعرف من الذى نزل قابس جدودها أولا .

اتصلت هذه العائلة بأبى زكرياء الأول الحفصى زمن ولايته على قابس سنة ٦٢٣ ه ، من قبل أخيه أبى عبد الله الملقب بـ(عبو) بن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الوالى الموحدى على تونس .

ومن المعروف أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد الحفصى جد الحفصيين قد ولاه الناصر الموحدى على تونس سنة ٦٠٣ ه ، حيث بقى إلى أن توفى سنة ٦١٨ ه ، فبايع الناس ابنه عبد الرحمن ولكن الخليفة الموحدى المستنصر بن الناصر (٦١١ — ٦٢٠) عزله وأولى مكانه عمه إدريس فلم تطل مدته وتولى مكانه (عبد الله عبو) الابن الثانى للشيخ أبى محمد سنة ٦٢٠ ه ، فعقد لأخيه أبى زكرياء يحيى على قابس ، وشاء القدر أن تحدث خصومة بين الأخوين فجهز كل منهما الجيوش لقتال أخيه وظهرت فى هذه المحنة عائلة بنى مكى التى تقدمت لإعانة أبى زكريا وأمدته بالمال والرجال والمعدات وصاحبه فى حربه كبيرها عثمان بن مكى ، واستنكر جيش عبد الله هذه

---

(١) جمعنا هذا الفصل عن رحلة التجانى ص ١٧٨ ، وابن خلدون ، الفصل الخاص ببنى مكى آخر الجزء السادس من طبعة بولاق ، والتاريخ الباشى من ص ١٧٢ — ١٨٢ (مخطوط) ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة قابس .

الحرب ففر أغلبه إلى أبي زكرياء عند اللقاء قرب القيروان وتمكن بذلك من احتلال تونس والقبض على أخيه ، وكانت دولة الموحدين فى المغرب تلفظ أنفاسها فأعلن أبو زكرياء الاستقلال عنها سنة ٦٢٦ هـ ، ونازعها السلطة واستولى على بلاد الجزائر وجاءته بيعة سجلماسة وسبتة وطنجة ومكناس وخطب له بنو مرين فى المغرب[١] وبذلك حقق وحدة المغرب العربى التى انثلمت أواخر عهد الموحدين .

ووفى أبو زكرياء لعائلة بنى مكى فأفرد كبيرهم بالأمر فى قابس إقرارا بالجميل .

١ — عثمان بن أبى القاسم بن مكى :

تفرد بالأمر فى قابس إثر استقرار أبى زكرياء الأول بتونس سنة ٦٢٥ هـ، فضبط أمورها وقضى على العائلات المنافسة له وأصبح الحاكم المتصرف فى حظوظها يدين بالطاعة للحفصيين طيلة عهد أبى زكرياء وابنه المستنصر المتولى ٦٤٧ هـ ، وحفيده الواثق المتولى ٦٧٥ هـ ، ثم لا نعرف عنه شيئا أيام الفتنة بين الواثق وعمه أبى إسحاق إبراهيم الأول المتولى سنة ٦٧٨ هـ ، والأرجح أن بنى مكى كانوا من أنصار الواثق بدليل قيامهم مع الدعى ابن مرزوق[٢] عند ظهوره وادعائه بأنه ابن الواثق ، ونجهل كذلك سنة وفاة

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٧ .

(٢) هذا الرجل كان يحترف الخياطة ، وكان له طموح وآمال ، فالتقى بمولى من موالى الواثق الحفصى كان فر من تونس إلى جهات طرابلس — وكان فى الدعى شبه من أحد أولاد الواثق — فاغتنم المولى الفرصة وادعى أنه ولد الواثق وحرض العرب على مساعدته لاسترجاع ملك أبيه المغتصب فتجهزوا معه لذلك ، فاستولى على جهات طرابلس ثم زحف على قابس وامتلكها ومنها تحرك إلى قفصة والجريد والقيروان وتونس .

عثمان هذا ، ونعتقد أنه مات قبل وصول الدعي إلى قابس سنة ٦٨١ ﻫ ، حيث نجد صاحبها فى تلك السنة .

٢ — عبد الملك بن عثمان بن مكي (٦٨١ — ٧٠٠) :

يقوم بمساعدة الدعي ابن أبي عمارة عاله ورحاله ويصحبه فى حروبه حتى دخل معه عاصمة تونس ، وولاه الدعي خطة الجباية فاستبد بأمور الدولة يولى ويعزل .

وضجر أهل تونس من سوء سيرة الدعي ففر أعداؤه والتحقوا بأبي حفص عمر بن أبي زكرياء الذى كان مرابطا إذ ذاك بقلعة سنان وبايعوه وأعانوه على حرب الدعي وانضم لهم كثير من الأعراب وزحفوا إلى تونس فتلقاهم جيش الدعي فهزموه ودخل أبو حفص تونس سنة ٦٨٣ ﻫ وقبض على الدعي وسلمه إلى الشيخ أبي محمد عبد الله بن يغمور فعذبه وقتله بسيف كان أهداه له الدعي زمن ولايته . وفر عبد الملك بن مكي إلى قابس وتحصن بها ودافع الحفصيين متظاهراً بالطاعة الاسمية حتى تمكن من تثبيت مركزه ثم جاهر بالعصيان والتمرد والاستقلال بقابس سنة ٦٩٣ ﻫ .

وفى سنة ٦٩٧ مات ابنه أحمد بن عبد الملك الذى كان عمدته ويده اليمنى فلازم عبد الملك الحزن إلى أن توفى سنة ٧٠٠ ﻫ .

ويظهر أن حادثة حصار قابس من طرف أبي يحيي زكرياء اللحياني التى ذكرها التجاني فى سياق حديثه عن دار عبد الملك هذا كانت بسبب تمرد عبد الملك واستقلاله عن الدولة بقابس ، ولا ندرى السنة التى وقع فيها هذا الحصار بالضبط إلا أن الظاهر أنه وقع فى أيام مكي حفيد عبدالملك قبل سنة ٧٠٦ التى بدأ فيها التجاني تقييد رحلته — وعلى كل فقد كانت نتيجة الحصار استسلام مكي للحياني ؛

٣ — مكي بن أحمد بن عبدالملك (٧٠٠ – ٧١٨):

تولى بعد وفاة جده عبد الملك سنة ٧٠٠ هـ ، وكان طفلا صغيراً فكفله ابن عمه يوسف بن حسن وصرف الكافل أمور قابس وسياستها نيابة عنه ، حتى هلك يوسف هذا وانتقلت الكفالة إلى أحمد بن ليدان من عائلات قابس ذات النفوذ والتي لها مصاهرة مع بني مكي .

وفي عهد هذا الكافل وصلت قابس جيوش السلطان الحفصي محمد أبي عصيدة (٦٩٤ – ٧٠٩) بقيادة شيخ الدولة الحفصية ومقدمها أبي يحيى زكرياء بن اللحياني[1] ،وكان من أمره في قابس ما ذكرناه سالفا ، وحين عاد اللحياني من الحج وأعلن الثورة على سلطان الحضرة وخرج من قابس قاصدا تونس بجموعه اصطحب معه أصدقاءه بني مكي هؤلاء فأسكنهم بالحضرة مع بقاء قابس تحت نفوذهم ، وربما كان هذا النقل خوفا من انتقاضهم .

وفي سنة ٧١٧ هـ ، حين رجع بن اللحياني إلى قابس تاركا السلطنة لابنه محمد المعروف بأبي ضربة أرجع معه بني مكي إلى قابس . قال ابن خلدون : « والتاث أمرهم (أي بني مكي) بمهلك يوسف (وهو يوسف بن

---

(١) مخدوم عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة ، وقد نزل ابن اللحياني عند مسيره إلى الحج بدار بني مكي هؤلاء (انظر رحـلة التجاني ص ١٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٠ ط بولاق) ، وبعد رجوعه من الحج أعلن الثورة بجهة طرابلس والتف حوله زعماء الأعراب وارتحل إلى قابس سنة ٧١١ ، ومنها انتقل إلى العاصمة حيث مكث سلطاناً إلى سنة ٧١٧ ، وعندما سمع بتحرك ابن عمه صاحب الثغور الغربية إليه باع كل ما في القصور السلطانية حتى خزانة الكتب وترك الحكم لابنه أبي ضربة وتحول إلى قابس ومكث هناك يراقب الأحداث ، وعند استشهاد ابنه سنة ٧١٨ هـ ، ارتحل إلى الإسكندرية فمات بها سنة ٧٢٧ هـ عن ستة وسبعين سنة ، وكان شاعراً عالماً محدثاً ومؤلفاً .

حسن كافل مكى) فنقلهم السلطان ابن اللحيانى إلى الحضرة وأقاموا بها أياما (؟) ثم ردهم إلى بلدهم أيام تجافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس » .

وفى أثناء هذه الفتن مات مكى بن أحمد وترك صبيين صغيرين هما عبد الملك وأحمد فى كفالة ابن ليدان المذكور الذى تصرف فى أمور قابس نيابة عنهما حتى شبا ، فاستقلا بالأمر تحت الطاعة الاسمية لسلاطين بنى حفص .

٤ — عبد الملك وأحمد ابنا مكى :

تولى عبد الملك بعد أبيه كما ذكرنا وأقره السلطان الحفصى الجديد أبو بكر الثانى (٧١٨ — ٧٤٧ هـ) وأصدر أمره بتولية عبد الملك وتسمية أخيه أحمد رديفا له ، فكان شريكه فى حكم قابس ، وكان أذكى وأقدر على تصريف شؤون الولاية من أخيه فكان الوالى اسميا عبد الملك والمتصرف الحقيقى هو أحمد الذى قال عنه ابن خلدون : «كان له حظ من المال والأدوات ونفس مشغوفة بالرئاسة والشرف ، وكان يقرض الشعر فيجيد ، ويترسل فيحسن ، وكان خط كتابته أنيقا ينحو به منحى الخط الشرقى شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء[1]» .

ولم يكادا يستقلان بالأمر ويخرجان من حجر الكفالة حتى ظهر نبوغ أحمد هذا فى السياسة وتاقت نفسه للاستقلال عن صاحب الحضرة نهائيا . ولو أن قابس كانت مستقلة واقعياً ليس للسلطان الحفصى غير ذكر اسمه فى الخطب الجمعية .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥٢ ط بولاق .

ففى سنة ٧٣٣ ، رجع من الشرق عبد الواحد بن أبى يحيى اللحيانى بعد موت أبيه بالإسكندرية مطالبا بالسلطنة فرفع الأخوان ابنا مكى راية العصيان معه وظاهرا على طلبه مغتنمين فرصـــة الفتن والثورات التى قامت بنواحى قفصة والجريد وانشغال السلطان بتسكين الثغور الغربية فدخل ابن اللحيانى تونس مع بنى مكى ولكنه لم يلبث إلا نحو نصف شهر وغادرها إلى قابس لرجوع السلطان من الغرب عند سماعه بما أحدث عبد الواحد وابنا مكى بعده ، ولما وصلت الأخبار لابنى مكى باحتلال السلطان أبى بكر لقفصة وعزمه على منازلة قابس خرجا منها هاربين . فأما عبد الملك فقد احتمى بإحدى القبائل العربية ، وأما احمد فقد قصد أبا الحسن المرينى (٧٣٢ — ٧٤٩) الذى ظهرت شوكته بالمغرب الأقصى وعاثت جموعه فى نواحى المغرب الأوسط . فأرسل أبو الحسن إلى السلطان أبى بكر يتشفع فى ابنى مكى ويرجو إرجاعهما إلى ولايتهما ، فقبل أبو بكر الشفاعة وأرجع لهما ولاية قابس على ما كانا عليه . وجمعت إحدى المناسبات بين أحمد بن مكى وبين أبى العباس أحمد بن أبى بكر الحفصى ولى عهد السلطنة والوالى لأبيه على جهات قفصة والجريد ، فأعجب ولى العهد بابن مكى وتمكنت بينهما علاقة ودية وصداقة متينة جعلت ولى العهد يتوسط لدى أبيه لتولية أحمد بن مكى جزيرة جربة فلبى طلبه وولاه الجزيرة بعد عزل مخلوف بن الكماد الذى كان افتكها من النصارى سنة ٧٣٨ بأمر من السلطان أبى بكر نفسه . وانتقل أحمد إلى جربة واستقل عبد الملك بقابس . ولما توفى أبو بكر الحفصى سنة ٧٤٧ هـ ، ظهر للحاجب (ابن تافراجين)(١)

---

(١) من شيوخ الموحدين الدهاة ، تولى مشيخة الموحدين سنة ٧٤٢ هـ ، ثم الحجابة للسلطان أبى بكر المتوفى سنة ٧٤٧ ، وعند اندلاع الفتنة بين أبى حفص وأخيه أبى العباس فر إلى المغرب ملتحقاً بأبى الحسن المرينى وحرضه على غزو تونس فاحتلها سنة ٧٤٨ هـ ، ولما انكسر أبو الحسن أمام الحفصيين قرب القيروان سنة ٧٥٠ هـ ، فر ابن تافراجين إلى =

أن يأخذ البيعة لأبى حفص عمر بن أبى بكر دون أخيه أبى العباس فتمت بيعته واستبد ابن تافراجين بالأمر ، فغضب أبو العباس ولى العهد وتحرك إلى تونس فى حشود كبيرة واستنجد بأحمد بن مكى صديقه فقدم عليه وولاه رديفا لحاجبه ، ولكن قدوم أبى الحسن المرينى من المغرب — معتنما فرصة الفتن القائمة بين بنى حفص — جعل حدا لهذه الخصومات واستولى أبو الحسن على تونس وقتل صاحبها أبا حفص عمر سنة ٧٤٨ .

وهنا نجد ابنى مكى فى مقدمة أصحاب أبى الحسن المرينى ، اعترافا بجميله حيث تداخل سابقا فى إرجاعهما إلى ولاية قابس على أنهما فوجئا بتولية عبد الواحد اللحيانى الملتجئ إلى المرينيين على قابس وطرابلس وجربة وصفاقس من طرف أبى الحسن المرينى وأمرا بطاعته والائتمار بأمره فسقط فى أيديهما وغضبا لهذه المفاجأة من طرف أبى الحسن فأضمرا العصيان ، إلا أن الأحداث لم تمهلهما لإظهار هذا العصيان .

فلم يكد يصل عبد الواحد الوالى الجديد إلى جربة حتى مات فيها بالوباء سنة ٧٤٩ هـ ، ووصلت الأخبار من المغرب بوثوب أبى عنان بن أبى الحسن المرينى على ملك أبيه ، ويتحرك أبو العباس الفضل الحفصى صاحب بونة (عنابة) إلى تونس فاغتنم ابنا مكى الفرصة وامتدت يد أحمد بن مكى إلى تركة عبدالواحد فرجع إلى جربة مقر ولايته القديم . واكتفى عبد الملك بولاية قابس وبايعا الفضل الحفصى صاحب بونة .

وحاول أبو الحسن المرينى أن يقاوم الحفصيين ولكنه انهزم أمامهم هزيمة

= المشرق ثم رجع وأعلن الثورة على الفضل الحفصى وتمكن من قتله ونصب أخيه أبى إسحاق إبراهيم سنة ٤٥١ هـ ، وعند وصول أبى عنان المرينى إلى تونس سنة ٤٥٨ هـ ، هرب ابن تافراجين إلى المهدية ثم رجع إلى تونس وقاوم الثوراث والفتن واستتب له الأمر إلى أن توفى بتونس سنة ٧٦٦ .

شنيعة . وكان السبب فى ذلك انحراف زعماء البلاد عنه كبنى مكى للسبب الذى ذكرناه، وكابن تافراجين لأنه لم يجد عنده ما كان يؤمله ، وانقلاب زعماء الأعراب ضده (الذين كان لهم فى الدولة نفوذ عظيم ومكانة كبرى ، فإنه ضرب على أيديهم بعصا من حديد ، وعبث بحقوقهم ، فأنفت نفوسهم هذه المعاملة وأصروا على الثورة)[1] .

ودخل أبو العباس الفضل تونس سنة ٧٥٠ إثر فرار المرينى منها ، فأقر بنى مكى فى ولايتهم لأنهم أول من بادر بمبايعته ومساعدته ، لكن الفضل لم يهنأ بملكه الجديد فقد رجع الحاجب ابن تافراجين من الحج سنة ٧٥١ وطلب من الفضل إرجاعه لخطة الحجابة فامتنع ، فدبر ابن تافراجين مؤامرة فى الخفاء وجاء بأخى الفضل الصغير (أبى إسحاق إبراهيم) بن أبى بكر إلى القصبة وأجلسه على كرسى السلطنة وحمل الناس على بيعته وقبض على الفضل وقتله واستبد بأمور الدولة .

وأغضب هذا الصنيع بنى مكى أصحاب قابس وجربة للوفاء لسلطانهم الشهيد ، ولكن كرها لابن تافراجين فقد كانت بينه وبين أحمد بن مكى منافسة وعداء خطير ، فأعلن بنو مكى العصيان والثورة مستعينين بأولاد مهلهل من الكعوب ، وأولاد حكيم من علاق ، والذواودة .

ولما أحسوا أن ليس لهم من القوة ما يمكنهم من مناوأة ابن تافراجين والتغلب عليه ذهب أحمد بن مكى إلى قسنطينة محرضا صاحبها أبا زيد الحفصى على غزو تونس فخرج إليها سنة ٧٥٣ .

وأولى أحمد بن مكى حجابته ، وحاصر مدينة تونس فوجد منها مقاومة عنيفة نظمها ابن تافراجين . واضطر أبو زيد لرفع الحصار عنها والرجوع

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١١٧ .

إلى قسنطينة مسرعا لعلمه باقتراب المرينيين منها ، تاركا أخاه أبا العباس أحمد مع بني مكي الذين رجعوا إلى أماكنهم متربصين الفرصة السانحة للانتقام من ابن تافراجين وتوسيع ولاياتهم .

ابن مكي في طرابلس :

وفي سنة ٧٥٥ هـ ، استولى النصارى الجنويون على طرابلس ففاوضهم أحمد بن مكي صاحب جربة في تسليمها إليه مقابل فدية مالية فطلبوا (خمسين ألف دينار) ذهبا عينا ، فأرسل بالخبر إلى أبي عنان المريني يستعينه على جمع هذه الفدية ، وأعجله الأمر عن انتظار جواب أبي عنان فجمع ما عنده واستعان بأصحاب الخير من سكان قابس والحامة وقفصة والجريد وجربة ودفع المبلغ للنصارى فخرجوا من طرابلس وتسلمها أحمد منهم ، وإثر دفع الفدية وصله المبلغ كاملا من أبي عنان المريني راغبا منه إرجاع الأموال المجموعة إلى أصحابها ليتفرد هو بالثواب وحده ، ولكن بعض المساهمين رفض استرجاع ما دفعه احتسابا لله ، وانتقل أحمد بن مكي إلى طرابلس يصرف أمورها ويشرف على حظوظها مع بقاء جربة لنظره .

وفي سنة ٧٥٨ هـ ، وصلت جيوش أبي عنان (٧٤٩ — ٧٥٩) المريني إلى تونس وفر ابن تافراجين إلى المهدية وبادر بنو مكي على عادتهم بمظاهرة أبي عنان ومساعدته والدعوة له ، وزاد ذلك في حقد ابن تافراجين عليهم . فلما رجع لتونس إثر رجوع أبي عنان إلى المغرب جهز أسطولا ضخما وأرسله إلى جربة بقيادة ولده فحاصر حصن القشتيل[1] مدة حتى استسلم

---

(١) هذا الحصن يقع داخل مياه البحر بالجهة القبلية من جزيرة جربة ، وقد بناه النصارى عند احتلالهم لجربة سنة ٦٨٨ هـ ، وأطردهم منه أبو بكر الحفصي سنة ٧٣٨ هـ ، على يد مخلوف ابن الكماد أحد أعوانه .

له بإعانة سكان الجزيرة الذين سئموا ظلم ابن مكى وترك ابن تافراجين كاتبه (محمد بن أبى العيون[1]) واليا على جربة .

وبقى أحمد بن مكى مستقلا بطرابلس حتى مات بها سنة ٧٦٦ هـ ، فتولى أمرها ابنه الذى انتزعها منه نهائيا الأمير عمر بن أبى العباس أحمد الثانى والى صفاقس بأمر من أبيه .

وفى أثناء هذه الفتن كلها أى منذ استبداد ابن تافراجين بتونس وبنو مكى مستقلون استقلالا كاملا عن السلطنة الحفصية بالحضرة .

ولما هلك أحمد بن مكى بقى أخوه عبد الملك مستبداً بقابس حتى اتسق الأمر لأبى العباس أحمد الثانى (٧٧٢ — ٧٩٦ هـ) ، ونهض لقطع دابر الفتن والضرب على أيدى الأعراب ، فخافه عبد الملك على نفسه وأظهر له الطاعة ولكنه تكاسل عن القدوم عليه فحرض عليه السلطان بنى أحمد من عرب سليم وأنجدهم الأمير أبو بكر بن أبى العباس والى قفصة فحاصروا قابس ، ودافعهم ابن مكى عنها بشدة وحزم ، وقبض على بعض السكان متهما إياهم بالخيانة وموازرة العدو ونكبهم فاشتد حنق السكان ضده ، وأحس ابن مكى بالخطر وببوادر الثورة ، فمال إلى الحيلة والدهاء وأغرى بعض المغامرين من قبيلة أولاد على من سليم بمبالغ من المال فبيتوا العسكر المحاصر للمدينة وكبسوه ليلا فحلت به الهزيمة .

وبلغ خبر الهزيمة إلى السلطان أبى العباس فنهض فى عساكره إلى قابس سنة ٧٨١ هـ ، ومعه أولاد مهلهل والحاميد ، فتظاهر ابن مكى بالطاعة

---

(١) بقى ابن أبى العيون فى منصبه هذا حتى هلك الحاجب ابن تافراجين سنة ٧٦٦ هـ ، فاستبد بالأمر وتمرد على السلطان الحفصى حتى خلصها منه أبو العباس أحمد على يد ولده عمر سنة ٧٧٤ هـ ، وقبض على ابن أبى العيون وسجنه فمات بسجنه ٧٧٦ هـ .

ثانيا وراوغ السلطان حتى تمكن من جمع ذخائره وهرب بأهله وأمواله واستجار بأحياء دباب فأجاروه ومات عندهم ، ولحق ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب بن مكى بطرابلس ، فمنعها صاحبها (ابن ثابت) من دخولها فتحولا إلى (زنزور) ونزلا فى جوار بنى جاربة من قبائل دباب .

أما قابس فقد رجعت ولاية تابعة لسلطان الحضرة وعرفنا أن واليها الحفصى كان يسمى (يوسف بن الأبار) الذى قتله عبد الوهاب بن مكى كما سيأتى .

ويقول ابن خلدون إن الأخوين عبد الملك وأحمد كانا حبرين عادلين فقيهين شاعرين كاتبين وعلى الخصوص أحمد ، ووصفهما بالخيرية والعدل يناقض ما جاء فى بعض فقرات منه من ضيق سكان قابس وجربة بظلمهما .

٥ — عبد الوهاب بن مكى :

ولم تبق قابس تابعة للحفصيين إلا نحو السنة ثم استرجعت استقلالها .

فى سنة ٧٨٢ رجع عبد الوهاب بن مكى من زنزور إلى جبال قابس وشن عليها الغارات مع جماعة من العرب محاولا افتكاكها أثناء مغيب عمه يحيى فى الحج . حتى تمكن من احتلالها بإعانة فرسان القبائل العربية وبعض صنائعهم من سكان قابس الذين سئموا سيرة واليهم يوسف بن الأبار ،وقتل الوالى يوم فتحها واستقل عبد الوهاب بالأمر فيها حتى رجع عمه من الحج وقدم مع أعوانه إلى قابس محاولا زحزحة ابن أخيه عنها فلم يتمكن من ذلك ، ونزل ضيفاً على صاحب الحامة فاتصل عبد الوهاب سراً بصاحب الحامة وبذل له فدية مالية عظيمة فخان الضيافة ودفع يحيى لابن أخيه فاعتقله بقصر العروسين وبقى يراوغ السلطان أبا العباس أحمد يظهر

له الطاعة من جهة ويحرض أعراب الجنوب على التمرد والعصيان من جهة ثانية ، حتى ضجر السلطان من تلاعبه فنهض إليه فى عسكر جرار سنة ٧٨٩ وحاصر قابس وقطع غابتها حتى أعلن عبد الوهاب الطاعة وصالح السلطان على أن يبقيه واليا على قابس ويرهن عنده ابنه ضمانا لطاعته ، فتم الصلح على ذلك وبقى عبد الوهاب فى ولايته إلى أن قتله عمه يحيى سنة ٧٩٠ ﻫ .

٦ — يحيى بن عبد الملك بن مكى :

تمكن يحيى من الفرار من سجنه بقصر العروسين واستجار بصاحب الحامة وكان من بنى وشاح ، فأجاره وأنجده بالفرسان والمال ، فهاجم قابس مرارا حتى تمكن من احتلالها وقتل ابن أخيه عبد الوهاب سنة ٧٩٠ كما مر واستقل بالأمر عن الحفصيين فتحرك إليه الأمير عمر بن أبى العباس الحفصى والى صفاقس بأمر من أبيه . ويظهر أن العلائق قد ساءت بين ابن مكى وصاحب الحامة ، فاغتنم الأمير عمر هذه الفرصة وخاطب صاحب الحامة فى إعانته فأنجده مسرعا وبذلك تمكن من الاستيلاء على على قابس وقتل يحيى بن مكى سنة ٧٩٦ﻫ[1] ، وبموته انقرض أمر هذه العائلة نهائيا من قابس ، وأصبحت ولاية تابعة للعاصمة إلى اليوم .

وقد كانت قابس أثناء حكم هذه العائلة التى عاشت فى ظروف مليئة بالفتن والثورات والمغامرات ، كانت قابس تعانى ما تعانيه تونس كلها من ويلات ، وانتشر الفساد والفقر فى كل مكان ولم تسترجع شيئا من الاستقرار إلا فى زمن أبى العباس أحمد الثانى الذى قضى على فساد الأعراب وعلى زعامة العائلات ، على أن الحالة الاقتصادية لم تتحسن نهائيا إلا فى زمن أبى فارس عزوز (٧٩٦ — ٨٣٧ ﻫ) .

---

(١) فى ابن خلدون سنة ٧٩٩ وهو لا يتماشى مع ما ذكره ابن خلدون نفسه من أن نكبة بنى مكى كانت من طرف السلطان أبى العباس أحمد الذى توفى فى سنة ٧٩٦ .

الفصل الخامس

عهد التبعية (٧٩٦ – إلى اليوم)

من الحفصيين إلى الجمهورية

— ١ —

ولاية حفصية (٧٩٦ – ٩٤٢ هـ)

يظهر أن قابس قد استنامت إلى الهدوء والسكينة إثر القضاء على المغامرين والولاة المتنطعين الذين كانت الظروف تغريهم بالثورات على الحكومة المركزية وتكوين ولايات طائفية ، على غرار ما ظهر فى نفس الوقت بالأندلس والسبب الفعال استنامة قابس وغيرها من الولايات الثائرة للهدوء هو ظهور سلطة مركزية قوية تتمثل فى شخصية رئيس الدولة .

وقد قلنا سابقا أن أبا العباس أحمد الحفصى الثانى (٧٧٢ – ٧٩٦) الذى حكم نحو ربع قرن كان رجلا قوى الشكيمة سديد السياسة شمر من أول حكمه على ساعد الجد للقضاء على الفوضى والفتن وعلى الإقطاعيين الأعراب الذين كانت لهم اليد الطولى فى تلك الفتن والذين كانوا ينعمون فى عهد السلاطين قبله بإقطاعات ضخمة كانوا يتجاوزونها إلى نهب وسلب من حولهم وشن الغارات على أطرافهم وينتهزون فرصة قيام كل ناعق ليخوضوا المغامرات الخطيرة إلى جانبه .

حسم أبو العباس شوكة هؤلاء الأعراب فاستعان ببعضهم على بعض ووفى الجزاء للمخلص منهم وضرب على أيدى الباغى والمنافق ، ثم توجه إلى

تحطيم العائلات المتركزة فى بعض العواصم كبنى مكى بقابس فقضى على حكمهم سنة ٧٩٦ ﻫ ، كما ذكرنا ، واستراحت البلاد من الشر والفتنة والناس على دين ملوكهم كما يقولون . فعلى غرار أبى العباس سار ولاته وعماله فكان هو يحسن الاختيار وكانوا هم يحسنون السياسة من جهتهم .

ومات أبو العباس أحمد فى السنة التى قضى فيها على عائلة بنى مكى بقابس سنة ٧٩٦ ﻫ ، واعتلى السلطنة بعده أبو فارس عزوز (٧٩٦ — ٨٣٧) أقوى سلاطين بني حفص شكيمة وأعدلهم وأفضلهم سياسة وحكمة ، فهو « درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية . سار بعدل وتدبير وسياسة فازدهرت إفريقية فى أيامه وبلغت شأواً بعيداً فى الثورة والعمران[1] » .

سلك هذا السلطان مسلك أبيه فى القضاء على الفتن وتخضيد شوكة الأعراب الذين حاولوا أن يزعزعوا ملكه بمساعدة بنى مرين بالمغرب والأمير الحفصى ببجاية فتحرك لهم فى جيوشه وأوقع بهم الهزيمة وشتتهم سنة ٨١٢ ﻫ . وقتل صاحب بجاية ومهد بلاد الجزائر كلها فأعطته الطاعة ، ثم تحول إلى المغرب للانتقام من المرينى ولكن الأخير جنح للسلم وطلب الصلح فأعطى له وبلغت شهرة أبى فارس أطراف إفريقيا الشمالية والأندلس فجاءته بيعة المغرب والأندلس وبذلك توحد المغرب العربى كله تحت سلطنة واحدة .

وبالرغم من أن قابس فى عهد هذا السلطان كانت ولاية حفصية إلا أن أطرافها حيث يوجد الأعراب كانت لاتزال مركزاً للفوضى والفتن فسار أبو فارس فى جيوشه إلى قابس وقضى على أوكار الفساد بجهاتها وجهات

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١١٩

قفصة والجريد»، وفى هذه الرحلة التفقدية سمع أبو فارس بدخول الإسبان إلى جربة فأسرع إليها وأوقع بهم سنة ٨٣٥ هـ ، وفى هذه الواقعة أمر أبو فارس ببناء القنطرة البحرية بين جربة وجرجيس حيث توجد القنطرة الجديدة اليوم[1] . وبقيت قابس على حالتها بعد أبى فارس سوى نشوب ثورات الأعراب فى الجهات الجنوبية والغربية ، ولكن أبا عمرو عثمان الحفصى (٨٣٩ — ٨٩٣ هـ) قضى عليها وأرجع للبلاد عزها وازدهارها الذى رأته أيام جده أبى فارس .

وفى أيام أبى عبد الله محمد الحفصى (٨٩٩ — ٩٣٢) قدم إلى تونس القرصان التركى المشهور (خير الدين بربروس) وأخوه (عروج) فسمح لهما باستعمال الموانى التونسية كالمهدية وجربة وحلق الوادى على أن يكون له خمس ما يغنمانه من عرواتهما للإفرنج ، ونعتقد أنهما لم ينزلا بقابس ولم يستعملا مرساها لأنها غير صالحة لإرساء سفنهما الكبرى .. إلا أننا لا نستبعد دخول قابس تحت حكم خير الدين حين هاجم تونس من الجزائر واحتلها سنة ٩٣٥ هـ ، وهرب منها صاحبها الحسن الحفصى (٩٣٢—٩٤٢هـ) بالرغم من أن السلطان الحفصى هرب إلى الأعراب الذين جاءوا إلى نجدته من الجهات الغربية والجنوبية ، لأن قابس مرفأ بحرى فلا يبعد أن يكون خير الدين احتلها وترك فيها حامية من قبله حتى لايستطيع الحسن أن يأوى إليها .

وعلى كل فقد كانت الأحداث أثناء هذا العهد غامضة بالنسبة لقابس على الخصوص والمعروف أن الحسن الحفصى جمع الأعراب فشتتهم خير الدين بمدافعه فالتجأ الحسن للاستنجاد بملك إسبانيا (شارلكان) فأنجده

---

(١) انظر (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا .

بعمارة قوية أرست بميناء حلق الوادى ونزل منها الإسبان واحتلوا تونس سنة ٩٤٢ هـ ، واضطر خير الدين للالتجاء نحو الجزائر .

— ٢ —

الإسبان (٩٤٢ — ٩٨١ هـ)

انتصبت الحماية الإسبانية على البلاد فى سنة (٩٤٢ هـ — ١٥٥٣ م) بمقتضى معاهدة بين قائد الحملة الإسبانية وبين الحسن الحفصى المستنجد بهم تخول لهم التصرف فى عنابة وبنزرت وحلق الوادى والنزول حيث شاءوا من بلدان المملكة والمشاركة فى حكم البلاد وغير ذلك من شروط القوى على الضعيف ،فلم ترق هذه الشروط المجحفة للسكان فتآمروا مع أحمد بن الحسن عامل عنابة وثاروا بالإسبان وأخرجوهم من العاصمة واستولى أحمد على الحكم فى نفس السنة (٩٤٢) ، ولكن الإسبان استطاعوا أن يتحصنوا بطرابلس وجربة والمهدية والمنستير ولم يذكر المؤرخون ماذا كان موقف قابس فى هذه الفترة ، فهل بقيت خارج الاحتلال الأجنبى أم أنها كانت من ضمن البلدان المحتلة .

وفى سنة ٩٧٧ هـ ، قدم لتونس على باشا الوالى التركى على الجزائر بعد خير الدين فى جيش تركى قوى واحتل العاصمة التونسية وألحقها بالخلافة العثمانية وخطب فيها للخليفة سليم الثانى ، فاضطر أحمد للاستنجاد بالإسبان أعداء البلاد سالكا الطريق الذى سلكه أبوه وأنكره هو عليه ، وأعلن الثورة على أبيه من أجله فأنجدوه بأسطول ضخم أرسى بميناء حلق الوادى ، وهناك علم احمد المسكين بأمر المعاهدة التى يريد الإسبان فرضها عليه وتقتضى مقاسمته فى الحكم وفى الجباية فأنف من قبولها وندم حين لاينفعه الندم ، وأبحر حالا إلى صقلية حيث توفى هناك سنة ٩٨٠ هـ غريبا عن وطنه .

وقبل أخوه محمد الشروط الإسبانية ، وتقدم الجيش الإسبانى فاحتل تونس ونصب محمداً على السلطنة الاسمية سنة ٩٨٠ هـ ، وعاث الإسبان فى البلاد سلبا ونهبا وظلما وطغيانا « ولقد لاقى التونسيون فى تلك المدة من جور العساكر الإسبانية وتعذيبهم بأنواع المظالم ماحمل السكان على الفرار إلى البادية فتفرقوا أيدى سبا واختفوا بالكهوف ونالهم من الحطب وضروب الهوان ما لا يوصف وزاد الطين بلة ، تطاول المتغلبين على المعالم الدينية التى أهينت وهتكت حرمها حتى قيل إن الخيول ربطت بجامع الزيتونة وألقى ما فيه من نفائس الكتب فى الطرقات وسيق البعض منها إلى مكتبة الفاتيكان بروما ؛ ولا تزال تشاهد هناك[1] » . ولا نشك أن قابس قد نالها ما نال أخواتها من عواصم البلاد من ظلم الإسبان وجورهم وطغيانهم .

وبقى السكان يتجرعون الغصص وينتظرون الفرص ويستغيثون بإخوانهم المسلمين حتى جاءتهم النجدة التركية فقضت على الحماية الإسبانية وعلى الحكم الحفصى سنة ٩٨١ هـ .

— ٣ —

الأتراك (٩٨١ ـ ١١١٧ هـ)

بدأت أنظار الأتراك تتجه إلى تونس منذ انتصاب خير الدين بربروس بالجزائر ، فقد ذكرنا سابقا أنه هاجم تونس وامتلكها سنة ٩٣٢ هـ ، واضطر لمغادرتها سنة ٩٤٢ أمام الإسبان .

وقدر لدرغوث باشا[2] تلميذ خير الدين والقرصان التركى المشهور

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٢٩ .

(٢) عمل فى البحر مع خير الدين واشتهر فى قيادة السفن وولى طرابلس سنة ٩٦٠ هـ وقبل ذلك بسنتين جاء إلى تونس فاحتل صفاقس والقيروان وتوفى محاصراً لمالطة سنة ٩٧٣ هـ ١٠٦٥ م .

أن يزور سفنه السواحل التونسية ويختبر بنفسه سوء حالة البلاد وضعف دفاعها فجاء بحملة قوية إلى صفاقس وكانت عاصية على السلطنة الحفصية يصرف شؤونها محمد المكي الشابي فامتلكها ومنها تقدم إلى القيروان فاحتلها سنة ٩٥٨ هـ ، وترك فيها واليا من قبله يسمى (حيدر باشا) مع حامية قوية فكانت هذه الحامية شوكة في جنب الإسبان ومركزاً للدعاية للخلافة العثمانية ، وقويت هذه الحامية بما انضم إليها من حامية تونس التركية التي كان تركها علي باشا سنة ٩٧٧ هـ واطردها الإسبان سنة ٩٨٠ هـ فنظم حيدر باشا قوة عتيدة عازما على طرد الإسبان من تونس نهائيا ، واستنجد بقائد الحامية التركية بطرابلس (مصطفى باشا) واتفقا على جمع قواتهما والهجوم على تونس ، وتحرك كل منهما في اتجاه العاصمة فالتقيا بالمحمدية وزحفا على العاصمة وحاصراها ويشاء القدر أن يصل في نفس الوقت قسم الأسطول التركي بقيادة الوزير سنان باشا إلى المياه التونسية ووقع الاتصال بين القواد الأتراك وحاصروا قلاع حلق الوادي براً وبحراً ، ففر الإسبان إلى حصون العاصمة ولكنها هي بدورها لم تستطع الصمود إلا أياما قليلة وتغلب عليها الأتراك بمساعدة السكان والأعراب القادمين من الخارج وأسر السلطان محمد الحفصي وأرسل إلى الاستانة حيث مات هناك وبه انقرضت الدولة الحفصية التي عمرت بتونس نحو ثلاثة قرون ونصف ، وكان هذا الاحتلال التركي سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) وأصبحت به تونس ولاية تركية . كنا تساءلنا : هل أن الأتراك عند احتلالهم لصفاقس والقيروان سنة ٩٥٨ هـ مروا بقابس وألحقوها بحكمهم ؟ أم أنهم وردوا لصفاقس من البحر وبقيت قابس خارجة عن نطاقهم ؟ والواقع أننا لا نملك الجواب عن هذه المسألة ، إلا أن احتلالهم لجزيرة جربة سنة ٩٦٠ هـ وبقاءهم فيها إلى ما بعد احتلالهم لتونس سنة ٩٨١ هـ ، مع وجودهم في القيروان والمهدية وصفاقس قبل هذا التاريخ يجعلنا نرجح وصولهم لقابس

أثناء هـــذه الفترة أى ما بين ٩٥٨ و ٩٨١ هـ ؛ ومما لاشك فيه أنهم وجدوا فيها سنة ٩٨١ هـ ، وأن عمالهم تصرفوا فى شؤونها منذ ذلك العهد إذا لم يكن وجودهم فيها قبل ذلك .

ومنذ انتصاب الحكم التركى لا نجد بقابس أحداثاً ذات أهمية والظاهر أنها مالت إلى الدعة والسكون ، خصوصاً وقد أخلد الأعراب بجهاتها إلى الاستكانة أمام القوة العسكرية التركية التى أرعبتهم بالسلاح الجديد الفتاك (المدافع) .

وكل ما نعرف عن قابس فى هذا العهد ، وفى عهد المراديين بالخصوص (١٠٢٢ — ١١١٤ هـ) أنها كانت محل اهتمامهم فجدد مساجدها محمد باشا المرادى (١٠٨٦ — ١١٠٨ هـ) وبنى مدرسته بضريح سيدى أبى لبابة رضى الله عنه ، ومسجد سيدى قناوى غربى قابس وبنى حمودة باشا المرادى (١٠٦٨ — ١٠٨٦) ضريح سيدى أبى لبابة ، وانتقل الولاة من المدينة إلى قرية جارة القديمة ، داخل الغابة[١] .

ولم نعثر فى المراجع التى بين أيدينا على اسم أى وال من ولاة هذا العهد ، مع العلم بأنه كان بها عامل تساعده فى المحافظة على الأمن فرقة عسكرية تركية يقودها ضابط بإعانة جماعة من صغار الضباط ، عدا اسم حسين بن على جد العائلة الحسينية الذى تولى عمالة الأعراض (قابس) فى عهد مراد أبى بالة (١١١٠ — ١١١٤) إلى أن سمى كاهية فى أواخر أيام مراد .

وفى هذا العهد نمت غابة قابس والزراعة المحلية ولو أن هذا النمو كان

---

(١) انظر الباب الأول .

فى نطاق محدود فالأطراف البعيدة كانت لا تزال تتعرض لبعض الفوضى وغارات الأعراب الرحل .

— ٤ —

الحسينيون قبل الحماية (١١١٧ – ١٢٩٨)

وتولى الحسينيون الحكم بتونس سنة ١١١٧ ، وذلك بمبايعة حسين ابن على الأول إثر موت إبراهيم الشريف آخر الدايات الأتراك ، وسارت البلاد على النظام التركى الأول .

وفى عهد هذه العائلة توارد على قابس عدة عمال نذكر أسماء بعضهم فيما يلى مع الأحداث التى صحبت عهودهم ، وكانت ولاية قابس من الولايات المعتبرة فى الدولة قال صاحب التاريخ الباشى : « وهى من الولايات الجليلة التى تخفق الألوية على رأس صاحبها ، وهو أكبر القواد والعمال » .

١ — أحمد الصغير :

أحد أعوان حسين بن على (١١١٧ – ١١٤٧) والمتقدمين فى بلاطه وهو ابن أخى محمد الغزالى عامل الكاف فى ذلك العهد الذى اشتهر بمطاردة الثائر ابن فطيمة فى صحراء الجنوب حتى تمكن منه بعد مطاردة طويلة[1] .

٢ — على السبعى :

تولى قابس أواخر أيام حسين بن على ولما ثار على باشا على عمه حسين وطرده من العاصمة وانتقل إلى القيروان صحبه على السبعى هذا وقاتل معه ،

---

(١) انظر التاريخ الباشى (مخطوط) .

وفى يوم استشهاد حسين بن على وقع على السبعى فى قبضة يونس بن على باشا فنقـــله مكتوفاً إلى العاصمة ودفعه إلى والده فأمر بخنقه فى القصبة سنة ١١٥٣ هـ ، إثر موت حسين وهروب أبنائه إلى الجزائر ، وتركت هذه الخصومة أثراً سيئاً فى البلاد ، فقد انقسمت الأحياء العربية إلى قسمين حرب حسيني يؤيد حسين بن على ومنه الهمامة وجلاص ونفات وأولاد عون وأولاد يعقوب والمرازيق الخ ... وحزب باشي يؤيد على باشا ومنه ماجر والفراشيش وأولاد عيار وورتان وأكثر الساحل ، وبقيت هذه العداوة بين الحزبين إلى ما بعد انتصاب الحماية الفرنسية — ويسمى الحزبان فى العروش العربية حزب شداد — وحزب يوسف ، والظاهر أنهما اسمان لزعيمين من الطائفتين وقص على بعضهم أن شداداً زعيم المثاليث ويوسف زعيم الهمامة ، وعلى كل فقد انتقلت النعرة الجاهلية من تونس إلى أجوارها فى الجزائر وطرابلس .

٣ — رجب بن صامى :

من أعوان على باشا وأنصاره ، والظاهر أنه تولاها فى الفترة الواقعة بين (١١٥٣ — ١١٦٠) .

٤ — مصطفى بن متيشة :

تولى قابس بأمر من على باشا سنة ١٢٦٠ هـ ، وكان هذا الوالى شديد العداوة والحقد على الهمامة لكثرة خصوماتهم مع سكان الأعراض وعلى الأخص سكان الحامة (بنى يزيد) وكان من مؤيدى الهمامة وأنصارهم حى (نفات) الواقع تحت حكم عامل الأعراض فأرهقهم ابن متيشة وفعل فيهم الأفاعيل حتى اضطروا إلى الرحيل نحو الهمامة ونزلوا عندهم فطلب ابن متيشة إرجاعهم فامتنع الهمامة من تسليمهم بعنوان كونهم استجاروا بهم ،

فمال ابن متيشة إلى الحيلة ونقل إلى على باشا عدة أكاذيب عن الهمامة وحرضه على تأديبهم فخرج إليهم بنفسه فى جيش كثيف يصحبه ابنه يونس ، وأمر ابن متيشة أن يلاقيه هناك بمحلة الأعراض فخرج هو أيضاً وصحبه جمهور من عرب بلاده التائقين للانتقام من الهمامة . فتحصن هؤلاء منه بجبالهم فاستدعى ابن متيشة مشائخهم وخادعهم بأن على باشا لم يقدم لحربهم وإنما جاء يستمدهم طالباً منهم خمسة آلاف بعير لحاجته إليها على أن (فرحات) زعيم (أولاد معمر) أدرك خداعه فجمع أبناء عمه وهرب بهم إلى الصحراء .

ولما سمع بذلك ابن متيشة تحول بمحلته قبلى الجبل ليحول دون فرار من بقى منهم ؛ وكان فى محلته بنو يزيد وأولاد يعقوب ، والحزم ، وورغمة ، وأولاد سعيد ، والسواسى الخ .

ونزل بالقرب منه سليمان بن على باشا فى محلة ثانية ، وحوصر الجبل من جميع جهاته واستدعى على باشا مشائخ الهمامة فامتنعوا من النزول إليه فشدد عليهم الحصار حتى أهلكهم العطش فأظهروا الطاعة وطلبوا الأمان واستسلموا له فعاقبهم الباشا باغتصاب جميع إبلهم وعدتها (ثلاثة عشر ألفاً) وغالب أغنامهم وسأل عن أولاد معمر فعلم أنهم نزلوا (بكدية مانع) قرب (وادى سوف) واتهم الباشا صديقه سليمان بن أحمد المناعى (من أولاد مناع ، من دريد) بأنه هو الذى أنذر الهمامة وكان سبباً فى إفلات أولاد معمر فقبض عليه وسجنه حتى مات فى سجنه[1] .

وكانت نكبة الهمامة هذه من أكبر النكبات التى حلت بهذا الحى النبيل . وعاقب الله مصطفى بن متيشة عما قدمت يداه فمات مخنوقاً بأمر سليمان بن على

(١) التاريخ الباشى (مخطوط) ص ٤٤٣ — ٤٤٦ .

باشا بقصبة تونس يوم ثورة أخيه يونس على أبيه متهماً إياه بزرع بذور الفتنة بين الأخوين يونس ومحمد ابنى الباشا ، تلك الخصومة التى كانت السبب الأصلى فى ثورة يونس سنة ١١٦٥ هـ .

٥ — إسماعيل كاهية :

تولى قابس بأمر من على باى الثانى بن حسين (١١٧٢ — ١١٩٦ هـ) .

وكان إسماعيل متزوجاً بابنة هذا الباى فتمكن منه وتقلد المهمات العالية فغار منه محيط الباى وحاول الدساسون النيل منه ، ولكن الباى اشتهر بالعقل الحصيف والنظر البعيد فلم يأبه لهم وسد أذنيه عن الوشايات ، فمالوا إلى ولى العهد حموده باشا وخافه إسماعيل على نفسه ففر إلى القسطنطينية وهناك تولى الخطط العالية وأرسل حاكماً على الشام ، وبقى فى عز قائم وسعد دائم حتى توفى عن سن عالية .

ثورة إسماعيل باى :

وفى عهد هذا الباى حدثت ثورة قام بها إسماعيل بن يونس بن على باشا الأول وكان إسماعيل هرب إلى طرابلس إثر إخماد ثورة أبيه ، ومن المعروف أن ابنى حسين بن على لما تغلبا على على باشا تتبعا عماله وأنصاره ورحزحاهم عن مراكزهم وعمرا الوظائف العالية بأنصارهما — وهى شنشنة معروفة وعادة مألوفة عند المشتغلين بالسياسة — فاتصل هؤلاء المنكوبون والمعزولون والمغضوب عليهم بإسماعيل بواسطة الرسائل يحرضونه على الثورة ويعلنون له أنهم سيكونون من أعوانه ، ومن بين هؤلاء المحرضين (محمد بن عبد الكريم) شيخ قابس فى عهد الباشا على .

وهرب إسماعيل من طرابلس فى جماعة من الفرسان وانضم إليه جماعة من شذاذ الأعراب فى الطريق حتى نزل (مارث) وقد وصلت أخباره

بجميع البلدان وتحفزت الفرق العسكرية لمقاومته ، وأكرم الحمارنة إسماعيل وصارحوه بأنهم لا يستطيعون إعانته وهناك تلقى رسالة من (محمد ابن عبد الكريم) شيخ قابس القديم والمحرض الأول له على الثورة ينصحه فيها بأن لا يحاول الدنو من قابس ، فصبايحية الوجق وعسكر زواوة على أتم أهبة لملاقاته بالقوة وأنه لا نصير له منهم ، فالمدينة كلها متحفزة مع الباى ضد كل ثورة وفتنة ، فتحول إسماعيل إلى الحامة وهناك انضم إليه بنو يزيد والحزم من أطراف قابس واستراح بالحامة شهراً ونيفا يبعث الرسائل لأنصاره ويتلقى الرسائل حتى قدم عليه فرسان المثاليت الذين انضموا إليه فتحرك بجيوشه إلى الساحل وجعل مركزه فى قرية (جمال) ، وبعد معارك عنيفة هرب إلى جبل وسلات فحاصره على باى هناك حتى تغلب عليه وأخمد ثورته[1].

ولا ندرى مادا كان مصير شيخ قابس (محمد بن عبد الكريم) ويظهر أنه ندم على فعلته وانزوى ببلده ولم يحاول الخروج مع من حرضه بنفسه على الخروج حين أدرك فشل الثورة .

وفى عهد حمودة باشا (١١٩٦ — ١٢٢٩) ازدهرت قابس تبعاً لازدهار البلاد وانكب أهلها على الأعمال الزراعية والتجارية وساد الأمن والهدوء فلم تر قابس أية حركة عسكرية سوى مرور الجيش الذى أرسله حمودة باشا إلى طرابلس سنة ١٢٠٩ هـ ، لمحاربة (على برغل)[2] ورد (على باشا القرمانلى) إلى عرشه بطرابلس .

---

(١) انظر التاريخ الباشى (مخطوط) من ص ١٠ إلى ١٤ .

(٢) انظر (مؤنس الأحبة) بتحقيقنا عن هذه الحملة ، والذى دعع حمودة باشا إلى هذه الحرب أن على باشا القرمانلى الذى أطرده (على برغل) من طرابلس كان صديقه وقد التجأ إليه واستنجد به وأن (على برغل) انتزى على جزيرة جربة وامتلكها فأرسل له حمودة جيشاً برياً إلى طرابلس فتغلب عليه وأرجع القرمانلى إلى كرسى الحكم فيها وأرسل جيشاً بحرياً إلى جربة فأطرد منها أعوان (برغل) وأرجعها للحظيرة التونسية .

٦ — أبو محمد رشيد :

تولى قابس بأمر من أحمد باى الأول (١٢٥٣ — ١٢٧١ هـ) ولا ندرى فى أية سنة بالضبط ولاها إلا أننا نعرف أنه كان عاملا على قابس سنة ١٢٥٦ هـ ، التى صدر فيها أمر الباى بجعل الأسواق (لزمة) وقد استنكر الناس هذا الأمر ورأوا فيه اغتصابا لأموالهم وصرح بعضهم بأنه خروج عن الأحكام الشرعية فثار سكان قابس وقتلوا (اللزّام) فأسرع الباى إليهم فى حشد عظيم وقبض على قاتلى (اللزام) فقتلهم وأغرم قابس (ستمائة ألف ريال)[1] وبعد إلحاحات وشماعات أسقط نحو ثلثها عن الضعفاء منهم .

٧ — محمد خزنه دار :

كان عاملا على سوسة وضم إليه محمد باى الثانى (١٢٧١ — ١٢٧٦) عمالة الأعراض (قابس) سنة ١٢٧٣ هـ ، وكلفه بإخماد فتنة الشيخ غومة المحمودى[2] بقبلى ، فسار إليه فى قوة عسكرية ففر أمامه إلى بلاد الجزائر واستباح بلدة قبلى وشرد سكانها وباع أرزاقهم .

٨ — الفريق سليم :

تولى الأعراض سنة ١٢٨٠ هـ بأمر من الصادق باى (١٢٧٦ — ١٢٩٩) ولم يطل عهده .

٩ — أحمد زروق :

أحد ولاة الصادق باى على الساحل تولى الأعراض سنة ١٢٨١ هـ ،

---

(١) انظر تاريخ ابن أبى الضياف (مخطوط) .

(٢) انظر تاريخ ابن أبى الضياف ج ٣ ص ص ٧٦٥ إلى ٧٦٨ والباب الرابع من هذا الكتاب .

إثر ثورة العروش البدوية بقيادة (على بن غذاهم) وكان السبب فى هذه الثورة عمد الباى وحكومته إلى مضاعفة الضريبة الشخصية المعبر عنها بضريبة (المجبى)، وقد كانت فى عهد محمد باى (ستة وثلاثين ريالا) فأصبحت (اثنين وسبعين) فثار سكان البادية وشهروا السلاح وقطعوا الطرق على السابلة فقاومتهم الحكومة بقوة ثم اضطرت إلى النزول عند رغبتهم فأرجعت الضريبة كما كانت.

وقدم أحمد زروق إلى قابس على إثر هذه الثورة فهرب منه أعراب الجهة وقبض على من وصلت إليه يده وأخمد الحركات الثورية بقسوة وشدة واستخلص من الناس أموالا طائلة مما زاد فى غضبهم وحقدهم ونالت قابس شدة لم تمر بها فى حياتها.

١٠ — أبو الحسين حيدر:

وصل إلى قابس عاملا من طرف الصادق باى سنة ١٢٨٢ هـ، ولكن الحالة الاقتصادية والصحية كانت تنذر بالخطر الداهم فلم يلبث حتى تركها فى السنة الموالية ١٢٨٣ هـ.

وفى السنة التى تولى فيها هذا العامل (١٢٨٢) إكتسح البلاد مرض (الكوليرا) وكانت قابس إحدى ضحاياها فمات فيها خلق كثير، ولم يكد الناس يستريحون من هذا الخطر حتى داهمهم خطر جديد يتمثل فى مرض (حمى التيفوس) سنة ١٢٨٤ هـ. وجاءت بعده مجاعة عظمى وارتفاع فى الأسعار مما خرب عدة جهات كانت عامرة.

هذه المصائب والكوارث التى أصابت البلاد يضاف إليها فساد الحكومة والعبث بأموال الدولة والخيانات الوطنية تجمعت كلها لتفتح الباب للاحتلال الفرنسى لتونس سنة ١٢٩٨ هـ — ١٨٨١ م[1].

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب «معركة الحماية» من تأليفنا بالاشتراك مع الأستاذ الجيلانى بن الحاج يحيى.

الحسينيون مع الحماية (١٨٨١ – ١٩٥٦)

انتصبت الحماية الفرنسية على تونس فى ١٢ ماى ١٨٨١ م ، وتحركت الجيوش الفرنسية مع السواحل تفتح البلدان ووصلت قابس فى جويلية من نفس السـنة فوجدت المدينة متحفزة للدفاع عن نفسها كأختها صفاقس فأرست الوحدات البحرية داخل الخليج ونزلت فرقة للبر فانتصبت عند مجمع المياه المسمى (برأس الوادى) عربى الغابة وبذلك صارت تتحكم فى الماء حياة المدينة وغابتها .

مقاومة الاحتلال :

ويقص السكان أن الناس هبت للدفاع وحملت السلاح وصمد أهل قابس للقنابل والطوربيد المستهدفة حارتى المنزل وجارة . وقدمت جماعات غفيرة من أبطال بنى يزيد من الحامة ومن أبطال عروش الحمارنة والحزم وشاركوا مشاركة فعالة فى الدفاع عن المدينة ، ولم يستطع الفرنسيون الاقتراب من قابس وغابتها إلا بعد براز عنيف ذهب ضحيته جماعة من الأبطال حيث سقطت منهم جماعة من الشهداء فى الغابة ، ولما نزل الفرنسيون وهاجموا جارة تلقاهم المقاومون فى جارة بالسلاح الأبيض مما اضطرهم إلى احتلالها منزلا منزلا فى الوقت الذى كانت فيه قنابل جيشهم الغربى وأسطولهم البحرى تخرب الغابة وحارة المنزل ، وتفطن الفرنسيون لمقاومة عنيفة ظهرت من مستودع الذخائر (خزنة البارود)[1] ، وكان قد التجأ إليه جماعة من أبطال الحمارنة والحزم فاحتلوه من أجل الذخيرة ومنه قاوموا المحتلين ، وأجبر الفرنسيون

---

(١) كانت فى مكان مدرسة المنزل الابتدائية اليوم .

أسطولهم بمكان المقاومة فسلط عليه قنابله فانفجر المستودع واستشهد كل من فيه وتمزقت أجسادهم ، ولا يزال السكان يتحدثون عن تلك الفاجعة ، وإثر القضاء على المستودع ومن فيه تمكن الفرنسيون من احتلال المنزل والقضاء على المقاومة فيه بعد ما اضطر المقاومون الأحياء إلى الفرار نحو الجنوب واستسلمت المدينة للقوة القاهرة فى ٢٣ جويلية ١٨٨١ م .

وقد حاول محرر دائرة المعارف الإسلامية أن يجعل قابس من المدن المستسلمة بدون مقاومة ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأن السكان حملوا السلاح فى وجه الجيش الفرنسى فأقر بالواقع من حيث أراد إخفاء الحقيقة فقال : « قام تشويش كبير بالجنوب التونسى غير أنه على أثر رمى صفاقس بالقنابل توجهت على جناح السرعة قوات فرنسية إلى مدينة قابس حيث تسلح الأهالى بما لديهم من الأسلحة فاستسلمت جارة والمنزل فى ٢٣ جويلية بدون مقاومة ؟ . وأقامت القوات الفرنسية مركزاً عسكريا برأس الوادى لحراسته والسيطرة عليه لأن مياهه تنتعش منها الواحة »[1] .

ولست أدرى إذا كان السكان استسلموا بدون مقاومة أى معنى للقول بأنهم تسلحوا وأية فائدة من احتلال رأس الوادى والسيطرة على الماء الذى تعيش منه الواحة والمدينة . على أن (ايفر (Joer)) كان أصرح من دائرة المعارف حيث قال : « وضربت كل من قابس وجربة بالقنابل واحتلتهما القوات العسكرية الفرنسية[2] . وأصرح من الاثنين (فكتوريو) الذى قال : « غير أنه وجب إطلاق بعض القنابل على حارة المنزل ، ووجب فتح حارة جارة بالطوربيد واحتلال منازلها قتالا بالسيوف »[3] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (قابس) .

(٢) L'Afrique du Nord française p. 262

(٣) تاريخ الحماية التونسية ترجمة مجلة العالم الأدبى ٢٣ بتاريخ ٢٩ أوت ١٩٣٢ .

المقاومة فى الجنوب :

وثار سكان الجنوب ثورة جامحة ووقعت الاتصالات بين زعماء العروش العربية وجمعوا الأسلحة وانتقلت الأحياء إلى الحدود الطرابلسية طمعاً فى الاتصال بالمساعدة من طرف السلطة التركية ، وجاءتهم الرسل تخذلهم وتدعوهم للهدوء وتذكر لهم أن دخول الفرنسيين كان بأمر من الباى ، وأن مخالفته تعتبر خروجا عن حدود الشرع ،فلم تؤثر هذه الدعايات إلا فى الأحياء المالية للهدوء بطبيعتها ، وأعلن بقية العروش أنهم سيقاومون الدخلاء وأعوان الباى معاً وأن هذا الباى لاسلطة له عليهم وأنه كافر خارج عن حدود الشرع لأنه سمح (ببيع بلاده للنصارى) .

واجتمعت فى أرض (الجفارة)، بأقصى الجنوب عروش الهمامة قادمين من الشمال بقيادة الشيخ سديرة[1] وأولاد يعقوب بقيادة الشيخ محمد (بالفتح) بوعلاق[2]، ونفات بقيادة الشيخ على بن خليفة[3] وفريق من

---

(١) والد البشير بن سديرة الذى ثار على السلط الفرنسية إثر الحرب العالمية الأولى وأقلق راحتها وعمل فيها الأفاعيل فاضطرت إلى أن ترسل إليه أحد الخونة يدعى (بلقاسم الأقرع) فالتحق به فى الجبال راعماً أنه ثائر مثله وصاحبه مدة حتى تمكن منه يوماً فقتله غدراً وهو نائم وفر إلى قفصة حيث قبض جائزته من أسياده . فبيته أبناء عم البشير القتيل ودخلوا عليه ليلة فى مقهى وهو يلعب الورق فأردوه قتيلا بالرصاص وكانت جماعة من الهمامة رجالا ونساء متفرقة فى الشوارع فلم يكد يموت عدوهم (الأقرع) حتى أطلق الرجال العيارات النارية فى الشوارع وانطلقت زغاريد النساء تشق سكون الليل فأغلقت الأبواب وباتت قفصة فى ليلة يسودها الخوف والرعب ومن الغد ألقى القبض على جماعة كبيرة من الهمامة ومات بعضهم فى السجن وصدرت عن البعض الآخر أحكام مختلفة .

(٢) زعيم أولاد يعقوب سكان (نقة) بنفزاوة وقد تزوج من بنت الشيخ على بن خليفة النفاتى بطرابلس فأنجبت له ولده الصغير (بلقاسم) الذى لايزال على قيد الحياة وكان ابنه الأكبر عبد الرحمان من أعلام فرسان الجهة .

(٣) بقى فى طرابلس مبجلا مكرماً من طرف السلطة التركية إلى أن مات ودفن هناك ولما استقرت الحالة بتونس ويئس من نجاح المقاومةرجع ابن أخيه المرحوم الحاج محمد بن خليفة =

عرب مدنين بقيادة منصور الهوش[1]، وجماعات من بنى يزيد والحمارنة والمرازيق وتطاوين وبنقردان ، الخ .

وفى أثناء حصار صفاقس من طرف القوات الفرنسية مر بقابس عرش نفات فانضم إليه من أطرافها بعض الأعراب ودخلت هذه الأحياء أرض طرابلس تراقب الحالة حتى احتلت القوات الفرنسية جبال مطماطة الثائرة وتمكنت من الثبات فى مراكز مختلفة من الجنوب وهدأت الحالة فلم ير بعض العروش فائدة من بقائها بطرابلس خصوصا وقد أهملت تركيا إعانتهم وأشارت عليهم بالرجوع إلى بلدانهم فرجعت مستسلمة للقضاء ولم يبق بطرابلس إلا الشيخ على بن خليفة فى جماعة من عرش نفات ومنصور الهوش فارس مدنين وجماعات قليلة من الذين أنفوا الرجوع إلى بلدانهم حتى لايصبحوا تحت سلطة النصارى الأجانب .

مقاومة مطماطة :

حملت جبال مطماطة لواء المقاومة للاحتلال وحاولت الجيوش الفرنسية احتلالها بالقوة ففشلت لوعورة الجبال وضيق مسالكها واختفاء المقاومين خلف صخورها فاكتفى الفرنسيون بحصارها وقطع الإمداد عنها من الخارج ، وكان مستشار الفرنسيين وصاحب رأيهم فى هذه الجهة رجلا يدعى (يوسف الليقرو) يقال إنه من أصل جزائرى ، فكان يقول لهم « سيأتى يوم تحتلون فيه مطماطة دون أن تخسروا قتيلا » وجاء اليوم

= لبلاده ، فاستقبلته السلطة الفرنسية بفرح وعينته عاملا انتقل بين عدة أعمال منها (قابس) كما عينت ابنه الصادق علاملا على صغر سنه وتقلد كثير من عائلته هذه الخطة بعد ذلك .

(١) من أعلام فرسان الجنوب المغاوير وشعرائهم النبعاء ولاتزال قصائده فى الشعر الملحون سمر أهالى الجنوب وأكثر شعره فى الحماسيات ، وأروعها فى تحريض السكان على مقاومة الفرنسيين وتوبيخهم على طاعة النصارى ، مات بأرض طرابلس غريبا رحمة الله عليه .

المنتظر متمثلا فى مطر غزير نزل على الجهة فأمرهم (الليقرو) بالهجوم لأن سلاح السكان العتيق إذا أصابه الماء فسد ولم ينطلق .

وهجم الجيش الفرنسى على منافذ الجبل وحاول الأهالى إطلاق الرصاص فوجدوا أنفسهم كمن يحمل عصا فى يده لا بندقية فاستسلموا للفرنسيين وقلوبهم تتفطر غيظا وألما وكانت جائزة يوسف الليقرو تقليده عمل الأعراض طول حياته .

وبعد هذه البسطة عن احتلال الجنوب نستطيع أن نرجع إلى قابس وعمالها فى هذه الفترة فقد تداول على الأعراض عدّة عمال أولهم فيما نعلم إثر انتصاب الحماية .

١ — يوسف الليقرو :

وقد ذكرنا أن الفرنسيين ولّوه قابس نتيجة أعانته لهم على احتلال مطماطة ولكن الله عاقب هذا الرجل فطمس بصره ، ورغم ذلك فقد أبقاه الفرنسيون فى وظيفته وهو أعمى إلى أن مات .

ومن عمال هذا العهد :

٢ — الحاج محمد بن خليفة :

وقد كان رجلا شهما قوى الشكيمة لم يستطع الفرنسيون فرض سياستهم عليه إلا بالحيلة واللين واعتنام جهله وسذاجته ، وطالما تورطوا معه فى خصومات عنيفة لا يقابلونها إلا بغض الطرف والتظاهر بمساندته وقصة ضربه لأحد المراقبين المدنيين مشهورة ، وكان صاحب مبرات كثيرة من أشهرها تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية بتونس ، وقد أوقف عليها من أرزاقه ما بقى عونا لها على كفالة الأيتام والمحتاجين .

٣ — عبد العزيز الجلولى :

أحد الوزراء السابقين ورئيس جمعية الهلال الأحمر التونسى اليوم .

٤ — صولة بن عبد اللطيف :

وكان آخر عمالها فى عهد الحماية .

٥ — رحومة بن الرهيبة العطارى :

وفى هذا العهد كان النظام الإدارى فى قابس يتركز على مراقب ما
فرنسى بيده السلطة الحقيقية وعامل تونسى يصرف الشؤون فى الظاهر ، و
جانب هـــذا أحدث بها مركز عسكرى من أهم المراكز يسيطر
كامل الجنوب .

— ٦ —

عهد الاستقلال

وقد تداول على قابس فى الفترة التى مضت من عهد الاستقلا
الداخلى (٣ جوان ١٩٥٥) والتام (٢٠ مارس ١٩٥٦) إلى اليو
(جانفى ١٩٦٢) عامل واحد وثلاثة ولاة ومعتمد مكلف بالولاية فكا
أولهم السيد :

١ — الهادى المبروك :

كان أول عامل حسب النظام القديم فى عهد الاستقلال .

وتغير نظام العمال فى هذا العهد فكان لكل ولاية وال يحل محل العامل
والمراقب المدنى فى نظام الحماية وأول من جاء ولاية قابس فى العهد
المذكور السيد ·

٢ — محمد الحبيب :

الذى غادر فى عهده الفرنسيرن الجهة نهائيا ، وعقبه على الولاية السادة :

٣ — محمد بن الأمين .

٤ — يوسف الجدى :

(معتمد مكلف بالولاية) .

٥ — أحمد بن للونة :

الوالى الحالى (١٩٦٢) .

وقد حققت قابس فى هذا العهد تطورا عظيما وسريعاً فى جميع الشؤون الاجتماعية والتعليمية والصحية والزراعية الخ : شأن بقية بلدن الجمهورية التونسية التى شملها تطور عارم بفضل جهود رجال جمهوريتنا الفتية ، حقق الله فيها الآمال وأعان مسيريها على ما يبذلون من جلائل الأعمال :



الباب السادس

أعلام قابس



الفصـــل الأول

أعــلام محليون

ظهر بهذه المدينة — فى مختلف العصور — رجال أعلام فى السياسة والعلم والقضاء والزهد وغير ذلك بحيث لم يخل عصر من عصورها من وجود قليل أو كثير منهم شأن بقية العواصم العامرة فى العالم ، وقد تعرضنا سابقا لبعض سياسيها من ولاة وأمراء ، وخصصنا هذا الباب لأهل العلم والقضاء والزهد ممن نبه اسمه وسجلته الكتب التاريخية مما يكون أحسن رد على العبدرى الذى يقول فى رحلته المشهورة عن قابس[1] « وأما العلم عندهم فقد ركدت ريحه ، والجهل عندهم لا يوسى جريحه » .

وتقتصر التراجم على قدماء الرجال طلبا للاختصار إذ لو أردنا الكتابة عن رجال قابس الأحياء لاحتجنا إلى مؤلف آخر أضخم من هذا فقد أنجبت قابس فى العصر الحديث من رجال العلم فى مختلف فروعه والقضاء والمحاماة والسياسة والاقتصاد جماعة كان لهم أثر لا ينكر فى تطور الحياة التونسية الحديثة .

وقسمنا هذا الباب على فصلين ذكرنا فى الأول الرجال المحليين الذين ولدوا بها واتخذوها سكنا أو كان أصلهم منها ، وعاشوا خارجها — محتفظين بنسبتهم لبلدهم ، وذكرنا فى الثانى الرجال العابرين الذين نزلوها زمانا محدودا ثم غادروها وكان لهم اتصال أدبى أو علمى أو سياسى بها أو بأحداثها ، وعلى سبيل التبرك نبتدئ بعلمها الأول الذى استمدت تربتها من نفحاته القدسية قداسة ، وبركة الصحابى الجليل .

---

(١) رحلة العبدرى (مخطوطة) ص ٨٦ — ٢٨٦ فى حديثه عن قابس .

— ١ —

أبو لبابة الأنصارى رضى الله عنه

يشك بعض المؤرخين فى دفن أبى لبابة بمدينة قابس وربما أنكر بعضهم وجوده هناك ، وزعموا أن ما يرويه أهل قابس بطريق التواتر عن أجدادهم من دفن جثة الصحابى أبى لبابة بمدينتهم لا يستند إلى دليل تاريخى وهم يعللون هذا الشك أو الإنكار بأمرين :

١ — أنه لم يذكره ولم يشر إليه من قدماء المؤرخين أحد فى القرون الإسلامية الأولى بحيث لا نجد الإشارة إلى وجود أبى لبابة بقابس إلا عند من كتبوا فى القرن السابع تقريبا وما بعده ؛

٢ — أن هؤلاء المؤرخين القدماء يصرحون بأنه لم يدفن صحابى فى إفريقية غير أبى زمعة البلوى بالقيروان ؛

وممن تعرض إلى ذكره فى النصف الأول من القرن السابع أبو المطرف ابن عميرة قاضى قابس فى إحدى رسائله التى وصف فيها قابس منها « وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة مستأثر بسيد من سادات الصحابة » والعبدرى فى أواخر القرن السابع فى رحلته قال « وبها قبر أبى لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد وهو منه فى بيت مغلق » .

والتجانى فى أول القرن الثامن شارحا قول أبى المطرف السابق « أشار أبو المطرف بقوله فى الرسالة ... مستأثر بسيد من سادات الصحابة إلى ما يذكره أهل قابس أن أبا لبابة الأنصارى مدفون ببلدهم وقبره عندهم مزار مشهور . وبقابس مسـجد ينسبونه إليه ولم أر أحداً من المؤرخين عد أبا لبابة ممن دخل إفريقية من الصحابة الخ[1] » .

---

(١) الرحلة ص ٩١ .

وقد أجاب عن الأمر الأول من الأمرين اللذين جلبا الشك للمؤرخين التجانى نفسه بقوله[١] « لعله إن ثبت أن قبره هناك ممن أغفل المؤرخون ذكره » وكم أغفل المؤرخون من أسماء وأحداث . كما أجاب عنه ابن ناجى القيروانى بقوله[٢] . « لما وليت قضاء قابس وجدتهم يزورون قبرا فى بيت نظيف داخل مسجد خارج عن البلد من غربيها (؟) يسمى مسجد أبى لبابة وفى الحائط عند رأس القبر لوح مكتوب فيه · هذا قبر أبى لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وجميع من بقابس وسائر عمالها يقولون ذلك وينقلونه نقلا متواترا حرهم وعبيدهم ، ويعده الناس كثيراً ويقوم بذلك المكان رجل يصح له من وعدات[٣] الناس ما يكفيه هو وعياله برفاهية فقلت لهم إن المؤرخين قالوا لم يدفن بإفريقية من الصحابة غير أبى زمعة بالقيروان فقالوا ما رأينا أحداً تردد فيما ذكرناه لك ، ثم لما وصلت إلى تونس بعد ذلك سألت عن ذلك شيخنا أبا الفضل أبا القاسم البرزلى فقال لى · لما حججت زرت قبره ونقلهم فيه متواتر فما ذكره المؤرخون إنما هو فيما عاينوه وذلك يدل على أن غيرهم علم خلاف ما لم يعلموه فالعمل على ما ذكره أهل قابس ولا قادح يقدح فى نقلهم »

وأيد ابن ناجى العياشى فى رحلته فقال[٤] «كنت ربما لحقنى فتور فى العزم على زيارة (أبى لبابة) استبعاداً (لوجوده هناك) دون أن يكون منصوصا عليه ، فلما رأيت ما فى (معالم الإيمان) زال ما فى قلبى من ذلك وقويت نيتى فى زيارته رضى الله عنه » .

وسألت أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب عن زعم المورخين بأنه

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) معالم الإيمان ج ١ ص ١٠ – ١١ .

(٣) الوعدات هى النذور والصدقات التى يقدمها الزائرون للأولياء والصالحين .

(٤) رحلة العياشى ج ٢ (مخطوط) .

لم يدفن بإفريقية غير أبى زمعة البلوى فقال « إن هذا الزعم مبنى على أنه لم يبلغ لعلمهم إلا من ذكروه وليس ذلك بجزم مبنى على تحقيق علمى لأن الواقع أن إفريقية كانت مدفنا لجماعة من الصحابة منهم أبو لبابة ، وقد جمعت أسماء نحو اثنى عشر من الصحابة المدفونين بإفريقية غابوا عن ذاكرتى ولعلى أعثر على الأوراق التى كنت قيدت بها أسماءهم فى يوم من الأيام[1] ، ومن بين هؤلاء معبد بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما الذى استشهد بإفريقية فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، فإذا قال بعض المؤرخين أنه لم يدفن بإفريقية غير أبى زمعة فيجب أن نضيف إليها جملة (فمن بلغ إلى علمهم) ومن الذين لم يبلغ إلى علمهم ولم يذكروه معبد بن العباس الذى ذكره مؤرخون آخرون كالبلاذرى فى (فتوح البلدان) وابن عبد البر فى (الاستيعاب) وممن لم يبلغ إلى علمهم أيضا أبو لبابة الذى تواترت به أخبار أهل قابس من أقدم عصورهم وعنهم نقل مؤرخو القرن السابع وما بعده » .

ويزيد أستاذنا شرحا لهذا الموضوع فيقول :

« إن تاريخ هذه الفترة — فترة الفتوح — لا يزال غامضا جدا لأن المؤرخين اقتصروا على ذكر الغزوات الكبيرة وأهملوا ذكر السرايا التى كان المركز الإسلامى يبعث بها للاستكشاف والفتح فقد كانت هذه السرايا تتوالى سنويا تقريبا على إفريقية فتصل إلى قابس وجهات نفزاوة وقفصة والجريد وتتعمق أحيانا فى تراب إفريقية فتصل إلى الدواخل ، ولا ننسى أيضا الحاميات التى كانت تتركها الجيوش الكبرى خلفها مستندة إلى صلح مع بعض الجهات أو القبائل بحيث نعتقد أن إفريقية لم تخل من المسلمين منذ

---

(١) بعد تحرير هذا لم يعثر الأستاذ عليها .

الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ فكان يموت من بعض هذه الحاميات أو السرايا رجال يخفى أمرهم على المؤرخين الذين جاءوا بعد هذا العصر .

فنحن نعرف مثلا أن المسلمين فى الغزوة الأولى لما قتلوا جرجير بسبيطلة تركوا على إفريقية واليا بيزنطيا من قبلهم أعطاهم الطاعة وأخلص لهم ، فلما جاءت النجدة البيزنطية لإفريقية ورأى نفسه عاجزا عن مقاومة البيزنطيين وتأخرت النجدة الإسلامية التى طلبها ، سافر بنفسه إلى مقر الخلافة بدمشق وقابل الخليفة ومات هذا الوالى البيزنطى فى الإسكندرية أثناء رجوعه[1] ، وعرفنا من ذلك أن نتيجة الغزوة الأولى لم تكن مجرد صلح على مال ولكن النتيجة كانت قبض مبلغ من المال ونصب الحماية الإسلامية على إفريقية ولا شك أن الحماية هذه خولت لبعض الحاميات الإسلامية البقاء فى إفريقية » .

ويختم أستاذنا حديثه لى بقوله : « إلا إنه لا أمل لنا من كشف غموض هذه الفترة من التاريخ إلا إذا ساعدنا الحظ على اكتشاف بعض الرسائل التى كان يتبادلهـا قواد الجيوش ورؤساء الحاميات مع رؤسائهم فى طرابلس ومصر وكانت هذه الرسائل تكتب على البردى » .

وعلى هذا يكون معبد بن العباس الذى استشهد بإفريقية والذى يقول عنه البلاذرى إنه استشهد (فى غزوة ابن أبى سرح فى خلافة عثمان)[2] . ويقول ابن عبد البرّ إنه « قتل بإفريقية شهيدا سنة ٣٥ هـ فى زمن عثمان وكان

---

(١) يشير الأستاذ هنا إلى ما جاء فى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٦ . « وكان قد قام بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق – « المرسل من القسطنطينية » – بعد فتن كثيرة فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقر له الأمر بعد قتل على فوصف له إفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً فسير معه معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج السكونى فلما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومى ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقية وهى نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قمونية الح » .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٣٠ ، ط مصر .

غزاها مع ابن أبي سرح »[١]. يكون قد جاء إفريقية مع ابن أبي سرح وبقى فى إحدى الحاميات بعد رجوع الجيش للشرق واستشهد فى إحدى السرايا سنة ٣٥ هـ إن صدقنا أن هذه هى سنة وفاته، وكانت وردت نجدات مع ابن حديج فى هذه السنة أو التى قبلها فى غزوة ابن حديج الأولى .

أما إذا ملنا إلى إهمال هذا التحديد لسنة الوفاة وفرضنا أنه استشهد أثناء العزوة التى دامت من أواخر ٢٧ هـ إلى أوائل ٢٩ هـ فيكون معبد قد مات فى إحدى السرايا التى كان يبعثها ابن أبي سرح إلى الجهات . قال البلاذرى[٢] « وبث ابن أبى سرح السرايا ففرقها فى البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستاقوا من المواشى ما قدروا عليه » .

قلت ، ومادام قد صح أن جماعة من الصحابة قد ماتوا ودفنوا بإفريقية وأغفل ذكرهم المؤرخون القدماء لعدم بلوغ العلم بهم إليهم ، فلا يبعد أن يكون ما يزعمه أهل الجنوب الشرقى — مدنين وجرجيس وبنقردان وجربة — من وجود قبور للصحابة فى جهتهم صحيحا أيضا فهم يروون بالتواتر عن أجدادهم أن سبعة من الصحابة قد استشهدوا ودفنوا بمكان يسمى إلى اليوم (جرف الصحابة) بأرض تسمى أرض (الغرابات) وتبعد عن مدنين نحو ٢٥ ك م على طريق جرجيس ، وإذا صح وجود قبور للصحابة هناك فيكونون من بين من استشهد فى الغزوات الأولى التى كانت تترادف وتتوالى على إفريقية من طرابلس .

---

(١) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب المطبوع مع الإصابة فى أسماء الصحابة ج ٣ ص ٤٣٦ ، ط مصر وهو معبد بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، يكنى أبا العباس ، ولد على عهد رسول الله عليه وسلم ولم يحفظ عنه ، وأمه لبابة بنت الحارث أخت ميمونة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وهى أم أخوته الفضل ، وعبد الله ، وعبيد الله ، وقثم ، وعبد الرحمن ، وأم حبيبة ، أبناء العباس بن عبد المطلب رضى الله عن جميعهم .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٨

من هو أبو لبابة[1] :

اسمه بشير وقيل رفاعة بن عبد المنذر بن زر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن الأوس من قبيلة الأوس سكان المدينة المنورة أسلم ليلة العقبة بمكة المكرمة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وكان أحد النقباء الذين سماهم النبي ليلة العقبة وحضر معه غالب الغزوات منها غزوة بدر ، وقيل بل أمره النبى على المدينة فى هذه الغزوة وضرب له بسهم مع المجاهدين ، وحضر معه فتح مكة وكان يحمل راية قومه بنى عمرو بن عوف وأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأحاديث وحدث بها ، روى عنه ولداه السائب وعبد الرحمان ، وعبد الله بن عمر ، وولده سالم بن عبد الله ومولاه نافع وعبد الله بن كعب بن مالك .

ذنب وتوبة :

وفى غزوة تبوك تخلف أبو لبابة عن الرحيل مع الجيش بعذر قبله النبى صلى الله عليه وسلم ولم يقبله الله لأن أبا لبابة كان قادرا على الخروج مع الجيش فنزلت الآية فى المخلفين فندم أبو لبابة ندما عظيما ربط من أجله نفسه فى سارية بمسجد المدينة وأقسم أن لا يبرح المكان حتى يتوب الله عليه ، ورحمهم الله فنزلت آية توبتهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، الآية) فلم يبرح أبو لبابة المكان حتى جاءه النبى وحل رباطه بيده . وقيل إن ذنبه هو إشارته إلى حلقه حين استشاره حلفاؤه من يهود قريظة فى أمر نزولهم على حكم سعد بن معاذ فى غزوة بنى قريظة بعد ما أضر بهم الحصار ، أى أن ما لكم الذبح إن نزلتم على حكمه ، فنزلت فيه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم .. الآية) .

---

(١) انظر عنه الإصابة ج ٤ ص ١٦٧ ، والاستيعاب المطبوع مع الإصابة فى نفس الجزء والصفحة .

ويرجح المؤرخون أن ذنب أبى لبابة هو ما ذكرناه أولا وهو تخلفه عن غزوة تبوك وكانت نتيجة قبول توبته أن أعلن أمام النبي صلى الله عليه وسلم (أن من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله ورسوله) فقال له النبي (يجزئك يا أبا لبابة — الثلث) أى تصدق بثلث مالك فقط ويبقى الثلثان لأهلك .

ووفى أبو لبابة بنذره فلازم الغزو والجهاد مع المسلمين فى مختلف البلدان حتى مات رضى الله عنه سنة ٤٠ هـ ، فى خلافة على بن أبى طالب ، وقيل عاش إلى ما بعد سنة ٥٠ هـ والمعول على القول الأول فهى الرواية المتواترة عند مؤرخى الصحابة . والظاهر أن أبا لبابة وأمثاله من المخلصين لله ولدينه والمنقطعين للجهاد لم يدخلوا فى الخلاف الذى حدث بين على ومعاوية بل لازموا الجهاد فى سنوات الفتنة والرباط فى مسالح المسلمين أمام العدو دون أن يأبهوا لما يقع وراءهم أو يشاركوا بالقول أو بالفعل ، وكان ذلك الموقف من أبى لبابة إتماما لتوبته النصوح ؟

أين مات أبو لبابة ؟

هنا يمسك المؤرخون عن الجواب مكتفين بقولهم إنه مات سنة ٤٠ هـ فى خلافة على بن أبى طالب ولم يتعرضوا بكلمة إلى مكان وفاته وهل مات شهيداً أو على فراشه ؟ وفى أية جهة ؟ وفى أى مكان ؟ على أننا وجدنا الجواب — إن شاء الله — عند أهل قابس الذين عرفوا قبر أبى لبابة من من قديم — ورووا خبره كابرا عن كابر ، وبنوا عليه مسجدا ومزارا مشهوراً جدد عدة مرات وذكر مؤرخو القرن السابع أنه كان عليه مسجد وأن مزاره مشهور فى تلك الجهة تلتمس عنده البركة والدعاء الصالح .

بقى الأمر الوحيد الذى لا نعلمه هو متى عرف أهل قابس قبره وجعلوا

منه مزارا ؟ وهل إن رواية وجوده تتصل بأهل القرن الأول أو اشتهرت بعد ذلك ؟ هذا ما لا يمكن الوصول إليه .

ويحدد أهل قابس المكان الذى مات فيه أبو لبابة فيذكرون أنه مات (بوادى الغيران) غربى (كنانة) على بعد نحو ١٨ ك م من قابس ، ونقلت جثته إلى حيث ضريحه الآن ، وهذا لا يستغرب حدوثه فقد يموت الإنسان فى مكان ويدفن فى آخر كما وقع لأبى زمعة البلوى رضى الله عنه فقد مات فى (جلولا) ونقلت جثته إلى القيروان ، ولكن أهل قابس لا يذكرون لنا هل مات أبو لبابة شهيدا ؟ أو مريضا ؟ .

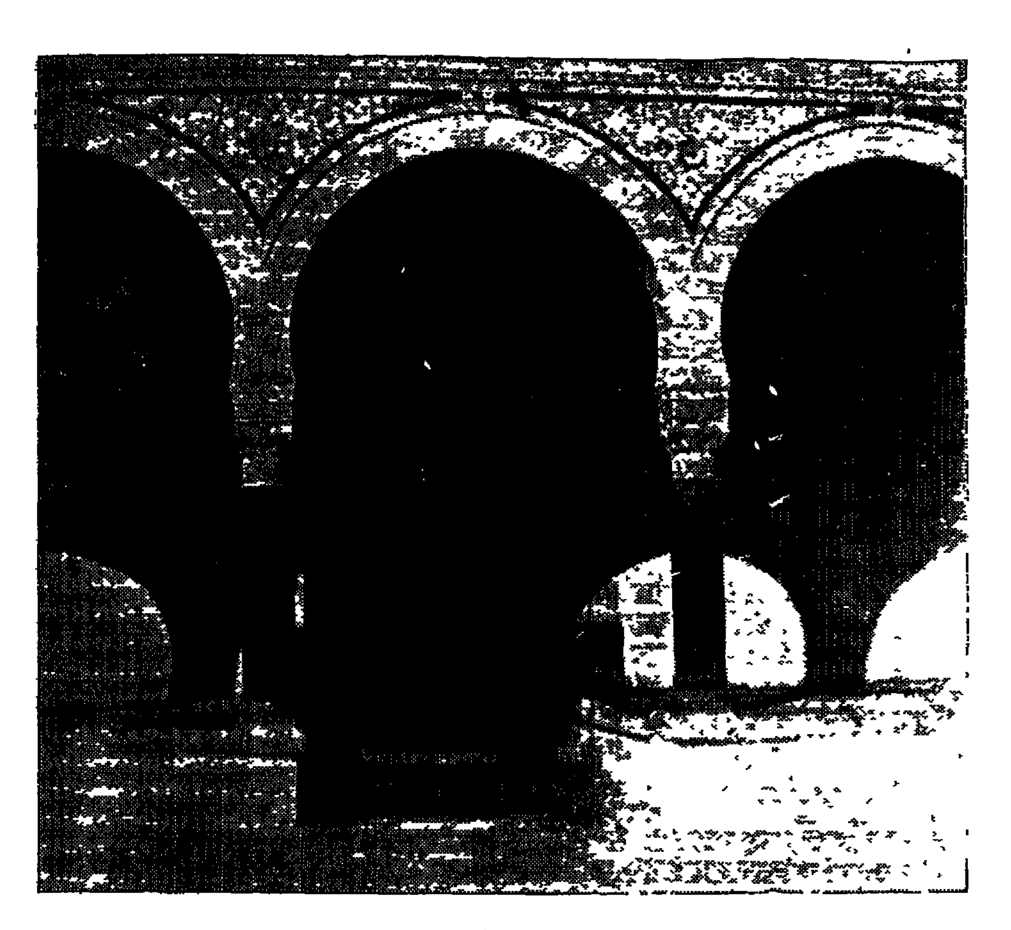
وعلى كل فالراجح عندى أن أبا لبابة قدم إفريقية فى إحدى السرايا التى كانت تتوارد إلى إفريقية ، بصفة مستمرة ، والظاهر أن قابس كانت مفلوحة سنة ٤٠ هـ ، وأن المسلمين الذين كانوا بها هم الذين نقلوا جثته إلى قابس على فرض موته بـ (وادى الغيران) وهم الذين جعلوا قبره مزارا وتبعهم من بعدهم من المسلمين وبذلك حصل التواتر الذى تحدث عنه مؤرخو القرن السابع وما بعده .

الضريح :

يقع ضريح أبى لبابة على ربوة تطل على قرية المنزل من الجنوب ، وهى بالنسبة للمدينة فى الجنوب الغربى .

وقد كنا أثبتنا وصف ابن ناحى لهذا الضريح فى أول القرن التاسع كما ذكرنا أن الذين كتبوا عنه فى القرن السابع قالوا إنه كان عليه مسجد ، ومما لاشك فيه أن هذا البناء قد جدد مرات آخرها التجديد الذى أجراه حمودة باشا المرادى الذى بنى الضريح من أساسه بصفة لائقة لم يضف إليه شىء بعده إلا البرطال الموجود الآن أمام الضريح فهو من بناء جمعية الأوقاف كما سيأتى .

وقد وصف العياشي الضريح في القرن الحادي عشر بالعظمة حيث قال : « وقد بني عليه أمير تونس حمودة بنيانا عظيما أثابه الله على قصده الجميل »[1] . وردد هذه العبارة نفسها الورثلاني الذي زاره في أواخر القرن الثاني عشر .



واجهة ضريح أبي لبابة

والضريح الآن عبارة عن مسجد بسقفه قبة يفتح للشرق ، وأمام مدخل المسجد برطال يرتكز على سطر من السواري والأقواس حسبما تراه في الصورة .

---

(١) رحلة العياشي ج ٢ (مخطوط) .

وهذا البرطال من بناء جمعية الأوقاف .

وفى واجهته العايا عثرنا على كتابة أفسدها الجير استطعنا أن نقرأ منها « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » وبإزائها اسم البناء الذى تولى بناء البرطال حسب الظن (وهو عمر بن حسن بن الطيب التونسى سنة ١٢٩١ هـ) ، وعلى يمين الداخل للمسجد يوجد بيت يصعد لمدخله بدرجتين — وبالبيت التابوت الموضوع فوق القبر ، وعند رأس التابوت رخامة مكتوب فيها ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد » .
« هذا مسجد أبى لبابة صاحب رسول »
« الله صلى الله عليه وسلم واسمه رفاعة »
« وبشير ، هكذا سماه مسلم وأبو القاسم »
« البغوى ، وهو أنصارى أوسى »
« بدرى ، عقبى ، وقبره فى هذا البيت »
« غفر الله لمن كتب ولمن قرأ »
« تاريخه لى ٤٠ »

وكلمة التاريخ (لى) أى اللام والياء بحساب (الأبجدى) المعروف ، فاللام (٣٠) والياء (١٠) الجملة (٤٠) وهى سنة وفاته رضى الله عنه .

ولا تزال الحالة على ما وصفها ابن ناجى من وجود شيخ يتلقى النذور والوعدات ومنها يعيش ، وبجانب الضريح من الجهة الشمالية مدرسة لطلبة القرآن بناها محمد باى المرادى تشتمل على عدة بيوت لسكنى الطلبة لا تزال شاهدة على أنها فى حاجة إلى الإصلاح والترميم ، وقد زارها الورثلانى أواخر القرن الثانى عشر فقال عنها : « وبإزاء الضريح مدرسة بناها محمد باى فى غاية الجودة والإتقان والحسن . . وجعل لهذه المدرسة أحباسا

ورتب فيها عشرين طالبا يعطى كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر واستأجر فقيها يعلمهم ويصلى الصلوات الخمس بالمسجد المذكور (مسجد أبى لبابة) إماماً به . فالله تعالى يرحمه ويعفو عنه »[١] .

مدائح وتوسلات :

نقل التجانى عن كتاب (منتهى السول ، فى امتداح الرسول) ، لأبى الحكم الحسن بن عبد الرحمان بن عذرة قصيدة لأبى المطرف بن عميرة ، وقد انصرف من قبر أبى لبابة جاء فيها[٢] :

حبر الأحبة ما ألذ مساقه ... وجنى القطيعة ما أمر مذاقه
وهوى القلوب لها عليها شواهد ... سبقت بناطق حالها استنطاقه
أى[٣] المنازل إن ذكرت عهودها ... فتهيج من كلف بها أشواقه
يعتاده منها جوى بين الحشا ... والصدر رقرق دمعه وأراقه
ويبيت منها كالسليم وماله ... راق[٤] إذا مد الظلام رواقه
حمل الغرام وما أستقل لحمله ... قبل النوى فالآن كيف أطاقه
ورمت به الأقدار كل تنوفة ... لم تاله بجمالها إغراقه
قبر[٥] تشاكينا الفراق لديه والـ ... أشهى لنا أن لا نسلم[٦] فراقه
وموارد حملت أجنة آجن ... يلقى بها طعم النوى من ذاقه
خفق الجوانح دونه ويرد من ... أقصى إليه مع الصدى إخفاقه
ما زلت أقطعها مهامه لم تزل ... بالصبر حتى مزقت[٧] أخلاقه

---

(١) انظر نزهة الأنظار ص ١٢٨ - ١٢٩ - ٦٥٥ .
(٢) عن الرحلة ص ٩٢ ، والحلل السندسية ص ١٥١ .
(٣) عن الحلل ، وفى التجانى : وأى .
(٤) عن الحلل ، وفى التجانى : أرق .
(٥) عن التجانى ، وفى الحلل : قمر .
(٦) عن التجانى ، وفى الحلل . أن نستديم .
(٧) عن التجانى ، وفى الحلل : خرقت .

حتى وقفت وما أفقت بمنزل كالظلم فى صدرى أرى آفاقه[1]
وقبست من شوق (لقابس) جذوة شبت على قلب سواها شاقه
من بلدة فى العين أظلم جوها مع أنها ما أنكرت إشراقه
قد كان منظرها يروق بعين من يشكو النوى لو ان شيئا راقه
لكن (بقبر أبى لبابة) لى هوى ما من هوى فى النفس إلا فاقه
أمل بنفسى لو ظفرت بتربه فجعلت أثمد ناظرى دقاقه
وتمثل القبر الكريم بمقلتى فدنوت منه والتزمت عناقه
فوثاق ذنبى أرتجى لفكاكه من فك خير العالمين وثاقه[2]
صلى الإله على النبى محمد وأناله بجواره استحقاقه
وعلى صحابته وعترته التى لزمت رضاه واقتفت أخلاقه
وقضى لنا من بطئنا فى سيرنا يوم الجزاء على الصراط لحاقه

وقال الورثلانى فى رحلته : أنشدنا لنفسه صهرنا أبو العباس البرنسى الشفشاونى :

نزلنا بقابس فشفينا فيه غليل القلب من شوق أصابه
وزرنا به ضريح إمام بر وبحر فى السخاء (أبى لبابه)
هو البحر المعين لوارديه فرد ما شئت من بحر الصحابه
وأيقنا بنيل القصد حقا وصدقنا بإسراع الإجابه
أنلنايا إلاهى كل خير وإحسان وزودنا الإنابه
وعاملنا فإنا قد أسأنا بفضل لا تغلق عنا بابه
وامددنا بوافر م العطايا[2] أدر علينا من در السحابه
ونور قلبنا واملأه حبا وحبا ولتزل عنا حجابه

---

(١) عن التجانى ، وفى الحلل : إحداقه .

(٢) يشير إلى حادثة ربط أبى لبابة نفسه بسارية المسجد وفك النبى لوثاقة . وجاء هذا الشطر فى الحلل هكذا (عن إفك قول العالمين وثاقه) وهوتصحيف ظاهر .

الإمام أبو الحسن القابسي[٢]

هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بالقابسى أو ابن القابسى وهو وأبو محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى صاحب (الرسالة) المشهورة فى الفقه ، وسيدى محرز بن خلف ، صالح تونس وقطب أوليائها ، أبناء خالات ، والمعافرى يطن ابن ناجى إذا صح أنه قابسى ، نسبة إلى قرية المعافرين جوار مدينة قابس .

وقد اختلف فى أصل بلده ، ففى نكت الهميان[٣] « قال أبو بكر الصقلى ، قال أبو الحسن القابسى كذب علىّ وعليك فسمونى القابسى ، وما أنا قابسيا ، وأنت دخل أبوك مسافرا إلى صقلية فنسب إليها » . وذكر عياض فى (المدارك) إنه قيروانى البلد — وكلمة القابسى أطلقها أهل القيروان على عائلته معللا ذلك بأن (عمه كان يشد عمامته بشد أهل قابس) وعلق ابن ناجى فى المعالم على هذا التعليل بقوله : بل فيه نظر ، وذلك أن قولهم ابن القابسى يقتضى أن والده كان من أهل قابس أتى للقيروان وتزوج بها وولد أولاده فيها أو أنه أتى به صغيرا . ثم ساق ابن ناجى حكاية (قرية المعافرين) التى مر ذكرها فى الباب الثالث من هذا الكتاب . ولعل ابن ناجى على صواب بالرغم من إنكار أبى الحسن نفسه لهذه النسبة إن صحت رواية (نكت الهميان) ويمكن تعليل هذا الإنكار بأن أبا الحسن ولد بالقيروان ووجد عائلته فى القيروان وأن نسبتهم إلى قابس بعيدة ، إذ لا يعقل أن ينسب إلى قابس

---

(١) أصلها - من المطايا ، فحذفت نون (من) وهو جائز فى الشعر ، على أن المقطوع كله مهلهل ظاهر التكلف وهو من نوع ما يسميه الأدباء بشعر الفقهاء .

(٢) انظر عنه المدارك لعياض (مخطوط) ، ومعالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٨

(٣) ص ٢١٨ .

لمجرد تكوير عمه لعمامته على هيئة العمامة القابسية كما علل ذلك عياض ، وعلى كل فلا نرى بأسا من ذكره فى أعلام قابس ما دام منسوبا إليها .

حياته :

ولد الإمام أبو الحسن بالقيروان سنة ٣٢٤ هـ[1] ، وكان ضريرا . قيل ولد أعمى وقيل بل عمى فى صغره ، ويفهم من روايات بعضهم إنه عمى فى كبره وعلى كل فالمعروف إنه كان أعمى لا يرى شيئا . وقرأ بإفريقية على مشاهير علماء ذلك العصر فى الفقه والحديث والتفسير والعلوم العربية والقراءات وغيرها ورحل إلى الشرق سنة ٣٥٢ هـ وحج سنة ٣٥٣ هـ ، وسمع بمكة وبمصر من أعلام الحديث والفقه والعربية فى تلك البلدان حتى ملأ وطابه وعاد للقيروان سنة ٣٥٧ هـ ، وشمر للدرس والتعليم والتأليف والعبادة — فتخرج على يديه علماء أعلام مثل أبى عمران الفاسى وأبى القاسم اللبيدى وأبى عبد الله المالكى وأبى على بن خلدون وابن الكاتب وابن مناس وأبى عمرو الدانى وغيرهم واشتغل فى آخر عمره بالعبادة والتهجد وزيارة الأولياء والرباطات وتوفى بالقيروان فى ٣ ربيع الثانى سنة ٤٠٣ هـ ، ودفن بمقبرته المعروفة عند باب تونس ،وقد ألقيت عند قبره بعد وفاته نحو المـــائة من المراثى واجتمع فى جنازته خلق لا يحصى ولازم بعض تلاميذه قبره ليل نهار نحو سنة بعد وفاته .

علمه وزهده :

نقل ابن ناجى أنه كان « عالما عاملا جمع العلم والعبادة والورع والزهد والإشفاق والخشية ورقة القلب ونزاهة النفس ومحبة الفقراء حافظا لكتاب الله ومعانيه وأحكامه حافظا للسنة عالما بعلوم الحديث والفقه واختلاف

---

(١) مجلة (الجامعة) التونسية عدد ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ، مقال لأستاذنا ح . ح. عبد الوهاب .

الناس سلم له أهل عصره ونظراؤه فى العلم والدين والفضل ، كثير الصيام والتهجد بالليل » .

روى أنه طلب للفتوى فسد بابه دون الناس فقيل : اكسروا عليه الباب لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا ، هو أعلم من بقى بالقيروان ، فلما رأى الجد منهم خرج عليهم وهو ينشد .

لعمر أبيك ما نسب المعلّى إلى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

وكان كثير الزيارة لأبى إسحاق الجبنيانى وغيره من الصالحين وللرباطات حيث يتهجد ويتعبد وكان يكره الاتصال بالحكام ويتنزه عن مخاطبتهم وحتى عن السير حيث يحلون حتى قيل إنه لا يأكل ولا يشرب ماجىء به من (صبرة) مدينة الأمراء والملوك :

تأليفه :

ترك أبو الحسن تآليف عديدة منها :

- كتاب الممهد فى الفقه والأحكام بلغ ستين جزءا ومات ولم يتمه .
- كتاب الملخص والظاهر إنه فى نفس الموضوع وأنه مختصر لما فى الممهد .
- كتاب المنبه للفطن ، والمبعد من شبه التأويل .
- رسالة فى الاعتقادات .
- الرسالة الناصرة .
- رسالة فى الذكر والدعاء .
- رسالة أحمية الحصون والظاهر من اسمه أنه يتعلق بموضوع الرباطات .
- كتاب المناسك .
- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين الخ .

أدبه :

كان أبو الحسن بالرغم من تغلب علوم الشريعة عليه واضطلاعه بها درسا وتأليفا — عارفا بالعربية متفننا فى أساليبها وله شعر رقيق متين الأسلوب نقل لنا منه بعض الأبيات وكلها فى الحكمة والزهد ، فمن ذلك قوله :

أنست بوحدتى فلزمت بيتى وطاب العيش واتصل السرور
ولست بسائل أحدا أراه أسار الجند ؟ أم ركب الأمير
وأدبنى الزمان فليت أنى تركت فلا أزار ولا أزور

وقوله[1] :

إذا أنا عاتبت الملول فإنما أخط باقلامى على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعا فصارت تكلفا

وذكر ابن ناجى من أولاد أبى الحسن القابسى[2] .

عبد الواحد بن أبى الحسن القابسى :

كان دارسا حافظا القرآن والفقه ، توفى فى حياة والده فى ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ

— ٣ —

أبو إسحاق الورقانى[3]

أبو إسحاق الورقانى كما فى عنوان الدراية — والزنتانى أوالزناتى — كما فى نفح الطيب ، والكتابة التى على قبره غير واضحة غير أن الكلمة إلى (الزناتى)

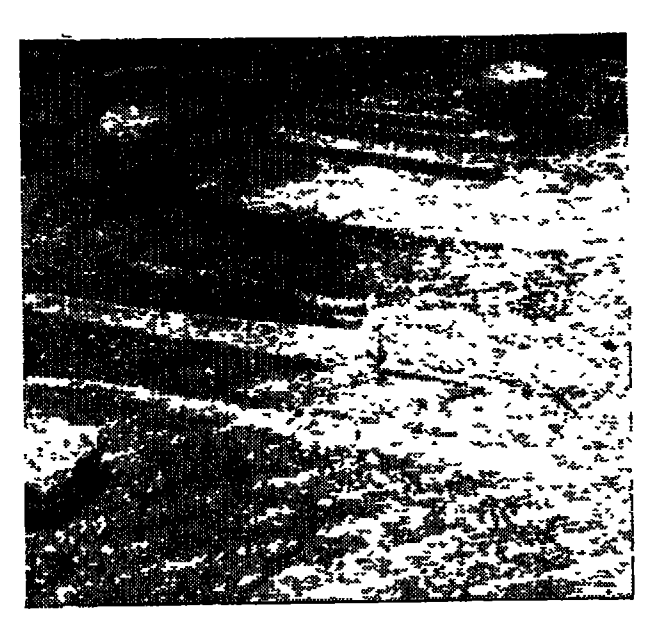
---

(١) عن المستطرف ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) ذكره الغبرينى فى عنوان الدراية ص ١٤١ عند تعرضه لترجمة الششترى ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٨٤ فى ترجمة الششترى أيضاً .

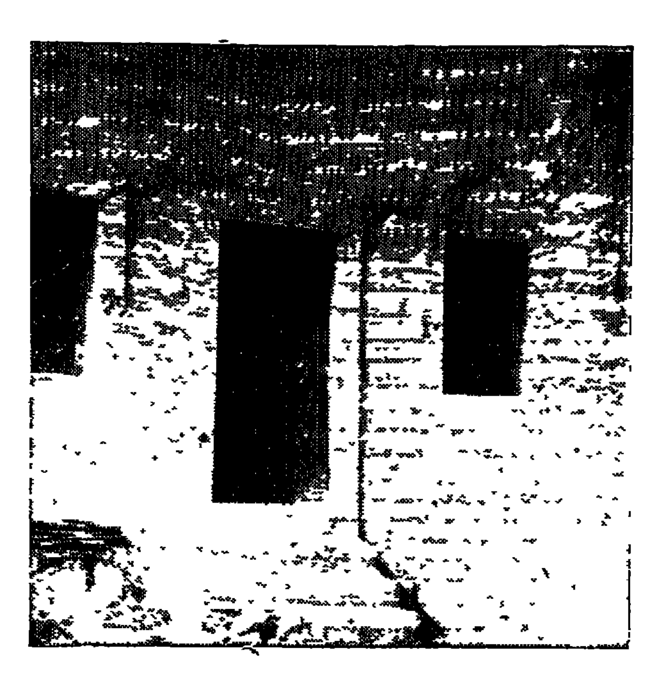
أقرب من الورقاني . كان موجودا بقابس فى منتصف القرن السابع مشهورا بالعبادة والزهد — واتصل بأبي الحسن الششترى وابن سبعين الأندلسيين عند نزولهما برباط قابس المعروف بمسجد البحر ، ودفن أبو إسحاق بقابس وضريحه مزار معروف بزاوية سيدى أبي إسحاق على (ظهرة قراوش) شرقى سوق جارة الآن وقبره ظاهر وعليه اسمه ، وبالمقبرة غرفة صغيرة وبخارجها عدة



قبر أبي إسحاق الورقانى ويظهر وسط القبور وعند رأسه كوز ماء صغير

قبور عليها لوحات بها كتابات منها الظاهر ومنها المطموس ، وهذه الغرفة مستعملة مسجدا بنته جمعية الأوقاف فى الأعوام الأخيرة فى مكان القبة القديمة التى كانت القبور فى ساحتها الداخلية .

هذا كل ما عرفناه عن أبي إسحاق رضى الله عنه .



مسجد أبى اسحاق الذى بنته جمعية الأوقاف

— ٤ —

عبد الله الصنهاجى

كان رفيقا لأبى إسحاق الورقانى وزميلا له فى التصوف والزهد والعبادة وقد اجتمع بالششترى وابن سبعين أيام نزولها بقابس ونجهل تاريخ ومكان وفاته إلا أننا نرجح أنه دفن قابس كصاحبه أبى اسحاق ولم نعثر فى الكتب التى بين أيدينا على ذكره سوى إشارة عابرة فى مقدمه ديوان أبى الحسن الششترى[1] .

— ٥ —

ابن مشكان

أبو القاسم محمد بن خلف المعروف بابن مشكان ذكره أستاذنا حسن حسنى عبد الوهاب فى كتابه (الإمام المازرى)[2] وقال إنه من تلاميذ

(١) بتحقيق الدكتور على سامى النشار ص ١٠ .

(٢) الإمام المازرى ص ٥٢ ط دار الكتب الشرقية بتونس .

الإمام المازرى دفين (المنستير) وإنه تولى قضاء قابس ، هذا ما ذكره أستاذنا . وذكر ابن الأبار فى التكملة أنه آخر من روى عن المازرى[1] ولا نشك أنه تتلمذ عن الإمام بعد ٥٣٠ هـ . وكان ابن مشكان ينتصب لتدريس الشريعة ورواية الحديث مع القضاء ، وقصده الطلبة من كل مكان وقد عرفنا من تلاميذه فى آخر عمره :

أحمد بن عبد الرحمن بن عطية الربعى التونسى :

ذكره ابن الأبار وقال عنه . كان يدرس بغرناطة سنة ٥٩٨ هـ[2] .

ومنهم محمد بن منداس الجزائرى ، ذكره ابن الأبار أيضا وقال إنه توفى سنة ٦٤٣ هـ [3] .

ومنهم محمد بن عبد الله بن عمر بن على بن إسماعيل الأنصارى الأوسى الضرير من أهل قرطبة يعرف بابن الصفار ، أخذ من ابن مشكان بقابس ورجع إلى مراكش فانتصب للتدريس بها ثم رجع إلى تونس ، قال ابن الأبار[4] لقيته بها سنة (٦٣٦ هـ) وصحبته طويلا وكان يقرئ العربية والآداب وله حظ من الشعر ومن النثر وتوفى فى جمادى الثانية سنة ٦٣٩ هـ ودفن قرب المصلى بظاهر تونس (باب القرجانى) وقد نيف عن السبعين.

— ٦ —

ابن زيادة الله القابسى

أبو عبد الله محمد بن زيادة الله القابسى ذكره أستاذنا عبد الوهاب فى تلامذة الإمام المازرى[5] ولا نعرف عن حياته شيئا .

---

(١) تكملة الصلة ج ٢ ص ٧٥٤ ط مجريط .
(٢) ملحق التكملة ص ١٥٧ ط الجزائر
(٣) تكملة الصلة ج ٢ ص ٧٥٤ ط مجريط .
(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٥٣
(٥) الإمام المازري ص ٥٢ .

— ٧ —

عبد الله بن محمد القابسي

ذكره ياقوت فى معجم البلدان[١] من جملة علماء قابس وقال إنه من مشائخ يحيى بن عمر ، هذا كل ما ذكره ياقوت .

وإذا كان يحيى بن عمر دفين سوسة والفقيه والمحدث الشهير من تلاميذه والمعروف أن يحيى توفى فى أواخر القرن الثالث فإن ذلك يعنى أن عبد الله القابسي كان موجوداً فى النصف الأول من القرن الثالث للهجرة وإذا كنا لا نعرف شيئا عن علمه وآثاره فيمكن أن نستنتج أنه كان من علماء الشريعة المتقدمين وأن رجلا تتلمذ عليه مثل يحيى بن عمر لا يمكن أن تجهل مكانته بين العلماء .

— ٨ —

أبو محمد خلف بن محمد القابسي

ذكره أبو العرب فى طبقات علماء إفريقية[٢] وقال عنه : «كان رجلا صالحا ثقة ، له سماع من ابن غانم القاضى ومن بهلول ابن راشد» قال أبو العرب : «سمعت محمد بن أبى الهيثم يقول : سمعت سحنون بن سعيد يقول فى خلف القابسي : إنه لم يبدل ولم يغير» ولم نجد له ذكرا فى غير الطبقات ويظهر أنه من أبناء قابس الذين سكنوا القيروان وأخذوا عن علمائها ولا شك أنه كان من طبقة شيوخه ورملائه كسحنون بن سعيد فى العلم — ومن أبناء أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للهجرة .

— ٩ —

محمد بن رجاء القابسي

ذكره ياقوت فى المعجم[٣] من علماء قابس ، وقال إن من تلاميذه أبا زكرياء البخارى ولم نجد له ذكراً فى كتب التراجم التى بين أيدينا .

---

(١) الجزء ٤ ص ٢٩٠ ط بيروت .

(٢) ص ١١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٢٩٠ .

— ١٠ —

عيسى بن أبي عيسى القابسي

أبو موسى عيسى بن أبي عيسى (موسى) بن نزار بن يحيى القابسي ، وصفه ياقوت في المعجم[1] بأنه الفقيه المالكي الحافظ تتلمذ في المغرب على أبي عبد الله الأجدابي وأبي على بن حمود التونسي ورحل إلى المشرق فسمع بمكة من أبي ذر الهروى وببغداد من أبي الحسن العتيقى وأبي القاسم التنوخي وأبي الحسين الحراني وأبي محمد الجوهرى وأبي الحسن القزويني وغيرهم ، وانتصب للتدريس بدمشق فقرأ عليه عبد العزيز الكناني أبو بكر الخطيب ونصر المقدسي الخ . قال ياقوت . وكان ثقة ومات بمصر سنة ٤٤٧ ﻫ

وهذا أيضاً ممن تخصص بذكره ياقوت ، والظاهر أنه قضى أكثر حياته في الشرق .

— ١١ —

الوزير سلام بن فرحان[2]

سلام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي ، من بني هلال الزاحفين على إفريقية سنة ٤٤٣ ﻫ ، وعاش ابن فرحان بقابس في بلاط بني جامع أمرائها وتقدم عندهم حتى أصبح وزيراً لآخر بني جامع الأمير أبي الحملات مدافع ابن رشيد ، فلما هرب مدافع من جيوش عبد الله بن عبد المؤمن الكومى سنة ٥٥٥ ﻫ ، حمى ابن فرحان ساقته ودافع عن مخدومه حتى قتل في المعركة

(١) نفس الجزء والصفحة .

(٢) انظر عنه الخريدة للأصفهاني ورقة رقم ١٠٥ (مخطوطة الأحمدية) والمنتخب المدرسي من الأدب التونسي لأستاذنا ح . ح ص ٩٦ — ط مصر .

بعد ما أبلى البلاء الحسن وأفلت بسبب دفاعه الأمير مدافع من مخالب اللاحقين – كما ذكرنا ذلك فى الباب الخامس .

ولابن فرحان القابسى شعر متين ينحو فيه منحى شعراء البادية فى تراكيبه ومعانيه ، فمن شعره يمدح أميره مدافع بن رشيد[1] :

بربع رامة رام الركب إلماما ... فغاض صبرى وفاض الدمع تسجاما
وقل إلى الركب منا أن يلم به ... وأن يحيي به رسما وإعلاما
سقيا لعصر الصبا لو كان متصلا ... ما كان أطيب داك العيش لو داما
وكم كتمت الهوى جهدى فنم به ... دمعى وما ذاك دمع العين تماما
فاخلع عذارك فى راح وفى رشا ... طاوى الوشاح ولا تحفل بمن لاما
لله رئم رمى قلبى فأقصده ... وأضرم النار فى الأحشاء إضراما
بخصره هَيَفٌ أهدى النحول إلى ... جسمى وأهدى بقسم اللحظ أسقاما

ومنها :

ذرنى اكف عن الاطلاق راحلتى ... ملت جيادى أسراجا وألجاما
ما زلت أفرى أديم البيد منفردا ... أطوى المفاوز غيطانا وآكاما
حتى حططت رحالى فى ذرى ملك ... غمر المواهب للقصاد بساما
فى متن أدهم ما ينفك يقحمه ... على أعاديه يوم الروع إقحاما
فى عصبة كأسود الغاب قد جعلت ... سمر الرماح وبيض الهند آجاما
يهنى (المدافع) أن الله خوله ... عزاً ينال به كل الذى راما
إذا رآه العدى فى يوم ملحمة ... غشى عيونهم نورا وإظلاما
وقبلوا الترب تعظيما لطلعته ... كما رأت فارس كسرى وبهراما
يا أيها الملك الموهوب جانبه ... شملت هذا الورى فضلا وإنعاما

---

(١) حكى الأصفهانى فى الخريدة أن هذا القصيد فى تهنئة الأمير مدافع بشهر رمضان سنة ٥٥٣ هـ .

سست الرعايا وصفت الملك فامتنعا بصارم ذكر تفرى به الهـــاما

ومنها :

قم فافتح الأرض فالأملاك كلهم سواك أضحوا عن العلياء نواما

— ١٢ —

أبو ساكن عامر بن محمد الهلالى[1]

هو أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالى ، هكذا جاء نسبه فى الخريدة للاصفهانى ، وفى التجانى والحلل : عامر بن محمد بن مكى بن كامل بن جامع أبو ساكن .

تربى فى بلاط آبائه وأجداده بنى جامع أمراء قابس ، حتى كانت نكبتهم على يد الموحدين ســـنة الأخماس ففر مع ابن عمه الأمير مدافع ، ورجع مدافع للموحدين ومات بقابس كما أسلفنا خبره ، أما أبو ساكن هذا فقد فارق وطنه مع أهله وأبنائه إلى المشرق وسكن دمشق وتوفى هناك ، والظاهر أن وفاته كانت بعد نزوله بدمشق بزمن يسير ، فقد روى صاحب الخريدة عن الشريف الإدريسى أنه اجتمع بولده الآتى بعده سنة ٥٧١ ﻫ ، وروى عنه شيئا من شعره وشعر والده ، ومعنى هذا أن أبا ساكن توفى قبل ذلك .

ووصفه صاحب الخريدة بأنه « كان بدويا وأميراً سريا » وكان شاعرا من مقدمى شعراء بنى جامع ، وشعره عليه مسحة من صفات الإمارة يغلب عليه الحماس وبساطة العبارة ، فمن شعره يذكر أيامهم بقابس :

يا جار طرفى غير هاجع والدمع من عينى هامع
ولقد أرقت مســـامرا نجما بدا فى الشرق طالع

(١) انظر الخريدة ورحلة التجانى ص ١٠٢ — والحلل السندسية ج ١ ص ١٥٨ .

متـــذكرا بصروف دهـــــر أصبحت فينا قواطع
إلى من الشم الألى شادوا العُلا (أبناء جامع)
أهل المراتب والكتا ئب والمواهب والصنائع
يتسابقون إلى المعـــا لى كلهم فيها مسارع
ولقـــد ملـــكنا قابسا بالمشرفيـــات القواطع
تسعين عاما لم يكن فيها لنـــا أحد منازع
كم من عزيز كان يأ تى نحونا بالرغم خاضع
كم قاصـــد أو طالب لنوالنـــا يأتيه طامع
وجنـــابنـــا للمعتفـــين بزهرة المعروف يانع
وإذا شهـــدنا مجمعـــا يومى إلينـــا بالأصابع
عبثت بنا أيدى الزما ن وأحدثت فينا البدائع

— ١٣ —

أبو عامر ساكن بن عامر الهلالى[1]

هو ابن عامر بن محمد المتقدم قبله ، ولد بقابس وتربّى فى حجر أبيه فى بلاط بنى جامع وهرب مع والده للمشرق إثر كارثتهم على أيدى الموحدين سنة الأخماس وسكن دمشق ، روى صاحب الخريدة عن الشريف الإدريسى أنه التقى به فى دمشق سنة ٥٧١ هـ وأنشده من شعره ومن شعر والده ، وقال الأصفهانى ، إنه كان موجودا بدمشق إلى سنة ٥٩١ هـ ، ولم يذكر سنة وفاته ، أثبت له فى الخريدة المقطوع الآتى الذى يدل على رقة فى الطبع وعمق فى المعنى :

---

(١) انظر الخريدة ورقة رقم ١٠٦ (مخطوطة الأحمدية) ورحلة التجانى ص ١٠٢ والحلل السندسية ص ١٥٨ .

إذا مر(١) من أهوى أغض له طرفى ... وأخفى الذى بى من سقام ومن ضعف
وأكتم عن سرى هواه صبابة ... ولو كان فى كتمانه أبدا حتفى
مخافة أن يشكو فؤادى تحرقى(٢) ... إلى مقلتى يوما فأبدى الذى أخفى

— ١٤ —

ابو الفضل بن عبدالله بن نزار الهوارى(٣)

أبو الفضل ، ابن الفقيه عبد الله بن نزار الهوارى القابسى ، هكذا ذكره صاحب الخريدة وقال إنه حى إلى الآن (أى ما بين ٥٨٩ و ٥٩٧ ، وهى المدة التى يظن أنه ألف فيها كتاب الخريدة) يخدم ولد عبد المؤمن أصحاب مراكش ، ثم لا نعرف شيئا عن حياته أكثر من هذا .

وهو من قبيلة هوارة البربرية ذات القوة والعديد وفروعها منتشرة فى كامل المغرب العربى من قديم الزمان .

ويظهر أن الهوارى هذا عاش فى بلاط بنى جامع بقابس زمنا وكان من شعرائهم ومادحيهم ، وقد أورد له صاحب الخريدة شعرا فى مدح محمد بن رشيد (من بنى جامع) المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وهذا معناه أن الهوارى كان موجودا بقابس قبل تلك المدة ، ولا ندرى إذا كان من أبنائها أو الوافدين عليها زمن بنى جامع ، وقد بقى الهوارى بقابس حتى جاءها الموحدون ٥٥٥هـ ، فتقرب إليهم بشعره ومدحهم واختص بأولاد عبد المؤمن من الملوك والأمراء ، وإنه بقى إلى زمن تأليف الخريدة ما بين ٥٨٩ و ٥٩٧ هـ ، ولا ندرى إذا كان عاش بعد ذلك كثيرا أو قليلا

---

(١) فى التجانى (عز)
(٢) فى التجانى (صبابتى) .
(٣) ذكره صاحب الخريدة .

روى له صاحب الخريدة قطعة غزلية من مقدمة قصيدة قال إنه مدح بها الأمير محمد بن رشيد الهلالى صاحب قابس يقول فيها :

لم يبق لى بعد الرحيل عزاء ... بان الخليط وشتتت أهواء

فاصرف عنان اللوم عن قلق الحشا ... معرى فإن ملامه إغراء

فعلت به أحبابه يوم النوى ... والبين ما لم يفعل الأعداء

ساروا ولما يسمحوا بوداعه ... فكان خالص وده شحناء

أتراهم حالوا الوداع محرما ؟ ... أم أجمعوا أن لا يكون لقاء ؟

رقت مياه الحسن فوق خدودهم ... وقست قلوبهم فبان جفاء

ومنها ·

ياويح من عبث الهوى بفؤاده ... وتحكمت وقضت عليه ظباء

من كل مزنى (؟) القلب من لحظاتها ... نفثات سحر ما لهن دواء

. . . الخ .

— ١٥ —

يحيى التيفاشي القفصى

أعطى صاحب الخريدة نسبه ، يحيى بن التيفاشى القفصى والنسبة إلى قصر تيفاشى من تراب الجزائر اليوم ، وعائلة التيفاشى هذه من العائلات التى برلت قفصة ومدت إفريقية بعلماء أعلام وأدباء وشعراء نابغين منهم العلامة شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر التيفاشى أحد أحفاد يحيى المذكور وأحمد هذا مؤلف أول موسوعة عربية ضخمة تشتمل على أكثر من أربعين جزءا كل جزء خاص بفن أو علم تسمى (فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب) .

« وتتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والنور والظلمة والسماء والكواكب والنجوم والبروج والماء والنار الخ ، ثم العالم الحيوانى

بما فيه من أصناف المخلوقات وكذا عالم النبات ثم عالم الأحجار والمعادن وما إلى ذلك » .

وكانت ولادة أحمد هذا سنة ٥٨٠ ووفاته بمصر سنة ٦٥١ هـ[1] .

والتحق يحيى هذا ببلاط بنى جامع بقابس وعاش فى ظل نعمتهم زمانا يمدحهم وينال جوائزهم وحوالى ٥٥٠ هـ ، انتقل إلى صقلية ، ولا نعرف سبب هذه الرحلة ، فصادف إحدى المجازر التى كان يقوم بها الإفرنج من زمن إلى آخر فيوسعون فيها المسلمين الباقين هناك قتلا وذبحا وتشريدا فقتل أثناءها رحمه الله ، قال صاحب الخريدة (قتله الإفرنج بعد سنة ٥٥٠ هـ عند فتكهم بالمسلمين) .

ومن شعره يمدح الأمير مدافع بن رشيد صاحب قابس :

رأى البرق فازدادت جوانحه جمرا ... وبات يراعى النجم يرتقب الفجرا
وما البرق مما هاجه غير أنه ... تذكر من يهوى فما ملك الصبرا
خليلى عوجا نندب الربرب الذى ... غدا بعدهم من بعد سكانه قفرا
ديار لها قدما ملأت (؟) جوانحى ... عيون المها جمرا كما ملئت سحرا

ومنها :

... [2] ذات الوشاح إذا بدت ... كشمس الضحى وجها وجنح الدجى شعرا
تميس لنا غصنا وترنو غزالة ... وتعبق كافورا وتبدو لنا بدرا الخ

وترك يحيى ولدا يسمى (محمدا) كان شاعرا مبدعا أشتهر فى المغرب

---

(١) ترجم له أستاذنا ح . ح عبد الوهاب فى صدور الأفارقة (خط) وفى مجلة الفكر عدد ٩ من السنة الرابعة الصادر فى جوان ١٩٥٩ .

(٢) كلمة فى الأصل غير واضحة

العربي بقصيدته التي مدح بها عبد المؤمن بن علي في إحدى وفداته عليه والتي طالعها :

ما هر عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

ويروى مؤرخو الأدب أن عبد المؤمن لمـا سمع هذا البيت أمر صاحبه محمد بن يحيي التيفاشي بالوقوف عنده وأن لا يزيد في الإنشاد ونفحه بألف دينار . والقصة مشهورة معروفة بين الأدباء .

— ١٦ —

السكدلي القفصي

وهذا أيضا من الذين احتصت الخريدة بذكرهم ورواية شيء من شعرهم ولم نعثر على اسمه كاملا ، وهو من الدين انتقلوا إلى سكنى قابس انتجاعا لصلات بني جامع وعاش في بلاطهم الدى كان يغص بالشعراء ومدحهم وأخذ جوائزهم ولا ندرى بعد ذلك ما فعل الله به ولا أين ومتى مات ؟

ومن شعره الوارد في الخريدة (مخطوطة الأحمدية) يمدح الأمير مدافع ابن رشيد صاحب قابس :

خليلي عوجا بي لتلك المرابع   لنسفح بالسفحين در المدامع

ومنها :

منازل ساداتي ومغنى أحبتي   وموضع اطرابي وخير مواضع
بها قد جنيت العز غضا وملبسي   شبابي ومن أهواه غير ممانع
ألا قاتل الله اللوى من محلة   وقاتل دهرا باللوى غير راجع
يكاد فؤادي من تذكره الحمى   وأهل الحمى ينقد بين الأضالع

ومنها متخلصا للمدح :

لقد ملكت روحي كما ملك العدى   وجاز الندى جود المليك (المدافع)

— ١٧ —

القاضي عبد الله ابن أبي مسلم(١)

هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي مسلم القابسي ، ذكره التجانى أثناء سرده لشيوخ شيخه أبي فارس عبد العزيز بن عبيد عالم طرابلس وفقيهها .

وإذا كان ابن عبيد شيخ التجانى كان موجودا بطرابلس سنة ٧٠٨ هـ . وهى السنة التى قرأ عليه فيها التجانى نصيبا من الصحيحين فمن المعقول أن يكون ابن أبي مسلم القابسي موجودا بطرابلس فى أواخر القرن السابع .

وذكر التجانى أن ابن أبي مسلم هذا كان وصل إلى طرابلس قاضيا وله رحلة إلى العراق ودخل فيها بغداد وأن ابن عبيد قرأ عليه بطرابلس أكثر من نصف البخارى .

ولا نشك أن توليته للقضاء بطرابلس كانت من قبل أحد سلاطين بنى حفص الأول فى النصف الثانى من القرن السابع — ولم نعثر على سنة وفاته ولا مكانها .

— ١٨ —

الفقيه الورفلى

من أبناء قابس ومشاهير فقهاء القرن الثامن للهجرة تولى القضاء فى مدينة القيروان وكان تقيا ورعا صلبا فى أحكامه وهذه الصلابة عرضته لخصومة مع قائد القيروان كانت نتيجتها قتل القائد وعزله هو من القضاء ، ثم لا نعلم عن حياته شيئا سوى ما ورد فى هذه الواقعة التى ذكرها صاحب المعالم (ج ٤ ص ١٢٥) فى ترجمة أبي الحسن العبيدلى وعنه نقل الشيخ الجودى

---

(١) ذكره التجانى فى رحلته ص ٢٥٧ .

فى تاريخ قضاء القيروان (مخطوطة المعهد القومى للآثار ص ٤٨) وكلاهما وصف صاحبنا بالفقيه .

وخلاصة الواقعة ، أن الورفلى هذا كان صديقا مقربا للشيخ الصالح أبى الحسن العبيدلى ، وكان العبيدلى كلما مر بمدينة قابس فى طريقه إلى الحج أو منه ينزل عنده ، ولما ولى الورفلى قضاء القيراون حاول الاتصال بالعبيدلى فامتنع عنه لأنه قبل القضاء فاعتذر إليه بأنه وليه مكرها فأرسل إليه يقول : اعدل تعزل فتشدد فى نصرة الحق وضرب يوما أحد أتباع القائد الحفصى ابن أبى الربيع فأرسل القائد أعوانه للقاضى الذى فر عنه أعوانه أمام قوة أعوان القائد وهرب القاضى إلى الجامع وأغلق عنه بابه .

وسمع العبيدلى بالأمر فخرج بأتباعه من الفقراء إلى مقابر القيروان يدعو على القائد وعلى من كان سببا فى الفتنة ، وعلم السلطان أبو يحيى أبوبكر الحفصى (٧١٨ – ٧٤٧) بالأمر فاستدعى القائد لحاضرة تونس حيث قتله قائد الأعنة بمجرد وصوله لتسببه فى هذه الفتنة ، وعزل الورفلى وغادر القيروان إلى بلده قابس مشيعا من طرف صديقه العبيدلى .

والمستنتج من هذه القصة أن الورفلى كان قاضيا بالقيروان فى النصف الأول من القرن الثامن أى ما بين ٧١٨ و ٧٤٧ وهى مدة ولاية السلطان أبى يحيى أبى بكر ثم لا نعلم عن الورفلى شيئا بعد عزله ورجوعه إلى قابس .

– ١٩ –

أحمد الطيارى القابسى

قال عنه أستاذنا ح . ح . عبد الوهاب[1] أحمد بن عبد الله الطيارى من أبناء مدينة قابس وكان يعيش خلال القرن الثانى عشر هـ .

---

(١) صدور الأفارقة (مخطوط) .

وكل ما نعرف عنه أنه كان عالما بالفرائض والحسابيات وأنه اختصر شرح محمد سبط المارديني على متن الرحبية في الفرائض أتم تحريره سنة ١١١٧ هـ . ولا نعرف إذا كان عاش كثيرا أو قليلا بعد هذا العهد .

— ٢٠ —

محمد بن نصر القابسي

ذكره ابن أبي الضياف في تاريخه[1] فقال : أصله من قابس وتربى بالعاصمة وبها تعلم ثم تصدر للتدريس بجامع الزيتونة وأصابه مرض أقعده عن التنقل فجعل من سقيفة داره بزقاق الأندلس بتونس محلا للتدريس وتزاحم عليه الطلبة وكان مشهوراً بقدرته على إفهام الطلبة بأيسر الطرق وذاعت شهرته في المنقول والمعقول وفي العفة وكرم الأخلاق وله أدب وشعر متين ، لم ينقل لنا المؤرخون نماذج منه ، توفي في ١٨ ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ .

---

(١) ج ٤ (مخطوط) .

الفصـــل الثانى

أعـــلام عابرون

ووفد على قابس كثير من العلماء والأدباء والشعراء والزهاد ، وسكنوا بها كثيراً ، أو قليلا . ثم غادروها إلى غيرها ، فهؤلاء فى الواقع ليسوا من أعلامها المحليين ولكنهم من العابرين الذين اتصلت حياتهم بها فى فترة من الزمن قضوها فيها ، إما مشتغلين بالقضاء كأبى المطرف بن عميرة أو بالرباط والعبادة كالنميرى ، أو بالكتابة للأمراء كابن فرسان ، أو بمصاحبة الملوك وتقييد أعمالهم شعرا ونثرا كابن مجبر . . الخ

على أن بعض هؤلاء العابرين رأينا إثبات شىء من ترجمته فى تعاليقنا على الكتاب فى الأبواب السالفة كابن ناجى وابن العطار وغيرهما ، والسبب فى ذلك أن ما عثرنا عليه بعد الانتهاء من الكتاب ألحقناه بهذا الباب تعميما للفائدة والله المستعان .

— ١ —

أبو بكر ابن مجبر[1]

أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر ، نشأ وتعلم بالأندلس ، واتصل بالأمير أبى عبد الله محمد بن مردنيش ، وله فيه

---

(١) ابن (مجبر) بالباء الموحدة فى رحلة التجانى وفى إحدى نسخ نفح الطيب وفى الاستقصاء ونسخة ثانية من نفح الطيب ، ابن (مجير) بالياء المثناة ، وأثبتناه بالباء لأن ذلك هو المشهور على الألسن .

مدائح ، ثم اتصل بيوسف بن عبد المؤمن الموحدى صاحب مراكش ثم بابنه يعقوب المنصور ، وله فيهما مدائح سارت بذكرها الركبان .

ودخل قابس مع يعقوب المنصور حين استولى عليها وأطرد منها قراقوش الأرمنى سنة ٥٨٣ هـ . وفى هذه الواقعة قال قصيدته التى نقل لنا منها التجانى البيتين الآتيين ذاكرا أنهما من قصيدة طويلة[١] :

لقد برزت إلى هول المنايا وجوه كان حجبها اللثام
وما أغنت قسىّ الغز عنها وليست تدفع القدَرَ السهام

وتنقل ابن مجبر مع أميره فى البلاد التونسية ثم رجع معه للمغرب مات بمراكش فى عهد المنصور سنة ٥٨٨ هـ وعمره ٥٣ سنة .

قال المقرى فى نفح الطيب[٢] : «كان فى وقته شاعر المغرب ، ويشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه قصائده التى صارت مثالا ، وبعدت على قربها منالا ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت» .

ومن شعره يصف خيل المنصور الموحدى :

له حلية الخيل العتاق كأنها نشاوى تهاوت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه وان جردوه فى ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف أهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجى فإذ حازه دلى له الذيل والعرفا

---

(١) الرحلة ص ١٣٧ .
(٢) ج ٤ ص ٢٢٢ .

وأشقر مج الراح صرفا أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فضي الأديم مــدنر عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطر الزاهي بمهرق كاتب فجر عليــه ذيله وهو ما حمّا
تهب على الأعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمترى أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا ؟
وقد كان في البيداء يألف سربه فربته مهرا وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه على ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

— ٢ —

أبو المطرف ابن عميرة[1]

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي من فحول العلماء والكتاب أصله من شقورة (Segura de la Lierea) ، نشأ في بلنسية بالأندلس وتنقل بين غرناطة والمغرب وتونس ، وتولى القضاء في أريولة وشاطبة بالأندلس ، وفي مكناس وسلا ومليانة بالمغرب ، وفي قسنطينة وقابس وغيرهما بتونس .

أخذ تعليمه بالأندلس ثم وفد على المغرب الأوسط وسكن بجاية زمانا درس بها أصول الفقه ، وبرع في الأدب واتصل بالخليفة المستنصر الحفصي فقدمه إلى وظيفة القضاء .

تولى القضاء بقابس زمانا في عهد المستنصر حوالي منتصف القرن السابع وفيها كتب رسائله عنها ، وفي آخر أيامه رجع إلى تونس العاصمة واستقر بها ملازما للبلاط الحفصي حتى وافاه أجله في ٢٠ ذي الحجة سنة

---

(١) انظر عنه التجاني ص ٩٠ والإحاطة ح ١ ص ٦٠ — وبغية الوعاة ص ١٣٧ — وعنوان الدراية ص ١٧٨ وصدور الأفارقة (خط) والحلل السندسية ص ١٥٠ — ١٥١ .

٦٥٨ هـ ، وعمره نحو ٧٦ سنة قرية إذ كان مولده بالأندلس فى رمضان سنة ٥٨٢ هـ .

قال عنه لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة أنه « اشتغل فى الحديث والتاريخ والأخبار وبرع فى جميعها » .

وقد ترك آثاراً أدبية نفيسة ، تتمثل فى رسائل بديعة تنع فيها طريقة السجع المعروف فى عصره وشعراً كثيراً أثبتنا منه فى الفصل الأول من هـذا الباب قصيداً قاله عند زيارته لأبى لبابة مفارقا لقابس ومن هذه الآثار :

١ ــ فاجعة المرية وتغلب الروم عليها ، فى التاريخ .

٢ ــ التنبيه ، على المغالطة والتنويه ، فى الأدب .

٣ ــ تقييد الرسائل (مجموع رسائله) .

٤ ــ ديوان شعره فى جزءين يحمل عنوان (بغية المستطرف ، وغنية المتطرف ، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبى المطرف) .

ومن العنوان الأخير الذى وضعه له حسب الظاهر ــ جامع الديوان ، يفهم أن الرجل كان مشهورا بالكتابة النثرية أكثر من الشعر .

وهذا أنموذج من نثره من رسالة يصف فيها واحة قابس التى عاش فيها زمنا متوليا لقضائها[1] : « بلد غوطى البساتين ، طورى الزيتون والتين ، وأما النخل فجمع عظيم ، وطلع هضيم ، وسكك مأبورة ، ونواعم فى الخدور مقصورة ، وأن بقعته لوارفة الظل ، آمنة الحرم والحل ، جنة لو نزع ما فى صدور أهلها من غل . وبالجملة فهو تام الغرابة ،

---

(١) نقلا عن التجانى ص ٩٠ ــ ٩١ .

مدهام الغابة ، مستأثر بسيد من سادات الصحابة ، ولا عيب بتربته إلا وخامة مائها ، وحميات قلما يعرى من عدوائها » .

وله من رسالة ثانية يصف هواء قابس وماءها وعقاربها :

« وهذه البلدة الآن فى ضلال من شرح الشباب ، وظلال من ثمرات النحيل والأعناب ، فهى بحال يقر بجمالها الأندلسى ، ويجارى بين خلالها الدبسى (؟) ولا عيب فيها إلا هواء وخامته تخاف ، وماء غير من خالصه الماء المضاف ، ولبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار ، سريعة إلى القطان والزوار ، كراها تنفيه ، وسرها تخفيه ، وصلحها لايطمع أحد فيه ، فقبحت شائلة الأذناب ، شاملة بالعذاب ، كامنة بارزة ، هامزة لامزة ، تطرق بالبلية ، وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية ، دبت عندنا ليلة إلى من كان يرمق دبيبها ، ويحاول قبل أن تصيبه أن يصيبها ، فأوقعت به لدغا فى القدم ، ولقى أشد الألم ، وبات وبتنا معه فى لية أخى ذبيان ، وتعالى الله ما أطول ما كانت وأهول ما كان » .

— ٣ —

عبد البر بن فرسان[1]

أبو محمد عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمان الغسانى الوادى آشى ، من أهل (وادى آش) بالأندلس .

نشأ بالأندلس وبها أخذ العلم ، وبرع فى الشعر وكتابة النثر ، وانتقل إلى إفريقية فاتصل بيحيى بن غانية الميورقى المغامر الشهير فجعله كاتبه الخاص ومستشاره وسفيره إلى الخلفاء والملوك ، وكان ابن فرسان فارسا

---

(١) انظر التجانى من ص ١٠٧ إلى ١١٠ — والأعلام للزركلى ح ٤ ص٤٦ — ط — ثانية — ونفح الطيب ح ٣ ص ٣٦٧ .

معدوداً وشجاعا له غناء فى الحرب فضلا عن جودة شعره ونثره وبراعته السياسية ، ولا ندرى ما الذى جعله يفضل الميورقى المغامر على غيره من ملوك ذلك العهد إذ لا نشك أن أدبه الزاخر يضمن له المكانة السامية عندهم ، اللهم إلا أن يكون الرجل من محبى المغامرات وعشاق التنقل وربما كانت هذه النفسية هى التى دفعته لخدمة الميورقى الذى قضى نصف قرن فى مغامرات وحروب متصلة .

وفى أثناء أجلاب الميورقى على إفريقية والمغرب ، وكان يدعو إلى الخليفة العباسى ببغداد . أرسل ابن فرسان كاتبه إلى بغداد للاتصال بالخليفة وربط الصلة معه فقدم بغداد واتصل بالخليفة وأتم سفارته على أحسن وجه ثم رجع إلى إفريقية حيث حضر عدة وقائع وحروب مع الميورقى فأصيب بجراحة فى آخر أيام الميورقى فمات منها كما مات بعده بنفس العلة صاحبه الميورقى ، وكان اتصاله بقابس عند دخول صاحبه الميورقى إليها سنة ٥٩١ هـ ، واستقر بها تحت حكم الميورقى عشر سنوات كان يصاحب أثناءها مخدومه فى حروبه ويرجع إليها إلى أن حررها الناصر الموحدى سنة ٦٠١ هـ ، وهرب ابن فرسان مع صاحبه منها .

قال المقرى : «كان آية فى بعد الهمة والذهاب بنفسه والغناء فى مواقف الحرب » .

ثم أورد المقرى حكاية عن همته العالية فقال : «تخاصم له ولد صغير مع ولد يحيى الميورقى فاستراه هذا قائلا : وما قدر أبيك ؟ فسمع عبد البر وخرج مغضبا والتقى بولد الأمير فقال له حفظك الله لست أشك فى أنى خديم أبيك ولكنى أحب أن أعرفك بنفسى ومقدارى ومقدار أبيك : اعلم أن أباك وجهنى رسولا إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب منه فأنزلت فى دار اكتريت لى بسبعة دراهم فى الشهر وأجرى على سبعة دارهم فى اليوم ، وقيل

من الميورقى الذى وجهه ؟ ثم استدعيت للخليفة فلما تكلمت اعتذروا إلى، وقالوا هذا رجل جهل مقداره ، فأعدت إلى محل بسبعين درهما فى الشهر ، وأجرى على مثلها فى اليوم . ثم ودعت الخليفة وصدر لى شىء له حظ من صلته وانصرفت ، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند من يعرف الأقدار والثانية كانت على قدرى » .

وابن فرسان جمع الصناعتين الشعر والنثر . وقد أثبتنا له سابقا نموذجا من نثره من الرسالة التى وجهها الميورقى إلى أهل طرابلس إثر احتلاله لقابس . كما أثبتنا له هناك القصيدة التى مدح بها الميورقى إثر الانتصار :

ومن شعره يمدح الميورقى ، وقد تعمم بعمامة بيضاء ، ولبس غمارة حمراء على جبة خضراء :

فديتك بالنفس التى قد ملكتها   بما أنت موليها من الكرم الغمض
ترديت للحسن الحقيقى بهجة   فصار لها الكلى فى ذلك البعض
ولما تلألأ نورُ عرتك التى   تقسم فى طول البلاد وفى عرض
تلفعتها خضراء أحسن ناظر   نبت عنك إجلالا وذاك من الفرض
وأسدلت حمراء الملابس فوقها   بمفرق تاج المجد والشرف المحض
فأصبحت بدرا طالعا فى غمامة   على شفق دان إلى خضرة الأرض

وقال متحمسا .

أجبناً . ورمحى ناصرى وحسامى ؟   وعجزاً وعزمى قائدى وإمامى ؟
ولى منك بطاش اليدين غضنفر   يحارب عن أشباله ويحامى

وقال يستأذن أميره فى الحج لما كبرت سنه :

امنن بتسريح على وفعله   سبب الزيارة للحطيم ويثرب
ولئن تقول كاشح ان الهوى   درست معالمه وأنكر مذهبى
فمقالتى ما إن مللت وإنما   عمرى أبى حمل النجاد ومنكبى

وعجزت عن أن أستثير كمينها ... وأشق بالصمصام صدر الموكب

وقال يخاطب طائراً يتغنى فوق غصن ويتشوق إلى أطفاله وهى فى غاية الرقة :

ندى مخضلا ذاك الجناح المنمنما ... وسقيا وإن لم تشكُ ياساجعاً ظما
أعدهن ألحانا على سمع معرب ... يطارح مرتاحا على القضب معجما
وطر عبر مقصوص الجناح مرفها ... مسوغ أشتات الحبيب منعما
مخلى وأفراخا بوكرك نوما ... ألا ليت أفراخى معى كن نوما

— ٤ —

أبو الحسن النميرى[1]

أبو الحسن على النميرى الششترى ، من أهل قرية (ششتر) من عمل (وادى آش) بالأندلس وهناك تلقى تعليمه وأتصل بالعالم الصوفى ابن سبعين الأندلسى فقرأ عليه طريقة الصوفيين ، ومال إلى هذا الطريق وزهد وتعبد وحج حجات وآثر التجرد والعبادات ، وتنقل بين الأضرحة والرباطات وصار له أتباع عديدون فكان يتبعه فى أسفاره نحو من أربعمائة فقير ، وحين مات أستاذه ابن سبعين انفرد بعده بالرئاسة والإمامة على الفقراء والمتجردين[2] .

وانتهت تنقلاته إلى قرية من قرى الشام تسمى (طينة) فمات بها وحمله تلاميذه إلى مدينة (دمياط) ودفنوه هناك سنة ٦٦٨ هـ .

وقد كما أشرنا إلى نزوله بقابس وملازمته للعبادة والرباط برباط البحر

---

(١) ترجم له الغبرينى فى عنوان الدراية ص ١٤١ ونفح الطيب ج ٢ ص ٣٨٤

(٢) هذا كلام الغبرينى ، وهو مشكل إذ نجده يقول إن النميرى مات سنة ٦٦٨ ، ويقول المقرى إن ابن سبعين مات سنة ٦٦٩ هـ أى بعد النميرى بسنة فكيف يصح قول الغبرينى أن النميرى انفرد بالرئاسة بعد موت ابن سبعين مع أنه مات بعده ، ولعل الغبرينى مخطىء فى قوله وأن أحدهما مخطئ فى سنة الوفاة .

المسمى بمسجد الصهريج ، وإلى زيارة الشيخ الصالح أبي إسحاق الورقاني دفين قابس إليه في ذلك الرباط وانتظاره إياه — إذ وجده متغيبا — ودخول النميري على أبي إسحاق بالمسجد وطلبه للمداد وكتب في اللوح :

لا تلتفت بالله يا ناظري   لا هيف كالغصن الناضر

إلى آخر المقطوع الذي أثبتناه هناك في حديثنا عن مسجد الصهريج .

وصفه الغبريني بأنه « كتاب شاعر له شعر مطبوع وتواشيح وزجل في غاية الحسن » . وذكر المقري من تآليفه :

١ — المقاليد الوجودية ، في أسرار الصوفية ،

٢ — الرسالة القدسية ، في توحيد العامة والخاصة .

٣ — المراتب الإيمانية ، والإسلامية ، والإحسانية .

٤ — الرسالة العلمية .

٥ — العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده .

وكان النميري نزل بقابس ورابط مدة بمسجد الصهريج يتعبد ويعلم الطرق الصوفية وفي هذا المكان كان يزوره أبو إسحاق الورقاني ، وهناك وفد عليه أستاذه ابن سبعين مع فقرائه في طريقه إلى المشرق واستراح عنده أياما .

وجميع كتاباته وأشعاره وأزجاله في التصوف ومن شعره النونية التي اشتهرت عند الصوفية شرقا وغربا وشرحها الشيخ الصالح سيدي أحمد زروق شرحا وافيا ، وأولها

أرى طالبا منا الزيادة والحسنى   بفكر رمى سهما فعدى به عدنا

وطالبنا مطلوبنا من وجودنا   تغيب به عنا لدى الصعق أن عنا

ومن شعره أيضا :

لقد تهت عجبا بالتجرد والفقر   فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر

وجادت لقلبي نفحة قدسية   فغبت بها عن عالم الخلق والأمر

طويت بساط الكون والطى نشره ... وما القصد إلا الترك للطى والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلق ... فألفيتنى ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة ... ونزهت من أعنى عن الوصل والهجر
وما الوصف إلا دونه غير أننى ... أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى
وذلك مثل الصوت أيقظ نائما ... فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فقلت له الأسماء تبغى بيانه ... فكانت له الألفاظ سترا على ستر

— ٥ —

قطب الدين ابن سبعين[1]

أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين الملقب بقطب الدين المرسى الأندلسى من أهل مرسية تعلم بالأندلس ثم انتقل إلى سبتة وانتحل طريقة التصوف وعكف على مطالعة كتبه فمالت إليه العامة وتبعه خلق كثير ورحل إلى المشرق فمر بتونس وقابس وفيها استراح مدة عند تلميذه الحميرى برباط البحر المسمى بمسجد الصهريج ثم انتقل إلى الشرق فحج مرات وشاع ذكره وكثر أتباعه .

ولما بايع أهل مكة المستنصر الحفصى صاحب تونس بالخلافة سنة ٦٥٧ هـ ، كان المتولى لكتابة البيعة هو ابن سبعين .

وتوفى ابن سبعين — على قول المقرى — سنة ٦٦٩ بمكة المكرمة .

وكان كاتبا بليغا وشاعرا على الطريقة الصوفية ، ومن شعره :

كم ذا تموه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سلع وكاظمة ... وعن زرود وجيران بذى سلم
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم

(١) ترجم له نفح الطيب ج ٢ ص ٣٩٥ .

فى الحى حى سوى ليلى فتسأله عنها ؟ سؤالك وهم جر للعدم

وللناس فى ابن سبعين أقوال بين قادح لطريقته مكفر له ، وبين مادح لها ومشيد بها حسب آرائهم فى التصوف والمتصوفين وما يظهر فى كلامهم من شحطات يؤولها المادح ويستنكرها القادح وللناس فيما يعشقون مذاهب .

— ٦ —

أبو الفضل التجانى(١)

أبو الفضـــل محمد بن أبى الحسن على التجانى ابن عم عبد الله التجانى صاحب الرحلة .

كان من جملة كتاب ديوان الإنشاء فى الدولة الحفصية فى أيام السلطان محمد الحفصى الثانى الملقب بأبى عصيدة (٦٩٤ — ٧٠٩ هـ) ثم فى أيام السلطان أبى يحيى زكرياء اللحيانى (٧١١ — ٧١٧ هـ) وأيام ابنه محمد الثالث الملقب بأبى ضربة (٧١٧ — ٧١٨ هـ) فكان أبو الفضل كاتب سره ومدبر أمره . ولما زحف السلطان أبو بكر الثانى من المغرب الأوسط على تونس وأوقع بأبى ضربة فى فحص معوج من تراب سايانة اليوم — سنة ٧١٨ هـ قتل أبو الفضل فى المعركة مع سلطانه أبى ضربة .

ولأبى الفضل هذا مؤلفات ذكر منها أستاذنا ح . ح . عبد الوهاب فى ترجمته له كتاب (الناسم) جمع فيه تراجم ومختارات لشعراء عصره ، وكتاب (الحلى التيجانية ، والحلل التجانية) فى أخبار النابغين من عائلة التجانى .

وأورد التجانى فى رحلته لأبى الفضل مقطوعات من الشعر والنثر(٢)

---

(١) ترجم له أستاذنا ح . ح . عبد الوهاب فى مقدمته لرحلة التجانى ص ١٥ — م .

(٢) انظر الرحلة ص ٢٢١ — ٢٨١ — ٢٨٨ .

تدل على مشاركته الحسنة فى هذا الباب ويصفه دائما بقوله (الفقيه البليغ) مما يدل على أنه كان فقيها إلى جانب أدبه ، وقد أثبتنا له فى الباب الأول قصيدته فى وصف (ساحة عنبر) .

ومن شعره أيضا يخاطب ابن عمه عبد الله صاحب الرحلة جوابا عن رسالة وردت إليه منه :

لمع البرق فشمته وبدا سر كتمته
وسرى نحوى بسر وبمعى ما فهمته
معلما خلعة ود من وداد قد علمته
كاشفا عنى قناعا بدموعى قدر قته
هل الدمع لبرق بلظى نارى وسمته
وأطار القلب منى وبودى لو رممته
فهو للوجد مضيف وعلى الشوق ضممته
أفرد التركيب بالتحليل لما أن قسمته
فلدى الجسم والقلب لدى خل عدمته
سار شرقا فدحت الشرق من غرب ذممته
ثم حيانى بروح وبريحان شممته
بكتاب صح فى الود دليلا فأقمته
كم سرحت الطرف مر تاحا إليه ولثمته
رسمت أحرفه فيه خلوصا قد رسمته
يعلم الله اعتقادا واتحادا ما حرمته
وانتسابا وانتصابا لهوى منى أدمته
وبعين القرب فى سن الهوى بالنفس سمته
فإذا صح بشىء فهو ما بينت رمته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد هذا الشعر رسالة نثرية مسجوعة على الأسلوب المتبع فى ذلك العصر .

ومن شعره ما أجاب به عن رسالة من ابن عمه المذكور أولها :

أهدى سلام الود خير رفيق   من عد أوحد أسرتى وفريقى
ومقام عبد الله نجل محمد   فى قومه سام على العيوق

ومن شعره يخاطبه أيضا .

من لمشغوف معنى   ذكر العهد فحنا
راعه الدهر ببين   بعد ما كان اطمأنا
أبصر الربع قواء   فبكى شوقا وأنا
وتمشى مشىّ وله   ن به يقرع سنا
وشجاه هاتف فو   ق الربى غنى فعنى
إلفه دان فلو فا   رق إلفا ما تغنى
أطرب الروح وأبرد   ت شجونى حين ثنى
فهى من فرط ارتياح   دون راح تتثنى
وتذكرت زمانا   بالتدانى مر عنا
وحديثا ما أحيلا   ه وسرا منه صنا الخ

ودخل أبو الفضل قابس وأقام بها مدة — لا نعلم — مداها وتنزه فى رياضها ووصف لنا منتزه (ساحة عنبر) بالواحة وصفا عزيزا فى قصيدته الرائعة متغنيا بجمالها شاديا بخضرتها ومائها وظلالها إلا أننا لا نعلم متى كان اتصاله بقابس ؟ ولأى سبب كان هذا الاتصال ؟ أكان مجيئه لها فى مأمورية حكومية ؟ أم كان لمجرد الاستراحة والتنزه ؟

— ٧ —

أبو الروح ابن مسعود

ذكره ابن فرحون فى الدباج المذهب[1] بقوله : « أبو الروح عيسى ابن مسعود بن منصور بن يحيى بن يونس بن يُوَيْنُو[2] بن عبد الله بن أبى حاج المنكلاتى[3] الحميرى الزاوى المالكى المولود فى سنة ٦٦٤ هـ تفقه ببجاية على أبى يوسف يعقوب ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأخذ بها كثيراً عن أعلام الشريعة ثم التحق بقابس حيث أقام مدة يبث العلم وولى بها القضاء ثم رجع إلى مصر حيث انتصب لتدريس العلوم بالأزهر ومنها تحول إلى دمشق ليشغل منصب نيابة القضاء نحو سنتين ومنها رجع إلى مصر ليشغل نفس الخطة مع قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف المالكى ومع خلفه ثم ترك القضاء ليتولى التدريس بزاوية المالكية وأقبل على بث العلم والتأليف فيه .

وكان متفننا فى الفقه وأصوله والعربية والفرائض وحكى عن نفسه أنه حفظ مختصر ابن الحاجب فى ثلاثة أشهر ونصف وحفظ موطأ مالك وإليه انتهت رئاسة الفتوى على مذهب مالك فى مصر والشام وتوفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٣ .

وله من المؤلفات .

— شرح صحيح مسلم فى ١٢ جزءاً وسماه (إكمال الإكمال) .

— شرح مختصر ابن الحاجب وصل فيه إلى كتاب الصيد فى ٧ مجلدات

---

(١) ص ١٨٢ .

(٢) يوينو بضم الياء الأولى وفتح الثانية والنون مضمومة مشددة .

(٣) المنكلاتى بفتح الميم والكاف وسكون النون بينهما وتشديد لام الألف نسبة إلى قبيلة منكلاة يقول ابن فرحون انها قبيلة من العرب .

– مختصر جامع ابن يونس على المدونة .

– تأليف الوثائق والمناسك وعلم المساحة .

– رد على ابن تيمية فى مسألة الطلاق .

– مناقب الإمام مالك .

– تاريخ جامع من بدء الدنيا إلى زمانه .

هذا ولم نعثر على نص يبين لنا المدة التى قضاها بقابس مدرسا وقاضيا ؛

* * *

هذه هى قابس ، دمشق الصغرى ، وجنة الدنيا ، والواحة الخالدة التى تطل على تخوم العمران من جهة ، والصحراء الرهيبة من جهة ثانية .

قابس الخالدة التى صارعت الأحداث ، وقاومت أعاصير الدهر وصمدت لتيارات السياسة وتطاحن الدول ، وحافظت على جمالها وروعتها رغم وجودها فى طريق الفاتحين والمغامرين من الشرق والغرب ، مرت عليها آلاف السنين وهى هادئة ساكنة مبتسمة ضاحكة – يتطارح البحر على عتبتها من الشرق وتستوحى الصحراء الممتدة جنوبا وغربا من جمالها ونضارتها جمالا وسحراً .

قابس الواحة التى اشترك البربر والفنيقيون والرومان والوندال – والبيزنطيون والعرب فى غراسة أرضها واستغلال مياهها وبناء دورها وقصورها ، ومعالمها ومصانعها .

قابس التى عدت الأبدان بغلالها وفواكهها وخيراتها ، والأرواح بسحرها وجمالها وفتنتها أعطت لسكانها أحلى وأعذب الغلال ، وألبستهم أرق وأجمل أنواع الأكسية والثياب بما تدر واحتها من موز وعنب وتمر وسكر ورمان ومن حرير يصنع فى شتى الأشكال والألوان .

هذه هى مدينتكم (قابس) وواحتكم الطليلة يا أبناء قابس .

فمن واجبكم أن تستمدوا العزم والقوة من صراعها للدهر ، والرقة والفصل من جمالها وسحرها ونضرتها وأن تسخروا بالأحداث كما سخرت بها ، وأن تحافظوا عليها وتعملوا من أجلها كما حافظت على روعتها ودرت عليكم من خيراتها .

عليكم تنتبهون إلى وجوب أحياء غلاتها وصناعاتها وخدمة أرضها وتجميل بناءاتها .

إن أرضها تدعوكم للتفكير فى إعادة ما اضمحل من أشجارها إلى الوجود ، فاسألوا أين ذهب توتها الذى استغل منه أجدادكم الحرير فدر عليهم الخير الكثير . وإن مرفأها المعطل الآن ، يدعوكم إلى إعادته للحياة حتى يصبح ملجأ للجوارى المنشئات .

والله يوفقنا ويوفقكم لما فيه السداد ، وخير العباد والبلاد .

تونس فى أكتوبر ١٩٥٩

المصادر والمراجع

عربيـــة :

– تاريخ ابن خلدون – طبعات : بولاق ، والجزائر ، وبيروت

– رحلة التيجانى – ط ثانية تونس

– الحلل السندسية – ط تونس

– ابن حوقل (المسالك) – ط ليدن ١٨٧٣ .

– البكرى (المسالك) – ط الجزائر

– المقدسى (أحسن التقاسيم)

– الورثلانى (نزهة الأنظار) – ط الجزائر ١٩٠٨

– الإدريسى (نزهة المشتاق)

– معالم الإيمان – ط تونس

– الكامل لابن الأثير

– البلدان لليعقوبى – ط بغداد

– السير للشماخى – ط حجرية

– رحلة العبدرى – مخطوطة الأستاذ ح ح عبد الوهاب

– رحلة العياشى ج ٢ » » » »

– التاريخ الباشى – » » » »

– بسط الأرض لابن سعيد – ط المغرب

– عنوان الدراية – ط الجزائر

– نفح الطيب

– وفيات الأعيان

– خلاصة تاريخ تونس – ط ثالثة

— تاريخ ابن أبي الضياف — مخطوطة المعهد القومي للآثار
— الأعلام للزركلي — ط ثانية
— معجم قبائل العرب — ط دمشق
— الإمام المازري — ط تونس
— صدور الأفارقة — مخطوطة ح ح عبد الوهاب
— ابن عبد الحكم (فتوح مصر وإفريقيا) — ط كربونال
— الاستقصاء — المغرب
— المنتخب المدرسي — ط ثانية
— خريدة القصر (قسم المغرب والأندلس) — مخطوطة الأحمدية تونس
— البيان المغرب لابن عذاري — ط بيروت
— ابن خرداذبة (المسالك)
— المؤنس لابن أبي دينار — ط تونس
— إفريقيا الشمالية في العصر القديم — لمحمد محيي الدين المشرفي — ط المغرب
— الخلاصة النقية — ط تونس
— الفتح العربي للمغرب — ط مصر
— المعجب في أخبار المغرب
— فتوح البلدان للبلاذري — ط مصر
— الإصابة في معرفة الصحابة — ط مصر
— الاستيعاب في أسماء الأصحاب ط مصر
— القدح المعلى لابن سعيد — ط مصر
— الصحراء الكبرى — ترجمة خيري حماد — ط بيروت

فرنسية :

— Encyclopédie musulmane
— Atlas archéologique de Tunisie
— L'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, gsell
— Les Tribus tunisiennes, Roy
— La Berberie orientale sous les Hafsides, Brunschvig
— Le Golfe de Gabés en 1888, J. Servonnet et doct, F. Lafitte

لاتينية :

— Histoire naturelle, Pline l'ancien



الفهارس



فهرس الأعـــلام

(ا)

فهرس القبائل والفرق

فهرس البلدان والأماكن

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الكتب

(ن)

(و)

فهرس الصور

صفحة

صفحة

للمؤلف

أبو العلا المعرّى : آراؤه وعقيدته ، تونس ١٩٣٥ .

أشعة الجمال ، تونس ١٩٣٦ .

دموع وعواطف (شعر) ١٩٤٦ .

جزاء الخائنة (قصة) ١٩٤٦ .

عرقوب الخير (مجموعة قصص) ١٩٥٦ .

فى سبيل الحرية (مجموعة قصص) ١٩٥٦ .

مؤنس الأحبّة فى أخبار حربة ١٩٦٠ .

معركة الزلاّج بالاشتراك مع الأستاذ الجيلانى بن الحاج يحيى ١٩٦١ .

قابس جنة الدنيا ، مصر ١٩٦٣ .

تحت الطبع :

بقايا شباب (شعر) ، مصر ١٩٦٣ .

قريباً . . .

معركة الجلاز

الجزء الأول من تاريخ الحركة الوطنية التونسية

تأليف

الجيلانى بن الحاج يحيى و محمد المرزوقى



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٢



هذا الكتاب

● يكشف عن تاريخ مدينة كانت فى يوم من الأيام العاصمة الثانية لإفريقية العربية بعد القيروان ، والباب الذى ولجت منه الجيوش العربية القادمة من المشرق لتكتسح رقعة إفريقيا الشمالية حاملة لها مشعل الدين الإسلامى والحضارة العربية ، والمركز الممتاز الذى تصادمت من أجله بطولات خلقتها ظروف تاريخية خاصة .

● يلقى ضوءاً عن فترات غامضة من التاريخ العربى فى إفريقية القديمة وتونس الحديثة ، وعن الصلات المتينة التى كانت ، ولاتزال ، بين المشرق العربى والمغرب العربى تصارع الأحداث ، ويحقق نقطاً بقيت محل خلاف بين المؤرخين إلى اليوم .

● يترجم لجماعة من أهل العلم والأدب والزهد كانت تراجمهم مشتتة فى بطون الأسفار .

● إنه تاريخ حافل لايقتصر على محيط مدينة قابس ولكنه يستطرد إلى جميع الأحداث التى لها صلة بهذه المدينة .